

البيان اليونانية القيمة



تأليف: ه. م. روز

ترجمة: رمزي عبد جرحي

راجعة: دكتور محمد سليم سالم

مطبعة

١٢٧

٥٦٩

الالف كتاب

١٦٧

الدراسة اليونانية القديمة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

الألف كتاب

٥٦٩

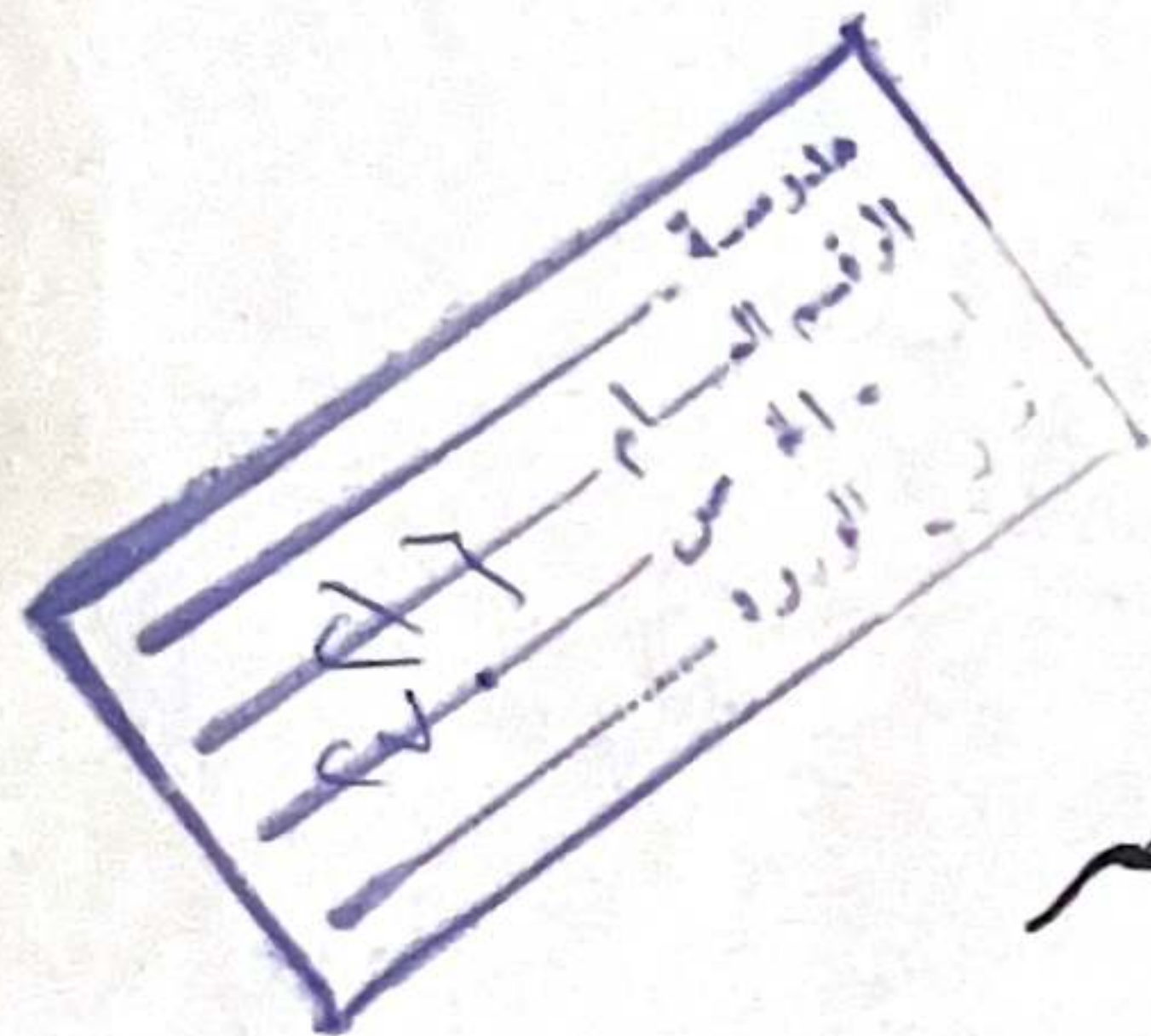
الكتبة

الرعاية البيروانية القديمة

تأليف
ه. ج. روز

مراجعة
دكتور محمد سليم سالم

ترجمة
رمزي عبد جريس



الناشر

دار النهضة مصر

للطباعة والنشر

القاهرة

١٩٦٥

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

سرنا في تأليف هذا الكتاب على فرض أن قراءه إنما يرغبون في الإلمام بجانب هام من جوانب الحياة الذهنية والروحية لشعب من ألمع الشعوب في التاريخ الأوربي ، دون أن يكون لدى هؤلاء القراء علم به كعلم الباحثين الاختصاصيين . ومن ثم فهو لا يفترض حتى مجرد الإلمام بالحروف اليونانية ، رغم أنها كبيرة الشبه بالحروف الإنجليزية حتى ليستطيع المرء أن يلم بها خلال نصف ساعة . أما من تحدوهم الرغبة ، بعد قراءة ما قد سطر في الفصول التالية ، في أن يستزيدوا علما ، فليس عليهم إلا أن يرجعوا إلى المراجع المدرجة في ذيل هذا الكتاب . وإذا وجد البعض ما يغريهم بتعلم اللغة اليونانية منبع الآداب والعلوم الغربية كافة ، فسيثلج ذلك صدر المؤلف أضعافا مضاعفة .

ولا يحيص من أن ترد في كتاب من هذا النوع كثير من الأسماء اليونانية ؛ نقلت نقلا حرفيا دقيقا إلى صورها اللاتينية ، فلغة هذا الكتاب ليست هي اللاتينية بل الإنجليزية . غير أن هناك بعض الاستثناءات القليلة . فلبعض الأسماء ، مثل أثينا Athens صيغ إنجليزية ، وهذه قد استخدمناها . كما أن هناك لفظة أو لفظتين نالتا في الصيغة اللاتينية من الشيع والرواج ما جعلهما جزءا من اللغة الإنجليزية ، كما هو الحال مع اسم ثوكيديديس Thucydides . وفي هذه الحالة أيضاً ابتعدنا عن طريقنا المرسوم ومبدئنا الثابت . ولعله من الجدير بالذكر أن الحرف u يمثل في نقلنا ما كان ولا يزال يكتب باليونانية على صورة حرف مزدوج كما هو الحال في اللغة الفرنسية . وربما أوحى استخدام الحرفين ou بأنهما ينطقان كما في الكلمة الإنجليزية house (هاوس) ، الأمر الذي لم يقع في أى كلمة يونانية في أى عصر من العصور . أما الحرف اليوناني u الذي كان ينطق به بوجه عام في اللغة اليونانية القديمة (وإن لم ينطبق ذلك على جميع اللهجات) كما ينطق في اللغة الفرنسية ، فقد كتب على هيئة

هذه ترجمة كتاب :

ANCIENT GREEK RELIGION

تأليف :

H. J. Rose

الحرف y. وفي الألفاظ المنقولة عن اللغة اليونانية الحديثة يمثل الحرفان dh نطق الحرفين الإنجليزيين th في كلمة then ، أما gh فهي حرف الجيم في اللغة اليونانية الحديثة ، الذي يخرج في الفم على عمق أكبر مما يحدث لحرف g في الإنجليزية أو الألمانية (كما في go و gehen) وإن كان يشبه حرف y الساكن في اللغة الإنجليزية عندما يسبق حرفي i و e . والنبرة التي توضع على حرف العلة في كلمة من اللغات الحديثة تدل على التشديد stress ، أما في العصور القديمة فقد كانت تعني ارتفاعا في نغمة الصوت . وفي مفردات اللغات الحديثة أيضا ينطق حرفا ai و eai نطقا واحدا (كما في الحرف e في الكلمة الإنجليزية let ، ولكن ai تمثل الحرف i في الإنجليزية . أما e ، oi ، y فهي جميعها مثل حرفي ee في الإنجليزية .

سنة أندروز ١٩٤٦

هـ . ج . روز

الفصل الأول

مقدمة

على الطالب الذي لا يعرف من الديانات غير تلك التي تعتنقها الدول المتعدنة في هذا العصر ، أن يعتمد بادي ذي بدء إلى أن يخلص ذهنه من كثير من الأفكار التي تتعلق بالدين ومقوماته ، وذلك إذا ما أراد أن يتفهم معتقدات بلاد اليونان القديمة وطقوسها ، فالمسيحي أو اليهودي الجاد في النظر إلى دينه يجد لزاما عليه أن يؤمن بطائفة من القضايا العليا الدقيقة ، فيما يتعلق بطبيعة الله وعلاقاته بالبشر فضلا عن أنه ينظر إلى عدد من الأفعال ذات الأهمية الخلقية باعتبارها فروضا يحتمها دينه ، مثال ذلك ، أن عليه إما أن يعيش أعزب أو يكون الزوج الوفي لزوجته واحدة ، لأن هذا هو ما أمر به ، كما أن عليه أن يلتزم جانب الصدق والأمانة في كثير من الأمور من أجل هذا السبب ذاته . فإذا ما أهمل هذه الواجبات ، فإنه إنما يسلك مسلك المسيحي الطالح أو اليهودي الضال ، أما إذا ما أنكر بعض العقائد التي تلقاها ، فهو إلى هذا الحد مهمل طقا مارقا عن الدين . والخلاصة أن دياناته إنما هي ديانات عقائدية تنطوي على شريعة خلقية . بيد أن ديانة اليونان القديمة لم يكن لها قانون للإيمان ، كما أنه على الرغم من أن بعض الأفعال كانت تعد منافية للدين ومن ثم كانت بوجه عام هدفا للاستهجان والاستنكار باعتبارها مغضبة للقوى العليا ، فلم يكن ثمة قانون أو منهج خلقى يتحتم أن يسلم به كل من يتعبد للإله أثينا أو الإله زيوس . وفضلا عن ذلك فلم يكن لأية هيئة من الكهنة شأن بمعتقدات الفرد الشخصية طالما أن هذه المعتقدات لم تسفر عن محاولته قلب الأوضاع القائمة للعبادة أو إدخال عبادات أخرى جديدة غير معترف بها ، أو أنها لم تصل إلى حد الإنكار التام لوجود مثل تلك الكائنات المعروفة في العقائد الشعبية باسم الآلهة ، مثال ذلك أنه كان من الجائز تماما أن يمسى الفرد في عبادة الإلهة ديمرا ، في الوقت الذي يؤمن فيه بالمذهب

الفلسفي القائل بأنها تشخيص للهواء ويدعوله ، أو أن يطلب المشورة من وحي الإله أبولون في حين أنه يؤمن لإيماننا قويا بأنه هو الشمس . بل إن الألفاظ ذاتها التي تعبر في لساننا عن معان دينية مثل « المذهب » و « العقيدة » و « الهرطقة » و « علم اللاهوت » كانت في اللغة اليونانية في العصر الكلاسيكي توحى بمعان مغايرة تماما . فالمذهب dogma هو الرأي الذي يأخذ به أحد الفلاسفة أو تعتقه مدرسة فلسفية . والعقيدة (pistis) هي إما الثقة والولاء ، وإما التسليم بصدق ما يقوله شخص آخر أو الإيمان بكفائته في النواحي العملية . أما الهرطقة haeresis فهي مذهب فلسفي وليس دينيا . وعلم اللاهوت Theology هو إلى حد بعيد أقرب إلى ما نسميه بعلم الأساطير « الميثولوجيا » ، على أنه كان كثيراً ما اقترن بمحاولة للكشف عما يختفي وراء الآراء التقليدية التي تتعلق بالآلهة وعملها من ضروب المعتقدات الفلسفية .

وتقترب الديانات القديمة والحديثة بعضها من بعض إلى حد ما من ناحية الطقوس والمراسم . ففي هذا العصر يجد المسيحي أو اليهودي أو المسلم ، وبخاصة ذلك الذي يتمسك بالطقوس القديمة والتقليدية في دياناته ، أن عليه أن يراعى عدداً من الفروض التي ليست لها في حد ذاتها قيم خلقية ، أو أن لها هذه القيم ولكن على نهج غير مباشر فهو يقتطع يوماً من كل أسبوع ليسكرسه أساساً للقيام بعبادات دينية من نوع محدد . وهو يمتنع على الدوام أو خلال مواسم معينة عن تناول صنوف مختلفة من الطعام . وهو يتحرز في أوقات معينة من القيام بعدد من الأعمال التي تبدو بريئة كل البراءة في حد ذاتها ، فهو إن كان يهودياً قويم العقيدة توقي السفر أو القيام بأي عمل في يوم السبت . كما أنه يأخذ نفسه ، عندما يؤم مكان عبادته ، ببعض القواعد فيما يخص ملبسه وهيئته وإشاراته . كل هذه الأشياء تجدها ما يقابلها بصورة قريبة في أغلب الأحيان في العالم القديم . مثال ذلك أنه كان يتحتم على أي فرد يريد أن يتناول شيئاً مقدساً ، وقد كانت هذه الأشياء غاية في الكثرة . أن يغسل يديه أولاً . كما كان على العابد الذي يدخل الحرم المقدس على الأكرابول في أثينا ألا يصحب كلبه معه . وكان على كل من يدعو إليها سماوياً أن يرفع يديه إلى السماء ، أما إذا كان

يدعو قوة من قوى العالم السفلي ، فعليه أن يمد يديه إلى أسفل ناحية الأرض . وإذا ما قرب ذبيحة ، فإن نوع الحيوان الصالح الذبح ، وجنسه من حيث هو ذكر أو أنثى وكذلك لون بشرته ، والوضع الذي ينبغي أن يكون عليه عندما تنحر رقبتة ، وغير ذلك من التفاصيل العديدة ، كانت مقررة جميعها بدقة وعناية على نحو أو آخر . وإذا ما شاء أن يزين هيكل أحد الآلهة بالأكاليل ، وكان هذا نذراً شائعاً كل الشبوع ، فلم تكن جميع النباتات ، مهما بلغت من الحسن والرونق جائزة الاستعمال ، فقد كان محرماً ، على سبيل المثال أن يدخل نبات اللبلاب معبد الإلهة أفروديت Aphrodite . كما أنه رغم افتقار تقويمه إلى يوم الراحة والعبادة يعاود الظهور على فترات متقاربة مثل يوم الأحد المسيحي ، فقد كانت لديه أعياد أخرى ذاتة معروفة إلى حد بعيد ، وكانت هذه تشغل جزءاً لا بأس به من العام .

ولسوف نرى في التوكيف أن هذه الأعياد كانت تسير في الغالب الأعم على إيقاع المواسم المتوالية على مدار السنة .

بيد أن أعظم خلاف فيما يبدو بين الديانة اليونانية القديمة والعقائد السامية الحديثة هو أن هذه الأخيرة تخرج في تصورهما عن حدود هذا الكون ، إذ تمنى مرديها بآمال لا تتعلق بتحقيق الرفاهية في الحياة الحاضرة بقدر ما تتصل بالسعادة الأبدية المقبلة . والحقيقة أن لهذه أيضاً روابطها بمجريات الحياة اليومية ، وشاهد ذلك تلك المراسم المختلفة مثل الصلاة استدرازا للمطر أو طلباً لاعتدال الطقس أو التماساً للبركة تحل بأحد المشاريع العامة أو الخاصة ، وما شابه ذلك ، ولكن حتى في هذا الصدد أيضاً فإن الاهتمام لا ينصب في الصلوات التي تتلى وقت أحداث الحياة الكبرى (المولد والزواج والمرض والممات) على الأمور المادية بقدر ما ينصب على أمور معنوية غير مادية . بيد أن هذه لم تكن هي الحال في بلاد اليونان القديمة . مثال ذلك أنه كان يجري على الطفل الرضيع طقس معين يشبه التعميد في المسيحية إلى حد ما . ولكن الأمر لم يكن ينطوي على أي فكرة لتخليصه من علل روحية بحتة ، تعود القهقري إلى خطيئة آدم ، أو منحه قوة أو طهارة روحيين . وحسبنا

أن نخضع الطقوس التي كانت متبعة إزاءك لشيء من التحليل ، ليتبين لنا أن الطفل كان يجرى تطهيره ، بالوسائل المادية ، من الصبغة الأجنبية التي تتعلق في معتقدات السذج بكل قادم جديد ، وبذلك يتحول إلى إنسان كامل بل إنه يلاحظ إلى يومنا هذا أن الطفل اليوناني الرضيع الذي لم يعمد بعد يشار إليه في بعض الأحيان باسم التدين أو الوحش الذي يشبه الغول الشائع في القصص الشعبي .

كما كانت تجرى للطفل مراسم لعقد الصلة بينه وبين الأسرة التي سينتسب إليها فيما بعد ، ومن ثم يصبح موضع العناية الحقة التي يحتاج إليها الطفل . وإلى تلك اللحظة لم يكن هناك في نظر العامة ما يمنع من أن يطرح الوليد ذكراً أم أنثى في العراء ، أى أن يترك طريق الأرض في بقعة منعزلة أو شبه منعزلة ليواجه مصيره ، فإما أن يلتقطه أحد الغرباء ، وإما أن يموت من الجوع والبرد ، ولا يعتبر هذا جريمة قتل عمد ترتكب ضد فرد حديث السن من أفراد الأسرة ، بل كان مجرد رفض لدخوله عضواً في الأسرة ، وعضواً في المجتمع الذي تنتمي إليه هذه الأسرة . وحسبنا كثرة ما يتردد عن هذه الحادثة في المسرحيات اليونانية ، دليلاً على أنها لم تكن نادرة الوقوع حتى أبان ازدهار الحضارة الهلينية ، ولنضرب مثلاً فحسب من بين عشرات الأمثلة : فسرحتا « أيون » Ion ليوربيديس و « التحكيم » لميناندر تدوران حول طرح أحد الأطفال وإنقاذه والتعرف عليه في النهاية . لقد كانت تلك الاحتفالات ، والطقوس ، التي تعيد إلى الأذهان ذكرى ما نقيمه نحن من مهرجانات في مواسم جنى المحاصيل شائعة جداً في بلاد اليونان ، بيد أنه من السهل علينا إلى أقصى حد أن نلاحظ هنا أيضاً أن الهدف من تلك الاحتفالات كان منصّباً في المقام الأول على الرغبة في إطلاق سلسلة من عمليات التبرك الخيرة ذات الطابع السحري ، بقصد الاحتفاظ بخصوبة الأرض على الدوام . لقد كان دفن الموتى عملاً دالاً على النورع والذسك ، وفرضاً واجباً على الجميع ، سواء أكان المتوفى صديقاً أم عدواً ، من ذوي القربى أو من الغرباء ، فما كان يحرم من مراسم الدفن الرسمية غير السفلة من المجرمين ، ولكن السبب في ذلك هو أن الموتى ينتسبون إلى عالم آخر لا شأن للأحياء والآلهة الأحياء به . وكلما عجلنا بتشييعهم إلى مثوانهم ،

كان ذلك أدعى لراحة الباقيين على قيد الحياة لأن الروح القلقة المشردة لم يشر ويل .

ولما كانت الديانة اليونانية سارية على هذا النحو في أكثر أهدافها ، فقد كانت دون شك شديدة الصلة بمجريات الحياة اليومية . فلم تكن الآلهة أسيرة هياكلها أو سماواتها أو ممالكها السفلى بل كانت تحيا في الطرقات وفي بيوت الناس . كانت كل مدفأة توقد فيها النار مقدسة ؛ فكلمة هستيا Hestia كانت تطلق على حد سواء ، على المكان الذي توقد فيه النار وعلى الإلهة التي تهيمن عليه ، وكانت هذه تبدو إلى حد ما غامضة متجردة من الشخصية .

وكان يقوم أمام البيت في الغالب هيكل صغير ، قد يكون للإله أبولون Apollo إله الطرق (Agyieus) أو للإله هرميس Hermes ، حامى جميع المسافرين ومانح الحظ الحسن ، أو قد يكون في بعض الأحيان للإلهة هيكاتي Hekate ، كما لم يكن من النادر أن يوقف الهيكل على أحد الأبطال héros أو على روح قوية تميل إلى فعل الخير . أما داخل المنزل ذاته ، فلم تكن خزانته تعد كاملة ما لم تزود بإثاء كبير يحوى أجزاء من أطعمة مختلفة ، وكان هذا هوزيوس كتيسيوس Zeus Ktesios ، وهو الإله الذي يحمى ممتلكات الأسرة ، في الوقت الذي يقوم فيه زيوس هيركيوس Zeus Herkeios (إله الفناء) بمراقبة فناء الدار . وكان الحدادون من أتباع الإله هيفايستوس Hephaistos ، كما كان الرعاة يعبدون كلا من الإله بان Pan والإله أبولو نومبيوس Apollo Nomios (إله المراعى) ثم الحوريات Nymphs ، أما الزراع فقد كانوا يعبدون عدداً وافراً من الآلهة ، على رأسها الإلهة ديميتر Demeter ، أم الحنطة ، والملاحون يظهرون عدداً آخر من الآلهة ، وخاصة بوسيدون Poseidon . ولعل الطقوس والاحتفالات الكبرى التي أقيمت تكريماً للآلهة في مقراتها الرسمية ألا وهى الهياكل وغيرها من الأضرحة كانت قليلة نادرة نسبياً ، غير أنه بالنظر إلى كل ما يقع في الحياة اليومية كانت الآلهة تبدو ماثلة أمام الفرد في كل سبيل بطرقه ، بوسعه أن يدعوها

في أية لحظة لكي تكون شاهدا على قسم أو لكي تدرأ خطرا أو تشفي مرضاً أو تبارك أى عمل من الأعمال . وكان من الطبيعي مراعاة قواعد خاصة للسلوك عند التعامل مع هذه الآلهة ، بالنظر إلى مرتبتها السامية بالنسبة للبشر ، ولكن هذه كانت في الغالب قواعد بسيطة هيينة ، كما لم تكن تحمل أى معنى للرهبنة ، بل كانت خلوا من أى معنى من معاني العبودية . كان من عادة اليوناني أن يقول إنه يحل أو يرعى هذا الإله أو ذاك ، غير أنه نادرا ما يقول إنه عبده له ، فهذا تعبير شرقي .

وكان لانعدام فكرة العالم الآخر في الديانة اليونانية أثره في طريقة اختيار الآلهة التي تقدم لها فروض العبادة . فقد كان اليوناني القديم لا يجد غضاضة في الاعتراف بألوهية طائفة من القوى التي لم يكن يرفع لها صلاة أو يقدم لها قرابين . ولم تكن هذه تشمل فحسب شخصيات جبهة عابسة مثل هاديس Hades «غير المرئي» ، ورب العالم السفلي (ولعل عبادته الوحيدة في بلاد اليونان قد نشأت عن الخلط بينه وبين بلوتون Pluton (مانع الثروة Ploutos والحصب) بل كانت تتضمن أيضاً كائنات باهرة ساطعة النور وإن كانت وديعة سالمة أو كانت محسنة كريمة . فأورانوس Uranos (السماء) لم يكن غير شخصية أسطورية بحيث لا يتعبد لها إنسان ، كما لم تكن للشمس عبادة ببلاد اليونان الأصلية ، أما القمر والنجوم فلم تكن موضع عبادة على الإطلاق . والسبب في ذلك واضح جلي . فإن هذه الكائنات السامقة الجبارة تقبع في مناطق نفوذها ، ولا تحاول قط أن تهبط إلى الأرض لتدخل في شئون البشر . ومن ثم فهي لا تبدى اهتماماً بالبشر ، ولا حاجة بالبشر إلى إن يولوها من جانبهم أدنى عناية . غير أن الأمر مختلف بالنسبة للإله زيوس Zeus إله الطقس وجامع السحب ، الذي يمكن أن يرى وهو يجمع سحبه فوق قمم الجبال العالية ؛ أو بالنسبة للإلهة كوري Kore ، «عذراء الحنطة» التي تتجسد في صورة المحصول الجديد عند ظهوره عاما بعد عام ؛ أو بالنسبة للإله هرميس الذي نشعر بقوته على طول الطرق وفي أندية المصارعة حيث يجتمع الشبان ؛ أو بالنسبة للحواريات اللاتي يعود إلى نفوذهن الفضل في تدفق القنوات ونمو الأشجار ،

ثم بالنسبة لذلك العدد الغفير من الآلهة المحلية الصغيرة التي كان الاعتقاد السائد والعرف الجاري يقول بأن رخاء المجتمعات الصغيرة لا يزال يتوقف عليها الآن كما توقف عليها في الماضي أجيالا كثيرة . كانت كل هذه الآلهة وكثير غيرها تظهر قواها وتكشف من وقت لآخر عن وجودها في روى تتجلى لمن تختصهم من عبادها برعايتها ، في أماكن غير مميزة كالتي يلبجأ إليها عادة عامة الرجال والنساء للعمل أو اللهو . وفي المنازل حيث يعيش الناس وفي الحقول والمصانع حيث يكسبون عيشهم . كانت الآلهة ، رغم سمو مكانتها وعلو شأنها ، أعضاء في المجتمعات الإنسانية ذاتها ، ومن ثم أصبح عقد الصلة معها أمرا محتوما ، ولم يبق إلا أن يعرف المرء أى ضرب من الصلات تفضل ، وأى أقوال أو أعمال ينبغي التقرب بها إليها ، وأى نوع من الهدايا حقيق بأن ينال غاية رضائها ، ثم ما الذي يفضيها ، ومن ثم ينبغي تحاشيه عند التعامل معها .

لقد كان لدى الإنسان أيضا ما يقدمه في مقابل ما يلقاه من نعم إلهية . ولعل قلة من اليونانيين القدماء هي التي أدركت مغزى ما ذهب إليه أرسطوفانيس Aristophanes في إحدى مسرحياته الكوميديّة الرائعة التي تدعى «الطيور» ، من أن الآلهة تعتمد في الحصول على قوتها على عبادها ، إذ أنها تحيا على نحو ما على الأطعمة الحيوانية وغير الحيوانية التي كانت تحرق فوق مذابحها أو تقدم لها على غير الصورة السالفة . ولكنه من المؤكد أن الشعور الذي كان سائدا هو أنها ترحب بالهدايا وألوان التكريم التي يرفعها إليها الإنسان . ومما يقرره بعض الزراع اليونانيين في العصر الحديث أن الأرض تقول لمن يفلحونها : «أعطوني كيما أعطيكم» ، ويبدو أن موقفاً قريب الشبه إلى حد بعيد بهذا الموقف كان يعزى إلى الآلهة القديمة . أما عن الطريقة التي كان يتم بها ذلك ، فمسألة سفتاؤها بالدراسة في فصل مقبل .

وثمة نقطة أخرى ينبغي علينا إدراكها منذ البداية على نحو واضح جلي ، وإن كنا سفتاؤها فيما بعد بمزيد من الشرح والتفصيل ، وهي أن الإغريق ، شأنهم في ذلك شأن أى شعب آخر عرفنا عنه القليل أو الكثير ، كانوا ينحدرون عن أصول متباينة ، ولنا أن نقول إن العناصر المختلفة التي تألف منها الشعب اليوناني

قد أسهمت بعوامل مختلفة في تكوين الشكل المعقد للديانة اليونانية في العصر الكلاسيكي . وقد نجد من السهل في بعض الأحيان أن نتبع بعض هذه العناصر إلى مصادرها الأصلية ، ولكن علينا أن نقر بجهلنا في كثير من الأحيان وأن نقنع بضرورة تجنب تلك النظريات المفرطة في سهولتها أو التي تبدو جميلة منسقة الأجزاء ، إذا لم نجد سنداً من الحقائق . مثال ذلك ؛ أن الآلهة اليونانية دون ريب تنقسم إلى طبقتين رئيسيتين ، الآلهة الأولمبية وموطنها الحقيقي هو السماء وأعلى جبل في بلاد اليونان ، وهو جبل أوليمبوس Olympos في تساليا الذي تبدو قوته وكأنها تلامس السماوات العلى ، والآلهة الأرضية (الإخنونية) . وهم سكان الأرض Chthon وهي كلمة قديمة تعني «الأرض» . أما آلهة البحر فهم على نحو ما في مركز وسط بين الاثنين . وتفسر إحدى الأساطير القديمة ذلك بقولها إنه عندما انتهت سيادة الإله القديم كرونوس Kronos على الكون ، اقترح أبنائه الثلاثة على اقتسام مملكته السابقة ، فكانت السماء من نصيب زيوس ، والبحر من نصيب بوسيدون والعالم السفلي من نصيب هاديس ، أما الأرض وجبل أوليمبوس فظلا شيوخاً بينهم . كما أن الرأي السائد كذلك هو أن آلهة الأرض أشد بداوة في مظهرهم إلى حد ما من الأولمبيين ، أي أنهم قريبو الشبه على نحو ما بذلك الضرب من الآلهة التي يتعبد لها الهمج والبرابرة ، في حين أن الآلهة الأولمبية الأصلية تبدو أكثر تطوراً من هذه وأشد منها ارتباطاً بتقاليد الحياة لدى الشعوب المتحضرة . وعلى ذلك فقد شاعت حيناً من الزمن نظرية تقول إن آلهة الأرض كانوا آلهة سكان البلاد الأصليين في العصر السابق للعصر اليوناني ، في حين أن الآلهة الأولمبية جلبت إلى البلاد على أيدي شعب كان يفوق السكان الأصليين تقدماً ، وهو الشعب الذي أدخل اللغة اليونانية ونقل معه طائفة من أبرز الخصائص المميزة للنظم اليونانية والحضارة اليونانية بوجه عام . أما عن وجود سكان في العصر السابق على العصر اليوناني فهو أمر يدل عليه علم الآثار دلالة واضحة ، حيث إنه قد تمت دراسة آثارهم التي كانت تتكلم لغة تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة اليونانية ظلت قائمة إلى العصور التاريخية . ثم إن القول إن عنصراً جديداً يتمثل في تلك الأقوام التي يطلق عليها هوميروس اسم الآخايين

Achaians قد حل بالبلاد في وقت مبكر إلى حد بعيد في الألف الثانية قبل الميلاد ، هو أيضاً من الحقائق المقررة الثابتة ، وإن كان من المحتمل أن هذا الشعب هو الذي أوجد الحضارة المعروفة باسم الحضارة الموكينية ، إلا أن الثابت عنه أنه هو الذي أتى باللسان اليوناني القديم ، وهو الذي جاء أيضاً بالأسس الأولية على أقل تقدير للنظم القديمة ، سواء السياسية منها أو غير السياسية . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في أنهم أتوا فضلاً عن ذلك بآلهة خاصة بهم ، تختلف عن تلك التي كان يعبدونها السكان القدامى الذين عرفهم يونانيو الفترة التاريخية باسم البلاسجيين Pelasgians .

وبوسعنا حقاً أن نشير إلى بعض الأماكن المقدسة التي كانت تقام فيها شعائر العبادة لأحد الآلهة اليونانية الخالصة جنياً إلى جنب بجوار إله آخر مجهول الاسم ، أو يحمل اسماً لا دلالة له في اللغة اليونانية ، كما لا وجه للشك في أن أحد الآلهة الوافدة هو زيوس أعظم آلهة السماء قاطبة ، كما لا ريب في أنه كان بين آلهة «البلاسجيين» آلهة أرضية . أما إذا ظننا أن الآخايين لم يكونوا يعبدون غير آلهة السماء ، وأن السكان الوطنيين السابقين لم يكونوا يعبدون غير آلهة الأرض ، فذلك مما لا يثبت بحال أمام طائفة من أوضح القرائن وأنصعبها . فليس هناك من بين آلهة الأرض من هو أهم من الإلهة ديميتر ، ومع ذلك فاسمها يوناني صرف ، كما أن الإلهة أثينا تعد من بين الآلهة الأولمبية الهامة ، غير أن اسمها لا يمت بحال إلى اللغة اليونانية ، ولكنه يرجع في تركيبه ، كما هو معلوم ، إلى اللسان القديم الدارس الذي كان يتكلم به السكان الأوائل .

وجملة القول أن الديانة التي تنصدي لها الآن بالدراسة ، تستمد أصولها من أحوال شعب ما قبل عيش عيشة بسيطة ساذجة ، يعول فيها ، لتوفير قوته ، أساساً على ما يستطيع أن ينبت في حقوله وبساتينه . أما التجارة على نطاق واسع نسبياً والصناعة المنظمة ، أو ما يشبه الصناعة المنظمة ، فقد جاءت في وقت متأخر . ومن ثم فإنه عندما باتت المدينة الدولة هي الوحدة السياسية الاجتماعية الشائعة لدى الإغريق ، لم يكن هناك مفر من أن يطرأ على الطقوس الدينية قدر معين من التغيير ،

فقد كان بوسع هذه المدن بعد أن تحقق لها من زيادة في ثروتها وتقدم عظيم في مهاراتها الفنية أن تقدم لآلهتها احتفالات أعظم بهاء وأكثر رونقاً وهياً كل باللغة الروعة والإتقان لتعيش فيها بدلاً من معابدها الريفية .

وفي الوقت ذاته ، تسرب إلى طائفة من أقدس الطقوس وأقدمها عهداً عنصر من الزيف والبطلان والبعد عن الواقع ، ذلك لأنه قد أصبح من المحتم على هذه الطقوس وهي التي كانت في الحقيقة قوام عبادة أهل الريف ، أن توائم ، بقدر ما تستطيع بين بيئتها وبين حاجيات سكان المدن .

أما عن النمو المطرد لروح الزيف هذه والبعد عن الواقع ، وعن المحاولات التي بذلت في سبيل الكشف عن علل وأسباب جديدة للعادات والتقاليد القديمة ، ذلك لأن الأديان محافظة بطبيعتها ولا تنظر بعين الرضى إلى تغيير وسائلها في التعبير ، التي درجت عليها) فذلك ما سنفرغ لدراسته فيما بعد .

وثمة تغيير ليس من شك في أنه قد وقع فعلاً ، وهو أنه أصبح من الواضح أن مهمة الآلهة أو « المخلصين » ، كما كان يطلق بوجه خاص على الكثيرين منهم ، باتت لا تتعلق بدرء غائلة الجوع عن مجتمع زراعى صغير ، بل حماية دولة واسعة النطاق معقدة البناء نسبياً من الأخطار السياسية التي تهددها .

وعندما بدت الآلهة القديمة عاجزة عجزاً مطرداً عن القيام بهذا الدور لم يكن ثمة مفر من أن ينهار الإيمان بكفائتها انهياراً كلياً ، أو أن يتخذ هذا الإيمان له صورة أخرى لا تتطوى على مثل ما انطوى عليه الماضي من نزعة مادية .

وفي الوقت الذي أخذ المجتمع فيه يزداد في الاتساع والتضخم ، كانت أهمية الفرد بالنسبة لهذا المجتمع آخذة في التضاؤل . ومن الواضح الجلى أن فرداً من جماعة تتألف من بضع مئات يمثل عنصراً أكثر أهمية بالنسبة للصالح العام ، مما لو كان الشعب الذي يضمه بعدد عشرات الآلاف . غير أن ذلك قد صاحبه زيادة هائلة من وعى الفرد نفسه .

والحال بالنسبة للسطاء من الناس ، هو أن الفرد ينظر إليه في الغالب ، كما كان يعتقد هو نفسه أيضاً ، على أنه عضو من جماعة تعمل في العادة متكاتفه متآلفة من أجل غاياتها وأهدافها المشتركة ، ومن ثم فهو في الغالب تؤدي شعائر العبادة جماعة ، لا باعتبارها تتألف من عدد من الأفراد . ومن ثم فإن جميع الديانات الأولى التي نعرفها هي ديانات جماعية وليست فردية ، بمعنى أن القوى التي تتخذها موضعاً لعبادتها كان يجري التقرب إليها في صورة من أبرز صور الإفصاح عن الحياة الدينية ، بوساطة الجماعة كلها . حين تؤدي مجتمعة طقوساً معينة .

وأضعف الإيمان أن أفراد الجماعة كانوا يجتمعون جميعاً إذا كان القائمون بتأدية هذه الطقوس من الخبراء المعروفين وهم الكهنة أدعياء الطب ، وكانوا يرجون من ورائها فيما يبدو ، محاصيل طيبة أو زيادة في عدد قطعانهم أو فوزاً في الحرب مع قبيلة أخرى أو ما شاكل ذلك .

غير أنه في وقت متأخر ، أصبح من دأب الفرد ، بعد أن ارتفعت أهميته بالنسبة لنفسه وتضائل شأنه بالنسبة للجماعة التي هو عضو فيها ، أن يسعى إلى لفت نظر الإله أو الآلهة التي يؤمن بها ، كيفما كانت هذه الآلهة ، إلى ما يرجوه من مطالب ومطامح شخصية . وعلى ذلك فإن ما نتوقعه بصفة عامة في مثل هذه الحالة وما نقف عليه بالفعل في الديانة اليونانية القديمة ، هو نمو العبادات الفردية وازدهارها . وآية ذلك أن من بين الآلهة اليونانية التي كانت تحظى بأعظم قدر من الشعبية في مختلف أنحاء اليونان ، منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد حتى زوال العبادة الوثنية أمام قوى الديانة المسيحية الناهضة ، إله يدعى أسكليبيوس (أسقولا ب) Asklepios . وقد كان هذا الإله رغم ما كانت تحيطه مختلف الجماعات من التكريم ، يتلقى بوجه خاص استغاثة أفراد يقصدونه والتماسهم ليربئهم من عللهم بماله من مهارة طبية تفوق مهارة البشر . ولما لم يكن هناك عقيدة رسمية أو سلطة مركزية تعمل على تنظيم العقائد ، فقد كان بوسع الفرد أن يضع لطقوس التي يسهم فيها ، جماعية كانت أو غير جماعية ، من التفسيرات والتعليلات ما يشاء ، وكان من

دأب هذه التفسيرات في كثير من الأحيان أن تدعو إلى إيمان يغلب عليه فكرة الحياة الأخرى على نحو يفوق ما يمكن أن نجده في أقدم العصور . لقد كانت ثمة أفكار سامية مستمدة من فلسفات لم تتأثر في الأصل بأية ميول دينية خاصة ، تصطبغ في تعليل طقوس ومراسم ، لا جدال في أن مبتدعيها حقيقون بأن تستبد بهم الدهشة وبتولاهم العجب إذ يجدون أنفسهم وقد نسبت إليهم مثل هذه المقاصد والنوايا . وهكذا أصبحت الطريق مهددة لنشأة نظريات دينية عالية بالغة الدقة ، توافرت لها القدرة ردحا من الزمن على منافسة الديانات الجديدة ذات الآراء المتطورة التي شرعت تستأثر بالعالم شيئا فشيئا ، في اجتذاب أهل الفكر والورع والحظوة بتأييدهم . وهدف هذا الكتاب هو تتبع المعالم الرئيسية لمراحل هذا التطور الطويل الهام ، أما إذا قصدنا إلى دراسته تفصيلا فذلك يتطلب مجلدات كثيرة .

الفصل الثاني

آلهة العوام

الديانة اليونانية ، كما تبدى لنا في العصور التاريخية ، ديانة تقوم على تعدد الآلهة . وكان عدد آلهتها غير يسير ، تمثل في أكثرها شخصيات محددة القسمات واضحة المعالم ، في حين أن مهامها ووظائفها لا تصل في تمييزها بعضها عن البعض إلى المدى الذي تصل إليه شخصياتها في هذا المجال . مثال ذلك أن آريس Ares هو إله الحرب ، إلا أنه قد كان هناك عدد من الآلهة ممن كانوا يقومون بوظائف حربية ، وخاصة أثينا ، في حين أن الديوسكوروى Dioskuroi كانوا يقدمون العون في بعض الأحيان لآفي البحر لحسب بل في ميدان القتال أيضا . ثم إن الإلهة ديمتر Demeter كانت هي إلهة الحنطة ، بيد أن من بين الألقاب التي كانت تطلق على الإله زيوس لقب « الزارع » Georgos . وعلى حين أن كلا من أبولون وزيوس كانا على حد سواء يوحيان بالغيب فقد كانت معابد الوحي الموقوفة على آلهة أخرى ، شائعة جداً ، هذا إلى أن عدداً من الأبطال أيضا كانوا يقومون بوظائف مماثلة . وعلى الرغم من أن أسكليبيوس أيضا كان الإله المتخصص في الطب ، إلا أن معجزات الشفاء كانت تروى عن معابد لآتمت إليه بصلة . وكانت أرتميس Artemis تعتبر بوجه عام إلهة الصيادين ، إلا أننا نعلم بوجود أعمال سحرية تتصل بالصيد وتنسب إلى الإله بان Pan ، كما كانت لأرتميس وظيفة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، ألا وهي مساعدة النسوة عندما يأتين المخاض . وهذه الحقائق وحدها ، دون ذكر كثير غيرها مما يشير إلى الاتجاه ذاته ، تكفي للدلالة على نحو واضح جلي على أن الآلهة اليونانية لم تكن نتيجة تقسيم منظم لأوجه النشاط الذي يستأثر بأعظم قدر من اهتمام الإنسان ، بين عدد من الكائنات التي يظن أن لها سلطانا على العالم ، بل كانت ثمرة مرحلة طويلة من النمو الذي لم ينطو

فحسب على تطور أو تعديل لهذا الإله أو ذاك بل تضمن أيضا جميعا لعدد من العقائد المختلفة فيما يشبه النظام الموحد ، ومن هذه العقائد ما جلبه إلى شبه الجزيرة المهاجرون الذين كانوا يتكلمون اليونانية ، كما جاء في الفصل السابق ، ومنها ما كان قائما قبل حلولهم بها ، ونعمود فنقول إن لنا ما يبرر اعتقادنا في أن الجماعات المختلفة التي كان يتألف منها جمهور الوافدين الجدد والجماعات المختلفة التي كان ينقسم إليها السكان القدامى كانت تعبد في الأصل آلهة مختلفة . والمعروف أن الديانات القائمة على تعدد الآلهة تميل كقاعدة عامة إلى جانب التسامح ، وعندما يعلم أتباعها بوجود آلهة أخرى غير آلهتهم ، يحدث أمر من هذه الأمور الثلاثة : فإما أن يحتضنوا هذه الآلهة ويعبدوها جنبا إلى جنب مع الآلهة التي كانوا يعرفونها من قبل ، وإما أن يسلخوا بها باعتبارها موصفا للعبادة من شعب آخر ، وعلى ذلك فإنه يبدو أن اليهودى ، من أبناء العصر القديم السابق على ظهور الأنبياء ، كان على تمام الاستعداد للتسليم بأن كيموش Chemosh أو بعل بيور Ba'al Peor من الآلهة ، وبأن في الإمكان أن يعبد بعض الأجانب ، في حين أنه وأبناء وطنه ظلوا يقدسونه ^(١) ويحيطونه بألوان التكريم والتعظيم باعتباره أقوى سلطانا من الآلهة الأجنبية ، أو أنهم يقرنون ، وهذه آخر الحالات الثلاث ، القوى الجديدة بالكائنات العلوية الخاصة بهم ، وقد يتخذون من ذلك الاسم الاجنبي لقباً لإلههم المحلي ، أو يكتفون بالقول بأن هذا الشعب أو ذاك يعبد إلهاً من الآلهة التي يعرفونها هم ، وإن كان هذا الشعب المقصود يطلق عليه اسماً مخالفاً .

ومن ثم يؤكد لنا طائفة من الكتاب أن المصريين كانوا يعبدون هرميس وديمتر ويعنون بذلك توت وحتحور . وبوسعنا أن نقف في بلاد اليونان على

(١) ولعله من الجدير بالذكر أنه لا وجود لكلمة (يهوه) جيهوفاه كاسم وقد نشأ هذا الاسم في الأصل عن مزج بين الحروف الساكنة في لفظة يهوه ياهويه Yahweh (Jahveh) وبين الحروف المتحركة لكلمة « ادوناي » adonai بمعنى « ربي » وهكذا حل هذا التعبير عند القراءة بصوت مرتفع محل الاسم الإلهي الذي يحرم النطق به .

أمثلة تنطبق على جميع هذه الحالات . فهناك من القرائن ما يقطع بأن ديونيسوس Dionysos وفد من خارج البلاد ، ويحتمل أن يكون قد جاء من فريجيا Phrygia خلال العصور التاريخية ، وقد اصطحب هذا الإله اسمه معه فيما يبدو . ثم إن كيبيلى Kybele وأنا ييتيس Anaitis وطائفة أخرى من الإلهات الأمهات كن معروفات لدى الكتاب اليونانيين القدماء ، غير أن الإغريق تركوهن في الغالب لعبادهن الأصليين ، وعندما حل الدوريون بأسبرطة نحو عام ١٠٠٠ ق م ، جاءوا بإلهة جديدة هي أورثيا Ortheia أو أورثيا Orthia وكانت هذه تشبه في بعض الوجوه ، الإلهة المحلية القديمة أرتميس .

ولم يمض وقت طويل حتى استقر الرأي العام على أن أورثيا هي أرتميس تحت اسم أو لقب جديد وقد اكتسبت أرتميس أورثيا Artemis Orthia أو أورثوسيا Orthosia كما عدلت التسمية السابقة لغرابتها على الاسماع ، شهرة غير قليلة .

بيد أن الديانة القائمة على تعدد الآلهة ، تتطور ، شأن أى ضرب من ضروب الديانات الأخرى ، بتطور الشعوب التي تمارسها ، فتتدرج من كونها عقيدة بسيطة فجأة إلى أن تصبح عقيدة أسمى مرتبة وأشد تعقيدا في الكثير الغالب . لقد كان أسلاف اليونانيين القدماء ، وحالهم في ذلك لا يختلف عن حال أى شعب آخر ، همجا متوحشين ، خلال حقبة من الزمن ، وقد تخلف لدى ذريتهم ، سواء في طقوسهم الدينية أو ما شابه الطقوس الدينية من عادات أخرى ، قدر ضئيل من آثار تلك المرحلة من مراحل التطور ، قدر له أن يتحجر ويصبح في معظمه قليل الضرر . أما المرحلة البربرية ، وهي المرحلة التالية التي تسمى على المرحلة الهمجية ، فقد خلفت في الحضارة الكلاسيكية القديمة آثاراً أوفر عدداً وأكثر وضوحاً .

وفضلاً عن ذلك ، فإنه لما كانت القواعد التي قامت عليها حضارة العالم القديم زراعية وليست صناعية ، وأن منطقة واحدة من مناطق العالم القديم لم تكن تشتمل على ما يمكن مقارنته بحال بمصانعنا الهائلة المتشعبة ، فقد ظل الفلاحون

رغم ما حققته الحياة بالمدينة من تقدم ملموس ، يؤلفون نسبة كبيرة من السكان ، وقد كان من دأب هؤلاء ، بالنظر إلى عيشتهم في مجتمعات صغيرة وضآلة الفرص المتاحة لهم في سبيل تحسين أحوالهم ، أن يحرصوا أشد الحرص على عوائد أسلافهم ، بخلاف أهل المدن الذين كانوا أقل منهم حظا من المحافظة ، ومن ثم ظل هؤلاء الفلاحون يقومون بشعائر العبادة في أسلوب قريب الشبه إلى حد كبير بأسلوب أبناء الأجيال الغابرة . وعلى ذلك فقد تغلف لديهم ، إلى عصور متأخرة أيضا جانب كبير من تلك الأساليب القديمة الساذجة التي كانت تتخذ في التقرب إلى آلهة محلية غير ناهية يمكن أن تقرر أو لا تقرر بتلك الشواخ من أصحاب المعابد الضخمة والاحتفالات الفخمة الذين كان يألفهم من عاش في بقعة مثل أثينا . وإذا أردنا أن نعرف كيف كانت أساليب العبادة الإغريقية في أقدم ما يمكن أن نتوصل إليه من صورها ، فلا يجدر بنا أن نرجع إلى أقدم وثيقة مكتوبة لدينا ، وهي القصائد الهومرية ، حيث إن هذه قد نظمت من أجل طبقة أرستقراطية تفوق في تقدمها الفكري والتطبيقي العمل الشعب البائس الذي تسوده ، بل ينبغي أن نعود إلى ما يرويه لنا الكتاب في مختلف العصور فيما يتعلق بعادات أهل الريف وطرائق حياتهم . ومن حسن الحظ أن لدينا في هذا الشأن مادة غنية إلى حد بعيد ، فضلا عن أن هناك من بين وثائقنا الرئيسية الهامة ، وثيقة ترجع أيضا إلى عصر متأخر ، وهي دليل بلاد اليونان الذي وضعه باوسانياس Pausanias (القرن الثاني الميلادي) وهو رجل نابه محقق ، لخدمة السائحين المغرمين مثله بالآثار والذين يكون الاحترام لديانة البلد الذي يتكلمون لغته .

إن علم الإنسان أو الانثروبولوجيا يرشدنا إلى ما ينبغي أن نبحث عنه ؛ أي أنه يعلننا بعبارة أخرى أن ندين أهمية تلك العناصر التي تعد بدائية بالنظر إلى ما عداها ، عندما نعثر عليها .

وكيفما يكن الأصل الأول للأديان — وهي مسألة لن تضطر لحسن الحظ إلى الخوض فيها في حدود ما رسمناه لأنفسنا من أغراض — فثمة ظاهرتان ترجعان دون شك إلى زمن مبكر صحيح ، إذ أنها قد نشأتا خلال مرحلة حضارية أدنى

مرتبة من أية مرحلة أخرى يمكننا أن نقف لها على أثر في الأقطار اليونانية في الوقت الحاضر . وقد أطلق على هاتين الظاهرتين اسمان يبدوان على شيء من التحذلق ، ألا وهما الدينامية dynamism والروحانية animism ، في حين أنها تبلغان الغاية من حيث بساطتهما وقربهما من الأفهام ، ولا غرو فيها من بنات أفكار شعب بسيط ساذج .

أما الفكرة الأولى ، وهي التي تبدو بوجه عام غامضة مهمة ويكاد يتعذر التعبير عنها بكلمات واضحة محددة ، فتقول بوجود قوة ما ، لا تختص حتما بكائن بعينه ، وإن كان الغالب أن توجد في حوزة رجل من الوجاهة الغاهين أو امرأة كريمة مرموقة ، أو أي شيء آخر لا يمت إلى الأدمية بصلة وإن فاق البشر في قدرته ، كأن يكون إلها أو روحا أو دابة أو طائرا (وعادة ما تنسب إلى هذه قوات غريبة ، نظرا لما يتمتع به كثير منها من بأس ودهاء حقيقيين أو لمجرد قصور في معرفة طباعها) . وقد تكشف هذه القوة عن نفسها في أشكال وهيئات أبعد ما تكون عن التصور ، كأن تكون عصا مثلا أو قطعة من الحجر فيظن أن لها خصائص معينة أو تحل بشارات سحرية ، أو تركيبات لفظية أو حركات طقسية . ولعل أشهر لفظة تتخذ في الدلالة على هذه القوة هي الكلمة البولينية Polynesian أو الميلانيسية Melanesian "mana" . ورغم أن هذه اللفظة لم تكن تتعدى كونها اسما بمعنى القوة أو صفة بمعنى القوى ، ذلك لأنها في الوقت ذاته اسم ، إلا أنها جنحت إلى التخصص في معناها . وعمل مانا كما ، يقول الأسقف كودرنجتون الذي كان أول من لفت أنظار الباحثين الأوروبيين إليها ، هو أداء كل شيء يفوق القدرة المعتادة للإنسان ويخرج عن نطاق التطورات العادية للطبيعة ... وحال أن يستحوذ المرء على هذه المانا يصبح في إمكانه أن يسخرها ويوجهها ، غير أن قوتها قد تنطلق عند نقطة معينة جديدة كما أن وجودها يمكن إثباته بالأدلة ... ورغم أن هذه القوة هي قوة مجردة غير مادية في حد ذاتها إلا أنها دائما ما ترتبط بشخص معين يقوم بتوجيهها ، وهي ملك لجميع الأرواح وغالبية الأشباح وبعض الناس .

ويضيف الاسقف كودرنجتون قائلاً : إن جميع الديانات الميلانيسية تقوم في واقع الأمر على محاولة الفرد الحصول على هذه المانا لنفسه ، أو تسخيرها لخدمته . (١)

أما الظاهرة الأخرى فهي الروحانية animism وهي لا تعدو تلك الحالة الذهنية التي يأبى فيها العقل أن يتصور شيئاً خالياً من الروح تماماً وإنما يرجع الفضل إلى قرون عدة من التفكير العلمي ، في أننا قد أصبحنا ندرك في الوقت الحاضر أن النهر مثلاً لا يعدو كونه كمية من المياه أو خليطاً غير عضوي عاجزاً تمام العجز عن ممارسة أى نوع من الحياة ، وأنه يتحرك حركة آلية بفعل الجاذبية . وليس أدل على أن تلك الفكرة القديمة القائلة بأن النهر كائن حي قريبة كل القرب من مفاهيمنا الحالية ، من الدلالة التي نتحدث بها عنه حين نقول إنه غاضب ووادع وناثر وخامل إلى غير ذلك من الصفات ، فضلاً عن أن هذه الحال لا تقتصر فحسب على المؤلفات الأدبية الخيالية أو المنظومات الشعرية ، بل تتعداها إلى لغة الكلام التي لا ترتفع إلا قليلاً عن المستوى الأدنى والأعم لأسلوبنا اليومي الدارج في الحديث.

وفي المراحل الأولى لتطور الإنسان ، وقبل أن يبذل أيًا من تلك الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل التفكير الدقيق المجرد حتى من جانب أقدر أفراد الجنس البشري ، لم يكن يداخل الفرد أدنى شك في أن النهر كائن حي لأن سلوكه يشبه في كثير من الوجوه سلوك الإنسان أو الحيوان . فهو يتحرك كما يتحرك النهر ويبلغظ بالأصوات مثلما يلفظان ، وقد يضر أو ينفع ، وتصدر عنه أحياناً أمور غريبة تحير الالباب ، كأن يختفي تحت الأرض ثم يظهر مرة أخرى على سطح في بقعة بعيدة ، أو أن يختفي صيفاً ليعود إلى الظهور في الشتاء . فضلاً عن ذلك فالأنهار ليست سواسية ، لأن بعضها سريع الجريان وبعضها الآخر بطيء في تدفقه ، ومنها ما هو صافي المياه رائقها ومنها ما هو كدر يخالط الوحل مائه ، وهكذا دواليك . وكان الرأي في ذلك واضحاً جلياً ، بالنظر إلى ما كانت عليه المعرفة

R. H. Codrington, The Melanesians, Oxford, 1891, p. 118. (١)

بالطبيعة من ضالة متناهية في ذلك العصر ، وهو أن النهر كائن حي بالغ القوة ، يمتلك قدراً كبيراً من المانا ، ويمثل إما جسداً لشخص أعظم من الإنسان وإما مسكناً لهذا الشخص — وقد كانت هذه هي نظرة الإغريق الشائعة إليه — أو أنه يتمتع على نحو خفي غامض آخر بالحياة والإرادة الذاتية وبقسط عظيم من القوة أيضاً يحسن معه بالفرد أن يعامله بالاحترام وأن يتجنب إثارة غضبه . ولا غرابة إذن في أن الأنهار كانت تحمل صفة القدسية في الفكر اليوناني القديم ثم في التصور الشعري اليوناني فيما بعد ، وأنه كان لكل نهر إلهه السكائن فيه ، وأن الناس كانوا يتصورونه عادة في هيئة قريبة من هيئة الثور ، وكان هذا هو أقوى حيوان في مجموعة الحيوانات التي يعرفونها ، كما كان أكثرها ضجيجاً أثناء خواره . وبالنسبة لمن كانت تضطربهم أعمالهم بين الحين والحين إلى أن يعبروا خوضاً قنوات واسعة تمتلئ بفيض من أمطار الشتاء ، لم يكن هناك وجه للغرابة في تلك الأحداث التي كانت تروى كيف أن النهر أخيلوس Achelous قد اقتتل مع هرقل Heracles وكيف أنه لم يهزم إلا بعد صراع مرير . بيد أن موضع العجب في القصة كان تجلي ذلك الإله النهر في صورة مرئية ، أو على الأصح في عدة صور فكان يظهر كشور مرة وكحية مرة أخرى . غير أن هيراكليس لم يكن بالإنسان العادي فهو نصف إله ، ومن ثم كان من المنتظر أن يرى أشخاص الآلهة ذاتها في الوقت الذي لا يبصر فيه الإنسان العادي بغير تلك الأجزاء من الطبيعة التي تخضع لسيطرة هذه الآلهة خضوعاً مباشراً . وكان من شأن هذا الميل إلى الروحانية ، مقرونًا فيما يبدو بالإيمان بشيء شبيه بالمانا ، إلى حد بعيد ، أن نسبت الحياة والقوة إلى أشياء كثيرة تبتعد أشواطاً أخرى عن المياه الجارية فيما تحمل من مظاهر الحياة . ثم إنه لا يمكن أن يطول الوقت بإنسان حتى يدرك قوة العاطفة الجنسية ، ومن ثم فليس بعجيب أن يكون لإله الرغبة (Eros) عداً في ثيسبياي Thespias في بويوتيا Boiotia ولا وجه للغرابة في أنهم قد أترفوا بوجود مثل هذه القوة ، ولكن الغريب في الأمر أنهم انتهوا فيما يبدو إلى الرأي القائل بأن قوة المانا التي لهذا الإله إنما تتركز في قطعة خشنة من الحجر ، وهو أمر لم يكن متوقفاً على الإطلاق .

كما لم تكن هذه القطعة من الحجر سوى واحدة من كثير من الأحجار المقدسة التي تماثلها والتي كانت تلقى التكريم والتبجيل في مختلف أصقاع بلاد اليونان قاصيها ودانيها ، كما أنها ظلت لفترة طويلة من الزمن ، موضع احترام وتقديس بالغين وذلك بعد أن ألحقت بها في معظم البلاد أصنام الآلهة التي كان يعتقد أنها تسكن هذه الأحجار. فقد كانت أورخومينوس Orchomenos وهي مدينة عريقة أخرى من مدن بويوتيا تقيم شعائر العبادة للخارييتيس Charites وهن آلهات يبدو أن تسميتهن هذه ومعناها الرشيقات أو الجميلات كانت تشير في الأصل إلى مقدرتهن على أن يخلعن على الحقول ثوبا قشيبا وهو ما يأتي به المحصول الطيب . وقد وجد الفنانون اليونانيون في هذه الإلهات مادة خصبة لفهم فتمثلوهن فتيات رشيقات . وما من شك في أن هناك تماثيل على هذه الصورة كانت مقامة لهن في أورخومينوس وقت أن زارها باوسانياس .

بيد أن هذه لم تكن الأشياء الرئيسية لعبادتهن ، بل لم تكن تعدو هدايا حديثة أقيمت لهن في العصر الذي كان باوسانياس يعيش فيه . أما ما كان جديراً بالعبادة في واقع الأمر ، فهو مجموعة من الأحجار التي تعطى شكلا ما ، والتي لا تبعد أن تكون شهباً ، حيث إن هناك رواية تقول إنها سقطت من السماء في عهد الملك الأسطوري إتيوكليس Eteokles ولعلنا نقف هنا على أحد الأسباب التي دعت إلى الإيمان بالأحجار التي لم تسمها يد إنسان ، فالشهاب في ندرته وتأثيره على النفس حقيق بأن يدفع إلى الإيمان بقواه الخارقة ، وبخاصة بين أناس لم يكن لديهم أي فكرة عن طبيعته الحقيقية .

ولعل البعض الآخر من هذه المقدسات القديمة لم يكن غير أحجار قائمة يرجع تاريخها إلى أزمنة سحيقة ، مثل تلك الأحجار التي تشاهد في أنحاء كثيرة من أوربا إلى يومنا هذا ، وهي من آثار شعوب العصر الحجري الحديث . وكيفما كان الحال ، فمثل هذه العقائد كانت شائعة جداً في الزمن القديم ، ولعل أقصى ما يمكن أن نبلغه في تفسير نشأتها هو أن سكان البلاد قد استقر رأيهم استناداً إلى سبب

معين بدا لهم قاطعاً دامغاً على أن هذه الأحجار إما أن تكون موطناً لكائنات غير مرئية وإما أنها تحتوى على « مانا » .

وليس من الضروري أن يستتبع ذلك أنهم شرعوا يقرنون تلك الأحجار التي لا شكل لها والتي اتخذوها موضعاً لعبادتهم بأى من الآلهة الكبرى أو الصغرى التي كانت شائعة لديهم ، والتي بتنا نأنس لها نحن أيضاً بفضل المؤلفات العديدة التي وضعت عن علم الأساطير . والحق أن مثل هذه الحالات التي كان يقرن فيها جسم مجهول بإله معروف لم تكن بالحالات القليلة النادرة . ذلك أنه في مدينة فاراي Pharae بإقليم آخايا Achaia كانت تقوم إلى جانب تمثال هرميس (الذي شيد معبده بالسوق العامة) نحو ثلاثين قطعة حجرية غير خالية تماماً من الصنعة ، إذ أنها كانت مصقولة الأسطح مقومة الزوايا ، وكان الأهليون يقرنون بكل منها اسم إله . بيد أنه لم يكن هناك محارب فحسب موقوفة على آلهة مجهولة ، كما في أثينا وإليس Elis ، بل لقد كانت ثمة طائفة من الآلهة تتلقى عبادة في مجتمعات محلية دون أن تحمل فيما يبدو أى أسماء على الإطلاق . وعلى هذا النحو كان يقع على مسافة غير بعيدة من بلدة ميغالوبولس Megalopolis ، في أركاديا Arkadia معبد لقوة كانت تعرف بكل بساطة باسم « الإله الخبير » Agathòs Théos ، في حين أن سكان منطقة بوليس Bulis المجاورة لفوكيس Phokis كانوا يحصون بعبادتهم — رغم اعترافهم وعبادتهم أيضاً لبعض الآلهة والإلهات المعروفات — كائناً بعينه لم يكن يطلقون عليه اسماً معيناً بل ينادونه بلقب الإله الأكبر Mégistos .

ولعل في هذه الحقيقة وأمثالها ما ينطوى تحت نظرية هيرودوتس القائلة إن البلاسيين ظلوا على جهل تام بأسماء الآلهة ، حتى أخذوها عن غيرهم ، غير أن هذه الحقيقة تثبت بالنسبة لنا أحد أمرين ، إما أن فكرة المجتمعات المحلية عن الطبيعة الإلهية كان يناظرها شيء من الإبهام والغموض كأن يكون قد تبين للأهلين وجود قوة إلهية في بقعة بعينها من المنطقة غير أنهم اكتفوا بأن أطلقوا على « المانا » التي تكشف لهم في هذه البقعة لقباً للإجلال فحسب — وإما أن اسم إلههم كان يعد سرا غالياً دفينا لا ينبغي كشف السر عنه ، ومن ثم كانوا يابون البوح به لأحد .

وهذه الحقيقة الأخيرة ترتبط في واقع الأمر بفكرة غاية في القدم ، مؤداها أن اسم الشخص إنما هو جزء منه وأن من يعرف الاسم الصحيح يكون له سلطان على صاحبه. هذه الفكرة ثابتة متأصلة تتجلى في عدد لا حصر له من التعاويذ والطلاسم ، حين يزعم الساحر أنه إنما يستحضر القوة التي يرغب في تسخيرها لخدمته ، بمناداتها باسمها الصحيح ، بيد أن جذورها تضرب إلى أبعد من ذلك في تاريخ البشرية . وأيا كان التفسير الصحيح من هذين التفسيرين ، فإننا عندما نجد أن قوة غامضة بجمولة الاسم تعتبرهم معبود في مجتمع يوناني صغير ، فهذا قبس من نور يهدينا إلى أصول عبادتهم المعقدة القائمة على تعدد الآلهة ؛ ذلك أن دوائر كثيرة قد أسهمت في الأسرة الأوليمبية الكبيرة التي يقف على رأسها — وفقا للأساطير الحقة — الإله زيوس ، وهذا من الأسباب التي أدت إلى تداخل خصائص الآلهة في كثير من الأحيان ، الأمر الذي لم يكن ليحدث لو أن جماعة واحدة هي التي اهتدت بفكرها في الأصل وفي وقت واحد إلى الآلهة أجمعين .

وكان من الطبيعي في أي مجتمع قدر له أن يؤمن أصلا بمثل هذه الكائنات أن يلتمس منها في الغالب هذه الهبات ذاتها ، ألا وهي الكفاية في الطعام وسلامة نسائه عند الوضع وزيادة رموس أغنامه وقطعانه وحمايته من أعدائه من الإنس والوحوش . وعلى ذلك فإذا ما قامت جماعة من الجماعات ، لسبب من الأسباب ، بقبول إله جماعة أخرى ، فليس معنى ذلك بحال أنه قد تبين لها أن الإله أو الإلهة الجديدة قادرة على منح هبات مغايرة ، بل لعل السبب في دعوتها هو الرغبة في أن تنهض على نحو أكثر كفاية بتوفير النعم التي بدا أن القوة أو القوى التي تجري عبادتها بالفعل عاجزة أو عازقة عن منحها بالقدر الكافي .

وإذا ما عاودنا النظر إلى تلك الآلهة التي كانت تمجدها المجتمعات اليونانية الصغيرة ، تبين لنا أنها كانت في الغالب غامضة في طبيعتها ، فضلا عن ضيق نطاق مهامها ووظائفها في بعض الأحيان على نحو يفوق إلى حد بعيد ما كان عليه الحال بالنسبة للآلهة المعروفة جيدا . ولقد سبقت الإشارة إلى الإله (بان) Pan في سياق آخر ، غير أن الجدير بالذكر هنا أن فريقا من عباده على أقل تقدير لم يكونوا

على يقين تام من أن هذا الإله يمثل شخصا واحدا أو عدة أشخاص. وعلى أية حال فإن أرسطوفانيس وأفلاطون ، بغض النظر عن الكتاب المتأخرين ، كانا يعلمان بصيغة الجمع هذه « بانيس » Panes . بيد أن ذلك هو عين ما يحق لنا أن نتوقعه في مثل هذه الأحوال ، بل إن هذا هو ما لمسناه حقيقة في عدة حالات مماثلة . وعلى أية حال فالمرجح أن اسمه كان يعني « المغذى » أو « الراعي » . ولأنه لمن الميسور لنا أن نتصور كيف قامت في أركاديا Arkadia حيث نشأت عبادته في الأصل جماعات صغيرة كثيرة العدد من الرعاة ، تعبد كل منها في خشوع وقنوت « راعيها » الإلهي الذي كان يتمثل فيما يحتمل في صورة عصا أو قطعة من الحجر تقام في مكان مقدس ، كما لا يستبعد أيضاً أن كل جماعة من هذه الجماعات كانت على أهبة الاستعداد لأن تعلن أن إلهها الرعوى « بان » ، يسمو على أمثاله من الآلهة الرعوية التي تدين لها الجماعات الأخرى . وقد يصدق هذا في كلتا الحالتين ، سواء عرف الإله في الأصل على أنه كائن مفرد ، أو عدد من الكائنات ، لأنه كان من دأب العقائد المحلية أن تتفتت على النحو السالف . وإن كان ثمة ما هو مؤكد فهو أن مريم العذراء شخص واحد في جميع المذاهب اللاهوتية المسيحية ، كما أنه مامن عقيدة تفوق عقيدتها شيوعا في بلاد اليونان الحديثة ، ولكنني قرأت أن مزارعا من جزيرة خيوس Chios أبي إلا أن يعلن في لهجة حازمة لا تتم أيضا عن رقة كبيرة أن « بانايا » Panaghia كنيسة قريته (وبانايا معناها « كلية القداسة » وهو الاسم الشائع لمريم العذراء) قادرة على أن تبز جميع « الباناييات » الأخريات أيا كن .

ولم يكن هذا الراعي الإلهي ذاته شخصية سامية كل السمو ، كما لم يكن يقابل بالتوقير والتبجيل الصادقين ، أو ما نعتبره نحن كذلك ، حتى من جانب من كانوا يعبدونه بكل ما وسعوا من إخلاص ووفاء . وكانت وظيفته (لأن لكل إله واجباته بل إن زيوس نفسه كان يحمده له « لإحسانه » إن أرسل أمطارا مواتية) هي العمل على توفير اللحوم لعباده من الرعاة بالقدر الكافي . وكانت السبيل الواضحة لتحقيق ذلك هي العمل على زيادة عدد قطعانهم وماشيتهم زيادة هائلة ، وقد كانوا يرعون

في الغالب الماشية الصغيرة والأغنام والمعز ، وخاصة الصنف الأخير فيما يبدو . وهنا يظهر أن العامل المباشر في تكاثر قطيع من المعز هو التيس ، والإله « بان » كان ينظر إليه في الأصل على أنه تيس إلهي . فإن قدر أن يتخذ له تمثال صنم يمثله ، كان يظهر عادة بسيقان معز ولحية كثيفة شعثة ، كما أن الأساطير القليلة التي تروى عنه تجعله لا يقل في شبقه عن الأصل الذي نقل عنه . ولم تكن قوته بالقوة الثابتة التي لا يعتريها ضعف أو وهن ، ومن ثم فقد تدعو الحاجة من وقت إلى آخر إلى حفزها وتجديدها . كما كان الحال بالنسبة لعدد غير قليل من الآلهة في مختلف ديانات كثيرة متعددة وكانت هذه هي الطريقة المتبعة فيما نعلم ؛ فقد كان من عادة الصبية إذا ما قلت موارد اللحم سواء المستمد منه من القطعان أو من الصيد ، أن يضربوا « بان » (أي تمثاله أو أي شيء آخر يمثله) بأعواد العنصل ، وهو نبات كان يعتقد أن من يميزاته طرد الشرور . وبذلك كانوا يستحثون الإله على بذل مزيد من الجهد ، ويخلصونه في الوقت ذاته ، بقدر استطاعتهم ، مما قد يكون قد عرقل نشاطه من تأثيرات سيئة . أما أن يكون الاطفال هم الذين يقومون بهذا الطقس فذلك مما يميز كثيرا من الأعمال السحرية .

والحقيقة أن السحر — في صورته البسيطة غير المتقكرة ، وهو الذي يختلف اختلافا بينا عن الأعمال السحرية المعقدة التي ظهرت في عصور متأخرة ، بتعاويزها المركبة وقوائمها الرهيبة المتضمنة لأسماء قوى غريبة ، ثم صفاتها الشاذة ، وهو ما ينبغي أن تعرض له في إيجاز في موضع آخر من هذا الكتاب — كان شائعا شيوعا كبيرا بين هذه المجتمعات الأولى . وبوسعنا أن نهتدي إلى قبس منه خلال ما قاله هسيود Hesiod ، وهو أول كاتب وصلت إلينا مؤلفاته ، لم ينبر للكتابة بقصد الترفيه عن قرائه فحسب بل لكي يسدى إليهم النصائح الرشيدة ويلقنهم المعلومات النافعة . وموطن هسيود هو أسكرا Askra وهي بلدة ريفية صغيرة تقع في بويو نسيا ، أما عن وضعه الاجتماعي فقد كان مزارعا من صغار الملاك ، كما يرجع تاريخه فيما يرجح إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وهو إلى جانب ما يورده من توجيهات خاصة بصناعة المحارث ، وما يذكره من إرشادات تتعلق بالمواعيد

المناسبة للبذر وغيره من العمليات الزراعية الأخرى ، وما إلى ذلك من المسائل ذات الطابع العملي الواضح ، نراه بسيط — وهو لا يجيد أيضاً عن قصده الأول وهو إسداء النصيحة النافعة والإفضاء بالمعلومات المفيدة — طائفة من الوصايا التي لا بد أن تبدو للقارئ الحديث ، كخرافة غريبة في حين أنها كانت دون شك تؤخذ في عصره مأخذاً جدياً . وهاك إحداها :

لاتخص المياه الرقاقة التي تنساب في جداول دائمة ، حتى تكون قد صليت موجهها ناظريك إلى تلك المجارى الصافية ، وحتى تكون قد غسلت يديك في مياهها الرائقة . لأن من يعبر نهراً بنفس شريرة ، ويدين غير طاهرتين يثير غضب الآلهة ، وينال منها الويل والثبور بعد ذلك .

هذا مثل من الأمثلة البارزة على الروحانية التي سفتحدث عنها فيما بعد . فالنهر شيء حي ، ولا بد أنه سيستمع إلى صلاة عابر السيل ، التي يسأله فيها دون شك أن يأذن له بإفلاق راحته وعبور مجراه . وهو صاحب سطوة ونفوذ لأن الإلهانة التي توجه إليه تلقى الاستنكار من جانب « الآلهة » بصفة عامة ، وهو الذي ينتسب إلى جماعتهم الموقرة . ومن ثم وجب مراعاة آداب السلوك السليم عند التعامل معه . فعلى المسافر أن يبدأ أولاً بأن يغسل يديه في الماء ، وبذلك يتخلص من أي رجس يحتمل أن يكون قد لحق بهما ، ويعقد صلته في الوقت ذاته بالمجرى المائي ، على الصورة السالفة التي يبدو فيها وكأنه يصاحفه بكفيه . ثم يسأله بعد ذلك ، في أدب جم ، المَعذرة عن تلك الجرأة التي يبيحها لنفسه ، وله حينئذ أن يقدم على عبوره . كما ينبغي أيضاً التزام جانب الرقة والأدب عند التعامل مع مختلف القوى سواء الظاهر منها أو الخفي . وتنبهنا وصية أخرى بأنه يحرم تلبية الرغبات الجسدية الدنيا ، حيثما تستطيع الشمس أن ترائنا ، أو في مكان مكشوف ليلاً « فالإله إلى ملك للباركين » ، بل ينبغي أن تتوافر لذلك كل أسباب العزلة الممكنة . وقد أضاف أحدهم — وقد يكون هسيود ذاته أو شخص آخر غيره في ختام القصيدة (وهذا هو السبب في أن جزءاً من عنوانها المعروف يحمل عبارة « الأعمال والأيام ») — قائمة غريبة بالأيام السعيدة وأيام النحس في الشهر

القمرى، فالغلام الذى يولد مثلاً فى العشرين من الشهر ينتظر أن يكون ذكياً، واليوم العاشر أيضاً من الأيام الطيبة لولادة طفل ذكر، وكذلك الرابع عشر بالنسبة للبنات، واليوم الرابع عشر أيضاً من الأيام المثلى للشروع فى تدريب كلب أو ترويض بغل أو ثور على العمل، فى حين أن اليومين الرابعين فى بداية الشهر ونهايته لا يصلحان لأى عمل من الأعمال، إذ أنهما لن يأتيا بغير المتاعب. ومن الحقائق الأخرى الثابتة، وإن لم يكن يعرفها سوى القليل من الناس، أن اليوم الأخير من الفترة القمرية هو أنسب الأوقات على الإطلاق لتدشين السفن. واليوم التاسع عشر سويمااته الطيبة أيضاً وخاصة فى الصباح وأخريات الأصيل، لكن ينبغى تحاشي اليوم الخامس لأنه يوم ميلاد هوركوس Horkos وهو القوة المتجهممة التى تنزل العقاب بالذين يحشون فى أيماهم (hoikoi).

ومنذ عهد هسيود على وجه التقريب، أخذ عدد القوى التى تقدم لها شعائر العبادة يزداد زيادة مطردة نتيجة لذبوع عبادة «الآعيان» (héroës) وهى العبادة التى تعرف لدينا عادة باسم عبادة الأبطال. والمعنى الأصلى الذى كانت تدور حوله كلمة «هيروس» héros لم يكن يتعدى «الرجل الكريم المحمد أو النبيل»، وخاصة من كان، فيما يبدو، ينتمى إلى أسرة من الأسر الأخائية القديمة التى تولى أعمالها المجيدة الموضوع الرئيسى للشعر الملحمى فى الكثير الغالب. ورغم أن أمثال هؤلاء الرجال كانوا يكرمون وهم أحياء «كما لو كانوا آلهة»، إذا ما اثبتوا جدارتهم بالمركز الاجتماعى السامى الذى يحتلونه، فليس ثمة ما يدل عند هومر على أنه كان يستشفع بهم بعد موتهم لمعونة الأحياء، ولكن ذلك هو ما أصبح شائعاً أعظم الشيوع فيما بعد. ولعل الغزو الدورى الذى تخلل هذه الفترة والذى غير الطابع السياسى لخطر كبير من بلاد اليونان تغييراً كلياً وأتى للفقراء من الآلهة بمجموعة جديدة ليست بذات شعبية كبيرة من النبلاء والسادة قد أحاط الطبقة الأرستقراطية القديمة بهالة من المجد براقة ملؤها الأسف من نقاط الضعف فيهم وتبرز فضائلهم وضاعة. وما من شك فى أن الآراء المتعلقة بمصير الإنسان بعد الموت قد تغيرت وتبدلت، فبالنسبة لهومر وبجمهوره كانت

هذه الحياة الدنيا هى كل ما يعنى به الإنسان فى واقع الأمر، والموت ليس فناء بل إنه يعنى بالنسبة للجميع على حد سواء — فيما عدا فئة قليلة من ذوى الخطوة لدى الآلهة أو من بين أعدائهم — الانتقال إلى وجود هو خيال الظل. لا نستطيع فيه الروح أداء شئ غير مباشرة نوع أقرب إلى الصورة الباهتة للأعمال التى كانت تمارسها على وجه الأرض. ويظهر أن العامة كانت تؤمن أيضاً بأن كل صاحب سطوة ونفوذ فى حياته أو كان قد نبه شأنه على وجه ما، سيظل كذلك بعد مماته. وكيفما كان الحال، فقد كانت بلاد اليونان فى عصرها التاريخى، تكتظ بالقبور الحقيقية أو غير الحقيقية التى تنسب إلى مثل هؤلاء الأشخاص الناهين، كما لم تكن العبادة المقدمة لهم تختلف عن تلك التى كانت تقام للآلهة الأرضية إلا فى كونها بوجه عام، أهون منها شأنًا وأشد منها التصاقاً بالنطاق المحلى، ويبدو أنهم لم يكن فى وسع «البطل»، أن يأتى بخير أو شر بعيداً عن النقطة التى تضم رفاقه.

ولهذا السبب كانت تستخدم المنافسة من وقت لآخر فى سبيل إحراز هذه الرفات فقد جلبت أثينا من جزيرة سكيروس Skyros بعض العظام التى قيل إنها لثيسوس Theseus، كما عدت أسبرطة أن من الانتصارات الهامة التى أحرزتها، استعادتها من تيجيا Tegea طائفة من البقايا الضخمة التى نسبتها فى ثقة إلى أوروستيس Orestes، فى حين فاخرت طيبة بأن فى حوزتها جثة فيكتور التى جىء بها من طروادة تحقيقاً لإحدى النبوءات. كما أمرت نبوءة أخرى باقتناء رفات كل من ثيسوس وأورستيس، لأن دلفوس Delphoi كانت تؤيد تأييداً حاراً تلك العبادة الرائجة التى كانت تقدم إلى العظماء الراحلين، بل لقد ذهب الأمر بها إلى حد أنها باركت تكريم شخص غير معروف لا يتميز بغير صيت ذائع على أنه «بطل». وفضلاً عن ذلك فقد جر هذا الضرب من العبادة الذى لاقى رواجاً وشيوعاً بالغين إلى الخلط بين عدد غير قليل من الآلهة المحلية الصغيرة المختصة بالأرض وثمارها وبين هذه الأرواح المكرمة التى تقدم لها التكريم والإجلال كما حدث على سبيل المثال فى أميكلاي Amyklai من أعمال لاكونيا Lakonia حيث زود معبود قديم هو هياكنثوس Hyakinthus بأسطورة حديثة نسبياً، تروى كيف

أنه كان غلاما نال الخطوة لدى أبولون ولكنه لقي حتفه على يديه خطأ . بل لقد كانت الآلهة الكبرى عرضة لهذا الخلط من وقت إلى آخر ، فليس هناك من مبرر للشك في أن كاليستو Kallisto وهى « البطلة » التى كانت تعبد فى أركاديا Arkadia ليست إلا أرتميس Artemis ذاتها التى اتخذ لقبها « البارعة فى الجمال » kalliste وجودا مستقلا .

وبالإضافة إلى كل هؤلاء ، فن رأى هسيود أن هناك عددا لا حصر له من الكائنات الخفية التى تصيب البشرية بالخير أو بالشر . فقد كان يعيش إبان العصر الذهبى أناس أعلى منا من كل وجه ، وقد أصبحوا عند وفاتهم أرواحا من الجان daimones — أى من المستحوذين فى ظننا على المانا — يمشون على الأرض خفية ، لحماية البشر وجلب النعم والخيرات لهم ، ومن ناحية أخرى ، فإن أرواح المرضى تحوم حولنا ليل نهار ، وهى وإن حرمت ملكة النطق إلا أنها لم تحرم القدرة على أن تلحق بنا الأذى .

وهكذا كان يعيش الرجل العادى فى بلاد اليونان القديمة ، فى عالم مليء بثتى صفوف القوى العلوية ، الجليلة منها والحقيرة ، الصديقة منها والمعادية ، وكان من الطبيعى أن يحاول إقامة علاقات سليمة معها ، فضلا عن الإبقاء على هذه العلاقات وصونها .

وقد تحقق له ذلك ، كما أوضحنا ، بتحاشيه الأعمال والأيام المنحوسة بقدر استطاعته . ولم يكن مثل هذا التحاشى يرجع كلية إلى السحر والخرافات ، ذلك لأنه قد راجت منذ عصر سحيق ، فضلا عن هسيود نفسه ، الفكرة القائلة بأن بعض هذه الكائنات على أقل تقدير ، وعلى رأس هذه الفئة الإله زيوس ، كانت تهتم بسلوك الإنسان وخلقه . فن تعاليمه أنه إذا ما أنصف الناس بعضهم بعضا ، سواء كانوا أبناء وطن واحد أو غرباء أجنب ، فسيجزئهم الآلهة باليسر والرخاء ، وستغل حقولهم المحاصيل الوفيرة وتأتى أشجارهم من البلوط بشمر كثير ويقم النحل البرى خلاياه فيها ، وتتكاثر قطعانهم وماشيئهم ، وتحمل نساؤهم أطفالا أصحاء .

أما من يقترفون جريمة « الهيبريس » hybris أعنى الاستهانة الطائشة بحقوق الغير ، فلن ينالوا أيا من هذه النعم ، بل أخرى أن تصيهم الأوبئة والمجاعات والعقم وتنزل بهم الكوارث فى الحرب وتقتلع سفنهم فى البحر . ومع ذلك فلا ينبغي أن نحسب أن جميع أهل الريف اليونانى ، كانت تراودهم هذه الفكرة المتطورة حول أخلاق الآلهة وآدابها . فقد قيل المرة تلو المرة أنه كان من المعتقدات الشائعة أن فى الإمكان مداينة الآلهة أو رشوتها فى سبيل التغاضى عما يرتكب من ذنوب ، وأنها كانت كثيرة الاحتمال تمهل طويلا ، وهلم جرا ، فى حين أن المشكلة التى كانت موضع جدال طوال العهد القديم والتى لم تكن تشغل أذهان اليسطاء وحدهم ، أنه إذا ما كانت هناك آلهة تهتم أدنى الاهتمام بتحقيق العدالة ، فلم لا نرى أن الصالحين سعداء موفقون على الدوام ، وأن الأشرار تعساء عاثر والحظ أبدا ؟ . والحقيقة أن الإيمان على الصورة التى آمن بها هسيود لم يكن قط من صميم الديانة القديمة التى لم يكن لها — كما سبق أن أوضحنا — قانون للإيمان أو شريعة أخلاقية ، وإنما كان ثمرة تأملات شخصية حول المعارف التى كانت فى متناول يده .

وعلى ذلك فقد يحاول الشخص العادى أن يصلح من سلوكه خشية أن يستثير غضب زيوس أو أى إله آخر ، بيد أنه كان من المحتم عليه أن يأخذ بنصيب فى الطقوس المقررة رغبة فى نيل رضا مختلف القوى سواء الكبيرة أو الصغيرة التى يغلب على ظنه هو أو ظن إخوانه أنها أدعى إلى أن تسبغ البركات أو تصب اللعنات عليه وعلى مجتمعه . وبوسعنا أن نجتمع من عدة مصادر شيئا ما هو أقرب إلى الصورة المركبة التى قد لا تصدق بخدافيرها على مكان بعينه أو زمن بعينه، وإن كانت تبلغ فى خطوطها الرئيسية حداً بعيداً من الدقة ، تبين كيف كان سلوك سواد الإغريق تجاه ألهتهم . ولم يتعرض الفصل الأول إلا فى القليل للطقوس المرمية داخل الأسرة ، وبوسعنا الآن أن نضيف شيئا آخر وخاصة فيما يتعلق بالأحداث الكبرى فى الحياة ، وهى الميلاد والزواج والوفاة .

ولقد كان ميلاد الطفل وخاصة الابن ، فى العادة ، من الأحداث السعيدة

التي تقابل بالحفاوة والترحاب في بلاد اليونان القديمة كما في غيرها من البلاد . ذلك لأن واجبات الابن لم تكن تقتصر على رعاية أبويه في شيخوختهما عندما يصبحان عاجزين عن القيام بشئونهما فحسب بل كانت تشمل أيضا العناية بروحيهما عندما يقضيان — ذلك لأن الراحلين من الأسرة أو العشيرة (génos) لم تكن تحسر عنهم بموتهم عضويتهم في هذه الأسرة أو العشيرة ، ثم إنهم لما كانوا من أعضائها الكبار ، فقد كان من حقهم تلقي فروض الاحترام وكريم المعاملة . غير أن هذا شيء ومعبادة الأبطال التي سبقت الإشارة إليها شيء آخر ، رغم ارتباطهما ببعضهما ببعض ، والظاهر أن الرعاية التي كانت تسبغ على روح الاب أو الأم لم تكن تختلف اختلافا جوهريا من حيث النية على أقل تقدير عن تلك التي كانت تمنح للشيوخ والمقعدين ، وكان الاعتقاد الشائع هو أن أرواح الموتى تواصل الحياة في العالم السفلي على نحو غير واضح أو محدد المعالم ، وتتضارب دقائق هذا الاعتقاد وتعارض كما هي العادة ، إذ يبدو أن الموتى كانوا في ظنهم يواصلون الحياة في قبورهم مثلما يواصلونها في أرض الأموات التي يسودها هاديس (Hades) (غير المنظور) ، وقد استخدم اسمه في زمن متأخر للدلالة على مملكته بدلا منه) ومملكته برسيفوني Persephone أو برسيفا سا Persephassa ، وأن أرض الأموات هذه يفصلها عن عالمنا هذا أحد الأنهار ، ويعتقد في الغالب الكبير أنه نهر ستيكس Styx (المعقوت) الذي يجري حقيقة في أركاديا ، وإن ظن فيما يبدو أنه يواصل مجراه في مكان ما تحت الأرض .

وعلى أية حال ، فقد كان الموتى يحتاجون ، حيثما وجدوا ، إلى مثل ما كانوا يحتاجون إليه في الغالب إبان حياتهم من غذاء وشراب وملبس ومياه للاستحمام ، لأن الإغريق كانوا من أشد الناس مراعاة لقواعد النظافة . ومن ثم كان الطعام والشراب من أكثر القرابين المقدمة عند القبور شيوعا . وقد حفظ لنا أيسخيلوس Aeschylus قائمة بهذه القرابين المسماة بقرابين الرحمة التي يعتقد أنها كفيلة بكسب رضا الراحلين ، وهي : اللبن والعسل (الذي اشتهر بأنه أعظم ما يصون الحياة ، ومن ثم فهو دون ريب مقبول لدى من فقدوا حياتهم الطبيعية) والماء

القراح والنبيد وزيت الزيتون . ولما كانت جميع هذه القرابين من السوائل ، فقد كانت تسمى عادة المسكوبات choai أى المواد التي يمكن سكبها ، وكانت تفرع في حفرة فوق القبر أو بالقرب منه لضمان وصول هذه المواد إلى وجهتها الصحيحة وكان يحدث من وقت لآخر — وذلك لكي لا يوجد هناك أدنى شك — أن تزود الجثة بما يشبه الأنوبة التي تنحدر إليها من خارج القبر .

ونعود إلى الحديث عن ولادة الطفل ، فقد كان للأم عندما يأتيها المخاض أن تلتمس الصون من أرتميس Artemis أو إيلايثيا Eileithyia ، الإلهتين المتخصصةتين في القبالة ، كما كان يوسع الذسوة القائمتان على رعايتها — سواء كن من القابلات المحترفات أو من الجارات العطوفات — أن يستخدمن الرقى أو العقاقير التي يعرف عنها أنها تعجل الطلق . وكان الطفل الذي ولد حديثا في حاجة إلى مراسيم طقس خاص ليهد لاستقباله في الأسرة وبين ظهراني المجتمع البشري بصفة عامة ، وقد تأتي لنا أن نلم بعض الإلمام بالكيفية التي كان يتم بها ذلك . كان الآثينيون يطلقون على هذا الطقس اسم « الدوران عدوآ » amphidrémia ، ويحدث في اليوم الخامس بعد مولد الطفل كما جاء بأحد المصادر القديمة ، أو اليوم السابع أو العاشر كما يقرر آخرون ، وكان على جميع الذسوة اللائي قمن بخدمة الأم أن يغسلن أيديهن وفق طقوس معينة ، وبذلك يتطهرن ؛ لأن الولادة كانت تعد ، فضلا عما يكتنفها من أخطار بدنية ، عملا بالغ الخطر ، من ناحية السحر كما كان كل من له علاقة به يعتبر « نجسا » في نظر جميع شعوب الأرض على وجه التقريب ، بمن يقفون دون المستويات العليا للمدينة الحديثة .

وليس أدل على خطورة عملية الولادة في نظر الإغريق من تحريمهم حدوثها في مكان مقدس ، شأن العملية الأخرى التي لم تكن تقل عنها خطورة وهي الموت . بيد أن الطفل كان في حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك الطقس دقة . ومن ثم فإن القائمتان بهذا الطقس المنزلي كن يجردن أنفسهن من الثياب ثم تلتقط إحداهن الطفل وتروح تعدو به حول مدفأة الأسرة . والهدف من هذا المشهد واضح

جلى . فالطفل بحمله وجعله ملاصقا للجسد العارى لأحد أفراد الأسرة ، إنما يمنح أوثق وأقرب صلة ممكنة بينه وبين أهله وذوى قرباه . وهو في الوقت ذاته يتحرك في سرعة خلال الهواء أملا في أن تطرح عنه غرابته ، ثم إنه يعرض لحرارة النار دون أن يدنو منها بالقدر الذى يؤذيه ، فتطهره لأنها نار الإله هستيا Hestia المقدسة ، وقد تذهب أيضا ، فيما يرجح ، بما قد يحمله القادم الجديد من ضروب النحس . لقد أصبح الطفل الآن فرداً من أفراد الأسرة ، وعلاوة على ذلك ورغبة في دعم هذه الصلة الجديدة وتوثيق هذه اللحمة ، كانت تقدم له الهدايا من جانب الأصدقاء والأقارب ، ولعله مما يثير الدهشة أن هذه الهدايا كانت تتألف في العادة من أسماك الثونيات والحباريات ، التى كانت ومازالت من الأطعمة الشائعة في بلاد اليونان ، وإن كانت لا تكاد تصلح لأن تكون غذاء للطفل وكان اليوم العاشر من مولد الطفل ، سواء خصص هذا اليوم موعداً لحفل الاستقبال السالف الذكر أو أنه لم يكن كذلك ، وهو يوم تسمية الطفل ، غير أننا نعود فنقول إن البعض هنا يؤثرون اليوم السابع ، وفيه كان الأصدقاء والجيران يدعون إلى حفل هو الصورة اليونانية المكافئة لحفل التعميد المسيحى . وقد جرت العادة على تقديم الضحايا في مثل هذه المناسبة ، وكان لحم الضحية يمثل أهم ما في الوليمة وعنصرها الرئيسى .

ولقد كان اللحم في الماضى وما زال لونا من ألوان الترف بالنسبة لليوناني العادى الذى يتألف طعامه المعتاد من الخبز (والسلطات) والخضروات وزيت الزيتون والجبن والشهد ثم الأسماك كلما تيسر له ذلك . وكانت الآلهة تشارك النبلاء الآخايين أذواقهم وميوهم ، وقد كان هؤلاء يكرهون الأسماك ويحبون اللحوم ويأكلونها بشراهة . وكانت القاعدة هي أن يقدم للطفل مزيد من الهدايا في المناسبات التى يراه الناس فيها لأول مرة ، سواء حدث ذلك عقب الولادة مباشرة أو في وقت آخر كما كان يحتفل بأعياد الميلاد مثلما نحتفل بها نحن .

أما الزواج فقد كانت تراعى عند الاحتفال به طقوسه الأساسية الجوهرية

على نحو يفوق ما نعهده نحن في احتفالاتنا ، ذلك أن ما يحدث بالفلسة لنا هو أن مراسيم الزواج الأصلية ، ثقيل ، بل عادة ما كانت تزاح كلية عن موضعها ، من جراء بعض الإجراءات الدينية أو المدنية أو كليهما . وثمة أجزاء رئيسية ثلاثة كان ينقسم إليها طقس الزواج الحق وهى : ضرورة انقطاع صلة البنوة بين العروس وأبيها ، كما يتحتم حمايتها في تلك الفترة القصيرة التى لا تكون فيها بنتاً أو زوجة ومن ثم تعوزها الآلهة المنزلية الخاصة بها ، من التأثيرات السيئة الشريرة ، ثم إنها يجب أن تندمج مع أسرة العريس . أما عن الجزء الأول ، فعلوماتنا عنه قاصرة ، ولكنه كان يليق بالعروس أن تبلغ في إظهار إعراضها ، ولعل عبارة « بصرخ كالعروس » باتت من الأقوال المأثورة . وفي بعض البلاد كان ثمة إجراء رمزى يتخذ للدلالة على هجر العروس نهائياً لبيتها ، وهو لإضرام النار في احتفال مهمب ، في عاتق العربة التى أقلتها إلى بيتها ، إشارة إلى أنها لن تعود إليه مرة أخرى . وكان يصحبها في طريقها الأصدقاء والداعون لها بالخير من كلا الطرفين ، وهم يغنون ويمزحون ويرفعون عقيرتهم بالصيحة الطقسية التى تقول « هو هومين هوميناي » ، ô hymèn hymenaié ، وكان معنى هذه العبارة ، إن كان لها أصلاً أى معنى قد احمى من الأذهان في العهود الكلاسيكية إلى الحد الذى أصبحت فيه ألفاظها التقليدية هدفاً للشرح والتعليق في أقاصيص تتفاوت دقة وحبكة ، تدور حول شخص يدعى هومين Hymen ، قد يكون إنساناً أو إلهاً ، قام بشيء له علاقة بالسعادة الزوجية . وكانت العروس تقابل ، حال وصولها إلى بيت زوجها بسيل من « السكاتا خسماتا » katachysmata أى الجوز والفواكه والحلوى التى كانت تلقى على الزوج أيضاً ، وبغض النظر عن العلة الأصلية لذلك ، وهى نقطة مثار خلاف بين من يبحثون في الطقوس القديمة في العصر الحديث ، فقد كانت هذه طريقة معروفة لاستقبال أى قادم جديد ، يصبح فيما بعد واحداً من أهل البيت ، ذلك لأن هذه العادة كانت تحدث أيضاً عند استقبال عبد اشترى حديثاً . بيد أنه لا خلاف حول السبب الذى من أجله يقام هذا الموكب الصاخب ، ولا سيما فيما يتعلق بتلك النكات البذيئة التى كانت جائزة في مثل هذه المناسبات .

فقد كان مثل هذا الضرب من المزاح والدعابة التي كانت تقابل بمزيد من الاستحسان كلما ازدادت عبثاً بغيضاً ممقوتاً عند قوى العقم والشر بوجه عام ، تلك القوى التي تظهر في جميع بقاع العالم في غاية الاحتشام والوقار . ومن ثم فإن هذا المزاح يقف حائلاً دون هذه القوى أو يطردها بعيداً إن كانت قد حلت فعلاً . وكان لكل من العروس والزوج مرافقهما الذين يشبهون لدينسا وكيل الزوج ووصيفات العروس ، وكانت رفيقاتها من الفتيات اللاتي في مثل سنها ، وكان من بين واجباتهن إنشاد « الإبيثالاميوم » epithalamium وهي الانشودة التي تغنى عند انسحاب الزوجين إلى حجرة نومهما . كما وصلت شذرات من طقوس أخرى غير هذه ، ويرجع الفضل في ذلك غالباً إلى جهود الباحثين القدامى الذين قاموا بتفسير أسماؤها لعصور كانت تستخدم طقوساً مغايرة ، أو كانت على أقل تقدير تطلق عليها أسماء أخرى . وكان من بين أسباب الوقاية التي تكفل للعروس غربال يحمل فيه ، ومن الميسور أن نقب السبب في ذلك ، لأن الغربال كان يستخدم في جميع أنحاء أوروبا لتضليل الأرواح الشريرة ، إذ يبدو أن هذه الأرواح لا تستطيع مقاومة الدافع إلى محاولة عد ثقب الغربال ، وفي أثناء انشغالها بهذا العمل تصبح غير قادرة على الإيذاء .

وفي بعض الأشكال الحديثة لهذا الاعتقاد ، تظهر غير قادرة على نطق الرقم ثلاثة لأنه عدد الثالث المقدس ، ومن ثم تظل تردد « واحد اثنين واحد اثنين » حتى يختلط الأمر عليها تماماً .

ولعل في وسعنا أن نقول إن كل ما قد يصيب العروس اليونانية من شر ، كان يوقف بصورة مشابهة عند أحد الأعداد المقدسة القديمة ، ولعله الرقم ٧ المقدس للإله أبولوت . كما أننا نعلم طرفاً من الطقوس الذي كان يقوم به الزوج عندما يتعرف رسمياً على عروسه ، ويتضمن هذا الطقوس رفع خمارها وأن يقدم زوجها لها « هدايا رفع النقاب » anakalyptéria ، وكانت هذه في حد ذاتها طقساً من طقوس الاتحاد ، لأن إهداء المرء لبعض متاعه إنما هو إهداء منه لبعض ذاته ، وبذلك يكون قد قام بما يشبه مخالطته للهدى إليه .

وفي مناسبة أخرى وبعد مضي فترة على الزواج ، عندما كان الزوج يقوم بزيارة أسرة العروس زيارة رسمية ويقضي الليلة هناك دون زوجته ، فقد كان العروسان يتبادلان الهدايا ، أما هي فكانت هديتها عباءة قد تكون من نسج يديها تقدمها له ليرتديها . بيد أن الأمر كله منذ عقد الخطبة حتى يبنى الزوج بزوجه كان محوطاً بالطقوس والمراسيم ، التي كان يقصد بها دون شك استدراج عطف الآلهة والنماس حمايتها .

وثمة طقس لم يكن بحال وقفاً على الأعراس ، والزواج إذ يتردد ظهوره في مناسبات شتى . وهو أن الفتاة كانت تعمد ، قبل زفافها ، إلى شيء من شعرها فتقصه وتهديه قوة من القوى الملائمة في أثينا كانت هيرا وأرتميس وربات القدر Moirai أي « مقصات الحظوظ » وهؤلاء كن يشهدن (وما زلن كذلك في معتقدات العامة) ولادة الطفل ويقررن بما سيكون عليه مصيره ، هن المتلقيات مثل هذه النذور .

أما في ترويزن Troizen أو تروزن Trozen من أعمال اليلوبونيزوس Peloponnèses . فقد كانت خصلات الشعر هذه تترك عند القبر الذي ينسب إلى هيبولوتوس Hippolytos بن ثيسوس Theseus وهو ابن ساء حظه . استمد يوريبيديس Euripides من موته المبكر موضوع مسرحيتين من مسرحياته .

ولعل من الواضح الجلي أن خصلة من الشعر ليست بالشيء الجليل الخطر ، غير أنه إذا وضعنا في اعتبارنا ما كان يعتقد في الغالب من أن السحرة يستطيعون إيذاء المرء بسحرهم إذا ما استحوذوا على شيء من شعره (وهو اعتقاد تؤيده المصادر الكلاسيكية القديمة) ففي وسعنا أن نقف على بعض ما يبرر هذا الطقوس . فإن ذلك يجعل في وسع الإلهة أو البطل أن يعمل سحراً طيباً ينفع صاحبة النذر . ولسبب قريب من هذا السبب إلى حد بعيد ، كان الغلمان عندما يشرفون على سن الرجولة ، يقدمون بعض خصلات من شعرهم إلى النهر المحلى في غالب الأحيان .

وبغير الماء لا تكون حياة ، وإله النهر الرحيم ، عندما يستحوذ على خصلات الشعر هذه ، يصبح في وسعه أن ينفث الحياة كذى قبل في ربيبه السابق .

ولكنه على الرغم من أن هذا هو المعنى الأصلي الذى كانت ترمى إليه هذه الهدايا المقدمة إلا أن نشأتها تعود القهقري إلى زمن سحيق حتى إن أقدم المؤلفات اليونانية التى آلت إلينا ، تظنر إليها ، فيما يبدو ، على أنها لاتعدو اعترافا بالفضل السابق وقرابين للشكر لا على أنها أعمال تشبه السحر .

وقد كان على أفراد الأسرة من الذكور أو الإناث ، ومن ثم على أفراد العشيرة *génos* التى تنسب إليها هذه الأسرة ، واجباتهم الدينية قبل عشيرتهم . وقد نجد بين الفينة والفينة عشيرة كهنوتية ، مثل اليومولبيدائ *Eumolpidae* فى إليوسس *Eleusis* الذين كانت لهم وظائفهم المحددة فيما يختص « بالأسرار الإليوسية » . بيد أنه بغض النظر عن هذه الأسرة ، فإنه يرجح أنه لم يكن سوى قليل من الأسر ، إن لم تكن معدومة ، كما لم تكن — وهذا يكاد يكون مؤكداً — عشائر أو منظمات محلية مثل القرى أو الديميات *demes* (والديموس *dêmos* هو وحدة السكان والأرض التى كانت تستخدم فى أتيكا وتعادل على نحو ما الأبرشية لدينا) ليس بها عبادتها الخاصة التى تدور حول أحد الآلهة أو الأبطال المغمورين أو حول واحد من الآلهة الكبار ، تنظر إليه ، فيما يبدو على أنه إله أبوى (*theòs patròos*) ، وكان المعنى المقصود من ذلك فى الغالب هو أنهم فى زعمهم من نسله وولده . ومع ذلك فإننا لانعلم الكثير عن دقائق هذه العبادة ، إلا أن معلوماتنا تعد وافية بعض الشيء فيما يتعلق بالطقوس التى لم تكن وقفا على أسرة دون أخرى بل كانت مشاعا بين الأسر جميعا . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض هذه الطقوس كان مقرونا باسم عظيم جليل هو اسم الإله زيوس ، وأن المدفأة « هستيا » *Hestia* كانت فى عداد الآلهات ومن ثم كانت تلقى ما تستحق من عبادة من جانب من يطهون طعامهم عليها ويصطلون بنارها ؛ ونضيف إلى ذلك أنه عندما قامت عبادة الأبطال ، أصبح لعدد غير يسير من الأسر « هيروس أو كوروس » *héros oikuròs* يختص بها

وحدها ، وهو الروح الصديقة التى « تصون البيت » ، وكانت هذه تظهر عادة فى صورة ثعبان غير ضار ، مثل ذلك الذى لا يزال يحوم بالدور الريفية اليونانية ، ويعرف غالبا باسم « السيد » *aphentikò* ويلقى الحذب والعطف لإيماننا بأنه يجلب الحظ السعيد . ولقد كان القدماء ينظرون إلى الحيات والأفاعى بوجه عام على أنها كائنات طيفية حنية ، كما كانوا ينسبون لها ، نظرا إلى أنها تسكن عادة حفر الأرض وشقوق الجدران ، إلى العالم السفلى ، ومن ثم كانت فى نظرهم مركبات ملائمة كل الملائمة لأرواح الموتى ، ورغم ذلك فإنه من الخطأ الفاضح أن نعتقد أن كل حية كان يلاقيها اليونانى القديم بالتكريم ، كان يعتقد أنها روح أو شبح . كما أننا نجانب الصواب أضعافا مضاعفة إن حسبنا أنهم كانوا يقدسون جميع الحيات ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان ينظر إلى غالبيتها على اعتبار أنها كائنات مؤذية ، ينبغى الإسراع إلى قتلها كلها وجد إلى ذلك سبيلا . غير أن ثمة أنواعا معينة من الحيات ، كانت تعرف بأنها غير سامة أو كان يظن أنها كذلك ، فإن ظهرت إحداها فى المنزل ، أبدى صاحبه من الاهتمام قسما كبيرا أو ضئيلا بقدر ما يكون عليه من تدين وتقوى . أما المتدين الخائف *deisidaimon* أى ذلك الذى يرهب ما فوق الطبيعة ؛ وكان لهذه اللفظة فى الغالب معنى غير طيب ، وإن كان من الممكن أن ترادف فى لغتنا لفظة الورع أو التقى أو عبارة (من يخشى الله) . فقد كان عليه ، كما يشير ثيوفراستوس *Theophrastos* ، حال أن يجد حية من هذا النوع « المقدس » أن يسارع إلى إقامة مذبح من مذابح الأبطال لها . ولعل من الإنصاف أن نخلص إلى أنه لم يكن من دأب السواد الأعظم من أرباب الأسر أن يقهقروا إلى رأى خطر كهذا الرأى ، بل كانوا يرقبون هذه الزاحفة ليروا ما إذا كانت ستعود مرة أخرى أو أنها ستأتى بتصرفات تستلقت النظر على نحو أو آخر .

وإذا كانت الآلهة تحيط بالإنسان حيثما حل ، سواء كان داخل بيته أو خارجه ، فليس من عجب أن كانت العلاقات الدالة على وجودها والمبينة لمقاصدها شائعة مألوفة . ولقد كان الإيمان بالآلهة دائما ذيوعا بينا بين السواد الأعظم من أبناء العصر القديم كما ظل كذلك على مدى تاريخه ، والحقيقة أنه لا يمكن القول بحال إن

هذا الاعتقاد قد انمحي تماما في عصرنا الحديث . وفي هذا أيضا يختلف المتدين المتنطع لدى ثيوفراستوس عن إخوانه ، لا من حيث إيمانه بمثل هذه الأمور ، بل لأنه يعانيتها في كل مكان . فإن وقع بصره على مشهد مألوف كفأرة تقرر كيسا جلديا تطير بذلك ، وهو أدعى كذلك إلى أن يشعر ببالغ السخط والقنوط إن استخف العراف الرسمي بالأمر ونصحه بأن يرتق الكيس من جديد ، في حين أنه إذا ما مرق ابن عرس عبر الطريق ، فإنه ينتظر مرور شخص آخر به قبل أن يقدم على وطء هذه البقعة الخطرة ، أويقوم ، وهذا أضعف الإيمان ، بعمل شيء . من السحر المضاد لكي يبطل أثر هذا النذير المفزع الرهيب . ولقد كان للرجل العادى في العصر القديم من رجاحة العقل وسلامة الطبع ما يربأ به عن الفرع من كل مخلوق صغير يبصره ، بيد أن بعض طبائع الحيوان كانت تستلفت النظر بوجه عام ، وبخاصة صياح الطيور الضخمة وتحليقها ، ولا سيما الطيور الجارحة التي تسهل مراقبتها بالنظر إلى أنها لا تطير في أسراب .

ومن ثم أصبح الاسم الذى يطلق على هذه الفصيلة من الطيور «أوينوس» oinòs ، وكلمة «الطائر» عموما ، يعنى «الفأل» ؛ والأمثلة كثيرة على مشاهدات الرسميين والأفراد لهذه النذر . ولم يكن راصد الطير في الزمن القديم عالما طبيعيا ، بل كان مفسرا محترفا للنذر التي تصدر عنها ، كما أنه قد كان ثمة علم تقليدى للتنجيم ، يعود القهقرى على أقل تقدير إلى زمن هومر ؛ يلتمس الفأل الميمون أو غير الميمون في دقائق مثل نوع الصيحات التي يطلقها الطير ، أو الناحية التي يتجه إليها في طيرانه ومكانه (يمينا أو يسارا ، وكانت ناحية اليمين تشير إلى جانب السعد بوجه عام) بالنسبة للراصد ، وهلم جرا . والحقيقة أن تلك الرغبة للعالمية الملحة في التعرف سلفا على ما سيحدث في المستقبل ، قد تفشت بين الحضارات القديمة اليونانية وغير اليونانية على اختلاف عصورها ، كما لم يكن هذا النوع من الفأل سوى أسلوب واحد من بين الأساليب العديدة التي حاولت بها الحضارات القديمة أن تميظ اللثام عما هو مقدر ولكي تكشف بوجه خاص عما يحتمل أن يصيب ما اضطلعت به أو ما تنبؤ به من مشروعات من نجاح أو فشل . وبطبيعة الحال كان من بين الطرق الشائعة

أعظم الشيوخ في مجال الاستخارة واستقصاء المعارف ، التوجه لأحد الآلهة بالسؤال لأن الآلهة يعلمون الحاضر والمستقبل ولهم القدرة على التحكم في أحداثهما . ولسوف نتناول بالحديث في موضع آخر مراكز العرافة الكبرى ، بيد أنه كان في مقدور أى إله أن يبعث بحلم منذر أو أية آية أخرى ، كما أن ثمة إلهة واحداً على الأقل ، وهو الإله هرميس ، كان يمارس في معبده في فاراي Pharaia بأخليا Achaia ، نوعا من العرافة يعرف باسم «كليدون» kledòn ، وهي لفظة كتبت لها الحياة بين مفردات اللغة اليونانية الحديثة ، ولم تزل تدل على ضرب من ضروب العرافة الشعبية الرائجة . فقد كان طالب المشورة يتوجه إلى تمثال الإله حيث يقوم داخل المعبد ، ويملا السرج المثبتة أمامه ويضيئها ، ويحرق بخورا في المدفأة ، ويضع على المذبح قطعة برنزية من العملة المحلية ، ثم يمس بسؤاله في أذن الصنم . ويبرح المعبد وقد وضع إصبعيه في أذنيه ؛ وفي اللحظة التي يصبح فيها خارج الحرم التي يقوم فيه المعبد ، يرفع أصبعيه عن أذنيه وينصت إلى الحديث الدائر بين من يصادفهم من المارة . والعبارة التي يسترق سمعها هي الجواب الذى يريد . ولقد ساد الاعتقاد بأن أشخاصا عاديين كانوا يلهمون عند الضرورة باستخدام عبارات تتجاوز في معناها حدود ما يدركون ، وهذا هو «الكليدون» . ولقد كان هرميس ذاته دون شك هو الذى يوحى للمقيمين حول معبده ، في فاراي بأن يذكروا الأرباح الطائلة التي عادت على شخص ما من وراء تجارته ، إذا ما كان صاحب السؤال قد استفسر عما إذا كان ينبغي عليه أن يجازف برأس ماله في المشروع الذى ينتويه ، أو أن يتحدثوا عن غرق السفن إذا ما كان السؤال المطروح ؛ «هل أقوم برحلة بحرية ؟» .

وبغض النظر عن العرافة لم يكن اليونانيون القدماء من العامة بمنأى قطعاً عن الدلالات الظاهرة على حضرة الآلهة ، فزاراتها وتمائيلها وما شا كل ذلك كانت منتشرة في كل مكان ، وعليه أن يقدم لها فروض الاحترام . وهنا نستدل أيضا من ضروب المبالغة والتهويل التي يذهب إليها المتدين المتنطع لدى ثيوفراستوس على ما كان يصدر عن الشخص السوى . فإذا ما وجد الأول حجرا مقدسا عند مفرق الطرق (وهو مكان ملائم فيما يبدو لوجود مثل هذه الاحجار ، لأن مفارق الطرق هي

مواضع مقرعة موحشة في معظم البلاد ، ومن ثم كان من الخير للمرء التماس أكبر قسط من عون الآلهة عندها) ، فإنه يسكب عليه الزيت ويخرساجداً أمامه ويقدم له فروض العبادة . ولقد كانت الغالية فيما يرجح تعتمد إلى الإعراب عن شعورها بالإجلال بطريقة أو بأخرى ؛ ولقد كان من بين الإشارات الشائعة أن يقبل المرء يده إزاء الشيء المقدس . بل إن أقل الناس كثراً كان يتحاشى الإضرار به أو تدنيسه على أية صورة من الصور ، فمتدا كسفت ذات صباح حادثة تشويه تماثيل هرميس (Hermai) في أثينا ، وكانت هذه تمثل أحجاراً قائمة جرت فيها يد التعديل والتفسيق فنحتت عند قدمها رموس آدمية وعند أوساطها أعضاء مذكير ، كما كانت مقدسة في العادة للإله التي تحمل اسمه ، عم المدينة سخط كبير وتلك ذلك سلسلة طويلة من المحاكمات بتهمة الزندقة والخروج عن الدين . ولم يتحقق لدينا حتى اليوم ما إذا كان هذا العمل قد نشأ عن نزوة خرقاء لنفر من الشبان المخمورين ، أو أنه كان مؤامرة سياسية ترمي إلى نشر الذعر والسخط ، بين الجماهير في فترة دقيقة من تاريخ أثينا . وإن جعبة كتاب الأخلاق لمتلى بأقاصيص البلايا والكوارث التي نزلت بأشخاص متهورين ، أقدموا تحت ظروف الحرب القاسية أو لسبب آخر على سرقة المعابد أو انتهاك حرمتها بصورة أو بأخرى ، كما ترددت قصص أخرى حول أصنام أعربت بحركات عجيبة مثل إغماض عيونها أو ما شابه ذلك ، عن سخطها على الآثام التي ارتكبت في حضرتها .

وفي مواسم معينة ، تمت بصلة في العادة إلى أوجه النشاط الزراعي المختلفة ، مثل البذر والحراث ربيعاً وخريفاً ، والحصاد ، كان من المألوف أن يستأثر عيد من الأعياد إما بطاقات المجتمع كله أو بشطر كبير منها . مثل النساء كافة أو المحصنات منهن خاصة . وسوف نترسل في الحديث عن هذه الأعياد عندما نتناول ديانة المدن اليونانية ، وحبنا الآن أن نوضح الطقوس الأساسية العادية التي كانت شائعة بينها جميعاً كان من المحتوم دائماً ، للتقرب من أي إله على النحو الصحيح ، أن يحمل إليه المرء هدية ما ، وكانت أعم الهدايا وأشيعها ، بغض النظر عما ينذر للمعبود من حلى كالتماثيل وغيرها ، هي الطعام سواء من الحبوب أو اللحوم أو منهما

معاً ، ثم المشروبات والبخور . ولم يكن من طبع الآلهة التذنت والشطط ، فلم تكن تطلب القرابين الباهظة من لا يطيقونها ، وإذا ما رجعنا مرة أخرى إلى الأقاصيص التي كانت شائعة في القديم ، ألفينا قرابين لا تتعدى حفنة من الحب المجروش أو شيء آخر من هذه التوافه يقدمها فقير معدم ويعلن أنها لقيت غاية الرضى من الآلهة ، لأنها قدمت عن إيمان صادق . غير أن القرابين المعهودة كانت تتمثل في رأس من الماشية الصغيرة أو الكبيرة يختار في العادة من جنس القوة المقدم لها أنثى كانت أو ذكراً ، وإن كان لهذا الأمر بعض الاستثناءات . وبغض النظر عن العلة الأولى لمثل هذه الطقوس ، فما من شك في أن الهدف منها كان في نظر الفرد من أوساط الناس في القديم هو تقديم غذاء طيب للإله ، كما أنه عند عبادة إله أولمبي ، كان مقدم الضحية وصحبه — وهم في حالة تقديم قربان جماعي ، يمثلون أفراد المجتمع كله أو نفراً منهم على أقل تقدير — يشاركون الإله الوليمة ، بل يستأثرون في الواقع بأطيب أجزاء الضحية . وتوضح قصة قديمة كانت معروفة لدى هسيود السبب في ذلك ؛ ففي الزمن القديم خدع بروميثيوس Prometheus ، إله النار الذي كان صديقاً للإنسان على الدوام ، الإله زيوس بأن نحر ثورا ليقربه قرباناً ، ثم طلب من الإله زيوس ، بعد أن جعل اللحم في لفافتين ، أن يختار بينهما . وكانت إحداهما تحوى فضلات الذبيحة بموهة من الخارج بغشاء من الدهن ، والأخرى تشتمل على كل القطع الطيبة وقد لفت بصورة لا تسترعى النظر أو تثير الانتباه . وتناول زيوس اللقافة البهيجة المنظر الأنيفة المظهر ثم اكتشف بعد فوات الأوان أنه قد خدع وغرر به . ولعل من الأرجح ، في نظر أبناء العصر الحديث ، أن أهم نقطة تتعلق بنحر الذبائح والتقرب للآلهة بالقرابين كانت في الأصل الرغبة في تقديم روح الضحية للآلهة بغية مضاعفة « الماسنا » لديهم ، ومن ثم كانت الأعضاء الحيوية الأساسية في الذبيحة هي الأجزاء المخصصة لهم . وكيفما كان الحال ، فقد كان نحر الدابة يتم وفق الطقوس المرعية . فكان المذبح ذاته وأيدي المستعبدین تطهر بالماء (نخريبيس chérnips تعني حرفياً « غسل الأيدي » . وكانت المشاركة في هذا الوضوء تعد رباطاً مقدساً) . وكانت الدابة تساق إلى المذبح ، فإن بدت لينة منقاداً كان ذلك في الاعتقاد السائد فألاحسنا وإن حرنت وقاومت عد ذلك طيرة

وشوما . ثم ينثر الشعير كما تقضى المراسيم ، فوق الأرض فيما يرجح ، وتطرح الدابة أرضا وتصق بيلطة ، ثم يوجه فكها إلى أعلى وتقطع رقبتها . وكانت النسوة ، إن كان بعضهن حاضرا يطلقن الصيحة التقليدية المسماة بالتهليل *ololygé* وهو صوت مزغرد حاد التبرة ينتهى بنغمة أشد حدة ويعرب فيما يبدو عن نشوة الفرح . ثم تسلخ الدابة وتقطع ، وتلف الأحشاء مع أجزاء تفصل من كل من الأطراف ، في الدهن ، وتوضع فوق نيران المذبح .

أما بقية أجزاء الذبيحة ، فكانت تؤلف مادة الوليمة وقوامها ، وكان يتم على نحو أو آخر التخلص من الأجزاء التي لا تصلح للأكل . وإذا ما قام أحد الكهنة بالمعاونة ، الأمر الذى لم يكن ثابتا أو واجبا ، فقد كان الكاهن يشترط سلفا الحصول على جلد الذبيحة ، ولم يكن من غير المعهود ، بوجه عام ، أن تدفن فضلات الذبيحة مثل العظام في الأرض المقدسة التي تحوط بالمكان الذى أقيمت فيه الطقوس ، وإن لم يكن هناك ما يمنع فيما نعلم من إقامة مذبح وتقديم أضحية على أية رقعة من الأرض لا تكون قد دنست على نحو ما أو يعتقد أنها بغيضة لدى الإله الذى يعبد لسبب أو لآخر . وفي العصور المتأخرة كان من الممكن على أى الحالات إذا ما كان هناك فائض من اللحم يزيد على ما يمكن تناوله في التو ، أن يؤخذ هذا الفائض إلى أقرب سوق ويساع كأى صنف من اللحم . وإذا ما كانت الضحية ثورا أو بقرة ، كانت جمجمتها تثبت في الغالب فوق واجهة المعبد ، أما إذا ما كانت الضحية مقدمة من شخص عادى وبصفة فردية وعلم بملكاته وعقاره ، فتعلق الجمجمة خارج داره .

وهذه هي الوسيلة التي كان يطلق عليها الإغريق اسم « توسيا » *thyisia* أى فرق الضحايا والقرايين . أما إذا كان الإله الذى يراد التقرب إليه غير أولمبي بل أرضى ، فالطقوس التي كانت تتبع حينئذ تختلف عن هذه في عدة وجوه . فالضحية التي كانت تختار يضاه عادة للإله الأولمبي ، ينبغي أن تكون بالنسبة للإله الأرضى سوداء اللون أو دكناء . كما كان رأسها يوجه عند نحرها إلى أسفل وليس إلى أعلى ، وفي كثير من الأحيان لم تكن تحرق الذبيحة بل يتم التخلص منها بصورة

غير هذه . وكيفما كان الحال ، فقد كان إله الأرض . يمنح في العادة الذبيحة برمتها ، والسبب في ذلك واضح غير خاف ، فعلى الرغم من أن آلهة الأرض وآلهة العالم السفلى لم تكن بالآلهة الشريرة ، إلا أنها كانت تثير في النفوس الخوف والفرع ، والاتصال الوثيق بها على النحو الذى يدل عليه مشاركتها الطعام إنما هو أمر لا يرنجى . ولم يكن التقرب بالقرايين الآلهة الأرضية يعرف باسم « توسيا » بل كان يسمى بوجه عام « إناجيسما » *enagisma* وهو لفظ لا يتعدى في معناه لفظ « التكريس » . وأخيراً ، فإن المواقيت الصحيحة لكل من هذين الضربين من القرايين كان يختلف بعضها عن البعض الآخر ، فالمواقيت الملائمة لآلهة السماء هي الصباح أو وضح النهار على أسوأ الفروض ثم البدر الكامل أو الهلال النامى ، والمواقيت الملائمة للآلهة الأرضية هي الليل أو الأصيل على أقل تقدير ثم المحاق .

ولم تكن القيود والتعليمات الخاصة بالقليلة النادرة ، فقد كان محرما إراقة الدماء في بعض المذامح ، حتى إن القرايين المقدمة كانت لا تخرج عن الفطائر وما شابهها ، كما أن طائفة كبيرة من المذاهب الأرضية كانت تحرم سكب النبيذ ولا تسمح بغير الماء واللبن والشهد . وأغلب الظن أن ذلك إنما يقوم دليلا على قدم هذه المذاهب ، فالنبيذ كان يعد حتى هذا الحين مشروبا أجنبيا رغم أن شعوب البحر الأبيض المتوسط القديمة كانت على علم تام بطرق صناعته ووجوه استخدامه ، فاسمه منقول عن لغة أناضولية غير معروفة . فاللفظة المحلية الدالة على مشروب مسكر تماثل في تطورها اللغوى لفظ « ميد » *mead* الإنجليزية ، كما أنه من المحتمل أنها كاللفظة الإنجليزية كانت تعنى في الأصل مشروبا ناتجا عن تخمير الشهد ، هذا على الرغم من أن طريقة صنعه كانت قد اندثرت تماما وطواها النسيان إبان العصر الكلاسيكى . ومن ثم فإن بعض الآلهة التي لم تكن تجارى روح العصر ، كانت تأبى استخدام المادة الجديدة نسيبا ، ولعل قرايين الشهد الشائعة كانت بمثابة تذكرة بالعهود التي كان يستخدم الشهد فيها في صناعة ذلك المشروب المسكر .

وإن قضى أحد اليونانيين القدماء نجه ، فإن مراسيم جنازته قد تصل الغاية

في التعقيد ، فقد كانت هناك كما نعلم طائفة من القوانين التي تحرم ، في المآتم ، المغالاة في إظهار مشاعر الحزن والإسراف في النفقة رغبة في التظاهر . وكان المآتم يتلو الوفاة على وجه السرعة ، وذلك لأن مناخ بلاد اليونان مناخ حار ، ومن ثم فالتحلل من شأنه أن يصبب الجثة في التو ، هذا من ناحية ، غير أن الدافع الأقوى لذلك فيما يبدو هو أن الميت رجلاً كان أو امرأة لاشأن له بهذا العالم ، ومن ثم فن الخير كل الخير أن يسرع إلى حيث مثواه . وكانت المراسيم تبدأ بعرض (pròthesis) الجثة ، بعد أن تخلع عليها أبهى الثياب ، وتوضع على أحد الأسرة ثم يدور حولها طقس من أقدم الطقوس ، وهو العويل التقليدي الذي كانت تبشره الذسوة من أفراد الأسرة ، وقد تزعمهن بعض المتخصصة في فن النواح والعويل ، وقد كان المعهود دائماً أن تكون هن قائدة من نوع ما ، أما الباقيات فكن ينظمن فيما يشبه الجوقة النادبة . ويطلق على هذه المراثي في الوقت الحاضر اسم « مويرولوجيا » moiròloghia وكانت تتألف من أبيات تقليدية في بعض أجزائها ومن أبيات مرتجلة في أجزاء أخرى . وفي العصر القديم كان من الممكن أن يعهد أقرباء الميت ، عند وفاة أحد الأثرياء أو الوجهاء ، إلى شاعر محترف بنظم رثاء (thrêmos) تقوم إحدى الجوقات بإنشاده تكريماً للراحل العظيم في وقت ما في أثناء المراسيم ، وقد كان سيمونيديس Simonides الشاعر الغنائي الكبير ، يجيد نظم هذه المراثي بوجه خاص . أما المرحلة التالية فكانت تشييع الجنازة (ekphorà ومعناها الحرفي « الخرجة ») وفيها تنتقل الجثة ، وهي لم تزل فوق السرير ، مسجاة في العادة بثوب أبيض وعليها أكليل من نبات يعتبر لا ثقاً بهذه المناسبة ، إلى المدافن التي كانت تقع في أغلب الأحيان خارج المناطق المأهولة .

وهناك إما أن تحرق ويحفظ رمادها في قارورة تدفن بعد ذلك ، وإما أن توضع في اللحد داخل تابوت في الغالب ، دون أن تحرق . ولا يبدو أن هذا الخلاف بين الطقسين يرتبط بخلاف آخر في المعتقدات المتعلقة بالعالم الآخر ، إذ أن أهم ما كان في الأمر هو أن تبعد الجثة عن عالم الأحياء ويهازل عليها التراب . وإذا ما عثر المرء على جثة لم تدفن ، فأبسط واجباته نحوها أن يهيل عليها شيئاً من التراب

وكان من حق الميت ، بعد أن يودع قبره . إذا كان قد خلف وراءه أحداً من ذوى قرباه ، أن يحظى بألوان الرعاية والعناية التي سبقت الإشارة إليها . وعادة ما كانت توضع مع الميت ، وقت الدفن ، بعض أنواع الإمتعة الخاصة بالمقابر ، التي كان مقدارها يتفاوت تفاوتاً عظيماً من عصر لآخر . وقد كان من دأب النبلاء الموكنين أن يدفوا معهم ثروات كبيرة ، كما يتضح لنا من الاكتشافات التي تمت في مقابرهم ، غير أن العصور التالية كانت أكثر منهم توخياً لدواعي التدبير والاقتصاد ، إلا أنه لم يكن من المعهود أن يحرم الميت من أية مقتنيات على الإطلاق تكون في خدمته في العالم الآخر . وشاهد ذلك أنه قد تنهى إلينا أكثر من مرة أن النار قد أشعلت في ملابس امرأة ميتة ، لكي تنتقل هذه الملابس إلى روحها . وجرت العادة في أثينا ، في عهد أرستوفانيس . أن يزود الميت بنوع معين من السكك المشرب بالشهد . وبغض النظر عن الأصل الذي نشأت عنه هذه العادة ، فقد أمكن التماس سبب لها ، كما يحدث غالباً عندما تتأصل إحدى العادات وترسخ دون أن يعرف القصد منها على وجه قاطع . فلقد كانت حراسة العالم السفلي منوطة بكلب مفزع كثير الرؤوس هو « كريبروس » kerberos يحتمل أن يقف عقبة في سبيل دخول القادم الجديد ، علاوة على أنه سيمنع دون شك خروجه . ومن شأن السككة الحلوة أن تستأثر بانتباهه لحظة من الزمن ريثما تقسمل الروح إلى دارها الجديدة . وهناك عادة ، راجت في العصر الحديث ، لكنها لم تكن في الحقيقة شائعة شيوعاً كبيراً في العصر القديم ، وهي وضع قطعة من النقود في بعض الأحيان في فم الميت ، لأداء أجر صاحب السفينة في العالم السفلي وهو خارون charon (والمرجح أنه كان إلهاً من آلهة الموت القدماء وأنه بقي بعد اندثار سائر آلهة العالم السفلي وما زال الإيمان به قائماً) وهو الذي كان يحمل الأرواح عبر النهر الذي يفصل بين هذا العالم والعالم الآخر .

وحين يعود المشيعون من الجنازة ، يدعون إلى الوليمة الجنائزية (perideipnon) ويتطهرون بالاغتسال من أرجاس الموت وشوائبه . أما القرابين المعتادة التي كانوا يقدمونها عند القبر ، فكانت تأتي عقب الوفاة في اليومين الثالث والتاسع منها ،

حرفى بعض البلاد ، إن لم يكن فيها كلها ، كان يقام طقس سنوى ، يطلق عليه فى أئتنا اسم *genésia* أى الوليمة العشائرية . ومعلوماتنا عن هذا الاحتفال ضئيلة ، إلا أنه قد يستدل من هذه التسمية ، فيما لودلت على شئ ، أن أفراد العشيرة كانوا يجتمعون بالقرب من مدافنهم فيما يحتمل ، ويشتركون فى وليمة جماعية ، بعد أن يقدموا قرابينهم المعهودة إلى موتاهم ، وقد تشمل هذه إلى جانب تلك التى ذكرت آنفا ، ذبائح من الماشية . وسرى فيما بعد أن من بين ما كان يضمه التقويم الدينى اليونانى ، عيداً لجميع الأنفس المتوفاة (كالذى يقام فى الدول المسيحية فى الثانى من شهر نوفمبر فى ذكرى جميع الأرواح *All Souls*) . ولم يكن الهدف من هذه الاحتفالات هو تقديم الذبائح . كما لم يكن أيضاً إقامة شعائر العبادة ، بقدر ما كان اشترك أحياء فى مائدة واحدة وهو ما كان قائماً وقت أن كان الموتى من أفراد العشيرة لا يزالون على قيد الحياة .

وأنه ل يبدو فى واقع الأمر أن الأرواح اليونانية كانت فى الغالب الأعم تؤخذ على أنها طبيعية للغاية ، فليس هناك ما يوحى إلينا بأن الأحياء كانوا يحسون كقاعدة عامة ، برهبة كبيرة نحوها ، وذلك إذا ما كانت قد أقيمت لها الشعائر الواجبة لنقلها إلى العالم الآخر ، والإبقاء عليها هناك فى ظل ظروف معقولة من الراحة والعيش الكريم .

أما إذا ما قيل أنها تطارد الأحياء . فالقاعدة هى أن أرواح من ماتوا بطريقة قسرية جبرية أو من لم يتم دفنهم على النحو الصحيح هى التى تقض مضاجع الأحياء . وفى حالة ما إذا قتل رجل أو امرأة غيلة ، فرغبته أو رغبته الطبيعية فى الانتقام قد تعزز بما هو أشد رهبة ، وأعظم هولاً ألا وهو القصاص الذى تنزله القوى العلوية ، وإذا ما كان مقترف جريمة القتل أو أى إثم غير مشروع آخر ، من تربطهم بالمجنى عليه صلة الرحم ، فالمنتظر أن تجتمع على عقاب المذنب داهية دهياء . وهؤلاء هن آلهات الانتقام *Erinyes* اللاتى كن بمثابة تشخيص للنقبات

الإلهية صورت على هيئة نسوة مفزعات الحلقة ، وقد انضفرت الحياة بشعورهن ، يحملن إما المشاعل وإما السياط ، وقد يظهرن للجانى ، أو يعمدن بوساطة فنون سحرهن الرهيب ، إلى إصابته بالسحر بحيث يذوى وينحل شيئاً فشيئاً حتى لا يعدو ظلاً لنفسه ثم يموت فى النهاية ، وتمضى إلهات الانتقام فى مسرحية أومينيديس *Eumenides* لاسخيلوس قائلات فى قسوة وصرامة بالغتين « وهو بعد الموت أيضاً لن يكون مطلق الإسهار تماماً . . وكان ثمة اعتقاد أيضاً بأن من يقع ضحية اعتداء صارخ وجرم فاضح ، كان يبدى من وقت لآخر . بعض القدرة على مناداة من ليسوا من ذوى قرباه ، إذا ما كان هؤلاء هم مقترفو ذلك الجرم . ولكن الغالب فيما يبدو أن اليونانى فى ذلك العصر لم يكن يجد فى الأشباح ما يبعث على رهبة كبيرة ، وذلك إذا لم يكن قد أساء إليها أحد ، وإن كان من الأصح والأفضل توقيها كلية .

بيد أنه إذا ما ألح قصاص القوى التى تفوق الطبيعة ، سواء من جانب الأشباح أو من جانب أية قوى أخرى ، فى إيذاء أحد الأفراد ، أو لإحدى الأسر فإن للأمر وسائل علاجه . فيبدو أنه قد كان هناك فى معظم البلاد وفى أغلب العصور اختصاصيون فى طقوس التطهير وطرده الأرواح الشريرة ، يمكن العباد بهم عند الحاجة . وتدلنا إحدى القصص التى وصلت إلينا من سوفرون *Sophron* الكاتب الذى عاش فى القرن الخامس ق . م ، على ما كان يتبع فى مثل هذه الأحوال . فثمة منزل قد ابتلى بهيمكاثى *Hekate* وهى من أبشع الإلهات الأرضيات . وأدعاهن للخوف والهلع ، وقد بدأت حياتها فيما يبدو إلهة للخصب والرخاء ثم تدهور الحال بها إلى أن أصبحت أشبه بالإلهات الساحرات ، وكان فى مقدورها أن تبعث بأشباح رهيبة أو غير هذه من العلامات الدالة على قوتها . فيستدعى أهل المنزل امرأة حاذقة بمثل هذه الأمور « لتسكن ، الأرواح . وتحصل المرأة على المواد اللازمة وهى جرو (وغالباً ما تفضل الآلهة الأرضية الذبائح من الكلاب عن غيرها من الضحايا) . ونبات الغار (وهو النبات الذى يختص به أبولون ، ومن ثم فإنه قوى الأثر فى طرد الأرواح غير المرغوب فيها) وقطران لإطلاق الدخان بالمنزل (والروائح

النفاذة من الوسائل الشائعة لطرد الأرواح (وملح وبخور ومشعل . وتطفأ نيران الموقد بعناية ، وتفتح جميع الأبواب ، وتجلس الأسرة حول العرافة في صمت وخشوع . وتذبح المرأة الجرو وتخبز الإلهة في صلاة تقليدية بأنها قد حصلت على وليتها الواجبة ، وأن عليها في هذه الساعة أن ترحل . وغالبا ما كانت تستخدم وسائل أخرى أشد بساطة من هذه ، وبخاصة الأدعية ، بأشكالها المختلفة ، المنطوقة وغير المنطوقة ، التي كانت تستعيز بالآلهة والأبطال ، وهم الذين كان يعتقد أن لديهم ، بوجه خاص ، القدرة فضلا عن الرغبة في درء الشرور ودفع الأذى . وقد كان لأبولون ، وهرقل صيت ذائع في مثل هذا المجال ، ومن هنا جاء لقبهم المشترك alexikakos أي « دافع الشر » . وعادة ما كان يقام أمام المنزل تمثال أو مذبح صغير للإله أبولون لكي يدرأ على هذا الصورة الأعداء غير المنظورين ، وكان هرميس في كثير من الأحيان يقوم بالمهمة ذاتها ، وقد تختار هيكاتي أيضا إن اقتضى الأمر للقيام بهذا العمل ، ذلك لأنه إذا أمكن فيل رضاها ، فلا يحتمل أن تعمد أية قوى أخرى أقل مرتبة منها من قوى العالم الأرضي إلى إيذاء من رأت هي أن من الأوفق الصفح عنهم . ولدينا بعض الأمثلة على نقوش كانت تكتب فوق باب المنزل ، تعلن أن « المظفر المجيد هيرا كليس يعيش هنا ، وتحظر الدخول على أية بلايا أو شرور ، ذلك لأن رسل الشر تنسم بالغباء في العادة ، وقد يكفي الزعم بحضرة مثل هذا البطل العظيم لحملها على الابتعاد ، دون أن تستوثق من صحة هذا القول .

وعادة ما كان يستفسر من مركز العرافة عن الطقوس الواجب اتباعها أو قد تستحضر الروح ، إن دعت الحاجة ، بطريق السحر ، إذا كان الأمر متعلقا بإحداها ويطلب إليها أن تبرر مسلكها . ولا بأس من حمل التائم والأحجية ، كما كان ثمة ضرب شائع من ضروب التوقي ، ألا وهو تحاشي استخدام أية ألفاظ داعية إلى التطير كذكر الموت . ولقد ترك ذلك أثره على اللغة بطرق غريبة بعض الشيء . مثال ذلك أن اليد الشمال كانت شؤما في العادة ، ومن ثم فإنها لم تكن تسمى باسمها إلا نادرا ، بل كانت تعرف باليد « الفضلى » ، أو اليد « اليسرى » . وبوجه

عام ، كان يحسن بالمرء ألا يكون مصدرا للإساءة . والواقع أن من يتخذ هذا المسلك الحكيم قد يؤمن إيمانا حارا بوجود شتى ضروب القوى ، وكثير منها يثير الرعب في بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن يعيش في خوف عظيم منها . فالليوناني العادي لم يكن فريسة الكاهن أو فريسة الشيطان ، ولو أنعمنا النظر في الحقائق بعض الشيء لا تضح لنا السبب في ذلك

فبلاد اليونان تقع خارج نطاق ذلك القسم الهائل من سطح الكرة الأرضية (ويمتد من هضبة إيران مجتازا آسيا الوسطى ثم من هناك إلى أمريكا الشمالية فيما وراء البحر) الذي يبدو أن به ميلا قديما متأصلا بعيد الغور إلى التثنية : أي إلى ديانة تقسم القوى التي تعبد إلى خيرة وشريرة ، مع ملاحظة أن القوى الشريرة تناهر في قوتها وبأسها القوى الخيرة ، وتجعل لكل حزب رئيسا إلهيا سواء كان هذا هو « أرمد » و « أهريمان » كما في بلاد فارس ، أو « جلوسكاب » وشقيقه الشرير كما هو الحال بين الهنود الذين يعيشون في مقاطعة نوفا سكوتيا Nova Scotia [البحرية في جنوب شرق كندا] . أما فيما عدا ذلك من بقاع ، فإنه رغم أننا قد نجد بها إيمانا بضرب من ضروب الجن ، إلا أن الشيطان أو أهريمان أو إبليس ما كانوا غير غرباء ، وهؤلاء كانوا في الغالب موزعا للسخرية مثلما كانوا مشار خوف أيضا ، لأن جميع الغرباء مضحكون حتى وإن كانوا مكروهين كذلك . ولم تحل قط ببلاد اليونان القديمة أية كائنات من هذا القبيل ، بل إن أبشع ما تصوره أهلها من أشباح لم تكن تنزع أيضا إلى الإيذاء عن طيش ونزق . فقد تقتص من المذنب دون رحمة أو هوادة ، وقد تتلصق سبل الانتقام لنفسها في عناد وإصرار ، أو قد تقطع أشواطا بعيدة في الانتصار لكرامتها ودعم هيبتها ، بيد أنها لم تكن ترتكب الشر قط طلبا للشر ذاته . وعلى ذلك فليس لمن يحيون حياة طاهرة وادعة أن يخشوا بأسا من جانب هذه الأشباح ، إذا ماتحاشوا على أية حال صحة المجرمين ، لأن القصاص قد يحيق بهؤلاء في أية لحظة ، وقد يؤخذ بجريرتهم من كانوا بالقرب منهم . وما كان هوراس ، حين يقول إنه لن يبقى تحت سقف بيته مجرما ارتكب إثما فظيما في حق ديمتر ، أو يبحر معه في سفينة واحدة ، إلا معبرا عن فكرة

بالغة الذبوع في عصره ، بقدر ما هي بالغة القدم أيضا . وما كان هوراس يتظاهر بالخوف منه ، وما كان أبناء العصور القريبة من النظرة يخشونه في حقيقة الأمر ، هو أن ينهار المنزل على المجرم ، أو تغرق السفينة ، الأمر الذي يعرض الأبرياء ممن يتصادف وجودهم بأى من الدار أو السفينة لأفدح الخطر . وإلى ذلك يرجع السبب في أن المجرمين كانوا في الغالب الأعم يبعدون عن مجتمعاتهم بالإعدام أو بالنفى مدى الحياة . ولم يكن الدافع إلى ذلك ، هو الغضب لسنن الأخلاق بقدر ما كان الرغبة في الوقاية من نوع من العدوى ، وهو الدافع ذاته الذى يحدو بنا إلى عزل المصابين بمرض معد . وإذا ما تيسر للمجرم التخلص من ذلك الدنس الذى اجتمع فيه الإثم وسوء الطالع ، بواسطة طائفة من تلك الطقوس التى وضعت لهذا الغرض ، ففى وسعه أن يعود مرة أخرى إلى حظيرة المجتمع الإنسانى ، وهناك كثير من سفكوا دماء بشرية ، تحقق لهم ذلك بعينه . وما إن يزول عنه هذا الدنس miasma ، فإنه يصبح غير معرض بعد ذلك للنقمة من جانب أى من الأشباح أو إلهات الانتقام ، كما أن من يحادثونه أو يشاركونه طعامه يصبحون فى مأمن أيضا . ويرجع السبب فى أنه لم تقم ببلاد اليونان هيئة كهنوتية عليا إلى أن الكهنة لم يؤلفوا قط فيما بينهم طائفة أو جماعة مقصورة على أعضائها . فلم تكن وظائفهم تعدو تركيزا لما كان يفعله رب البيت من أوساط الناس كل يوم من أيام حياته ، حين يضع إكليلا من الزهر فوق تمثال أو مذبح إله فى داره ، أو يقوم بتقديم شئ من القرابين له ، كأن يسكب بضع قطرات من النبيذ أو يحرق كمية يسيرة من البخور . ويمكن القول بوجه عام إنه باستثناء بعض الوظائف الخاصة التى كانت موقوفة على قبائل وعشائر معينة ، كان فى وسع أى فرد رجلا كان أو امرأة ، أن يصبح كاهنا أو كاهنة ، ولا يلزم أن يشغل هذه الوظيفة مدى الحياة ، بل إنها قد تقتصر على سنة أو على أية فترة أخرى تقرر سلفا . ولم يكن منصب الكاهن يقطع الصلة ، إلا فى القليل النادر ، بين من يشغله وبين أوجه النشاط الدينيوية العادية ، وإن كان عليهم فى الغالب مراعاة طائفة من القيود فيما يتعلق بالملبس وفيما يختص بتحاشى أفعال معينة ، وما إلى ذلك . كما كان يناط بالحاكم ، رغم ما قد يتسم به منصبه من طابع دينوى بحت ، بعض المهام الكهنوتية أيضا .

وكان منصب الملك ، فى أقدم العصور التى ألمعنا بطرف من تاريخها ، يجمع بين كل من هذين الضربين من المهام ، كما أن ذلك الحاكم الآئنى المنتخب الذى ظل حتى هذا الحين يحمل لقب الملك خلال الاثنى عشر شهرا التى كان يعتلى فيها كرسي الحكم ، كان عليه أن يقوم ، بالإضافة إلى أعبائه الرسمية العادية على كثرتها ، بدور رئيسى فى احتفال من أقدس الاحتفالات السنوية ، تعاونه فى ذلك زوجه التى كانت تلقب بالملكة فى مثل هذه المناسبات على أقل تقدير ، تعظيما وتكريما لها . كما لم يكن يحتاج المرء إلى أية مؤهلات خاصة أكثر من الإلمام بأصول المهنة ، لكي يصبح عرافا (mantis) . ولا شك فى أنه كان بوسع الكهنة أو المخبرين بالغيب كأفراد أن يمارسوا نفوذا كبيرا ، إن نظرنا إليهم على اعتبار أنهم أشخاص ذوو حكمة وطهر فائقين ، إلا أنهم لم يكونوا محوطين بهالات فنية ، تفوق ما يحيط به أطباءنا ومحامينا ، كما لم يكن بوسعهم أن يكتسبوا وعيا بطوائفهم ، من شأنه أن يحفزهم على تنسيق الجهود فى سبيل فرض سلطانهم الادبى على إخوانهم .

وأخيرا فإن اليونانى العادى كان يحدوه البشر والتفاؤل فى موقفه من آلهته فن بين صفاتهم الشائعة أنهم « مانحو الخير ، والخير هو ما كان ينتظر منهم فى واقع الأمر .

وغنى عن البيان أن مطاردة الأشباح للأحياء ، حقيقة كانت أو متوهمة ، لم تكن تعد وحدها من الأمور الشاذة الخارجة عن المألوف ، وإنما كانت تشاركها فى ذلك الكوارث الطبيعية المادية مثل الأوبئة ومواسم القحط والفيضانات ، فعندما تقع إحدى هذه الكوارث كان يلتمس لها سبب أو آخر ، فى حين أن انقطاعها يؤخذ فى الغالب على أنه قضية مسلم بها وأمر لا يخرج عن مجراه الطبيعى وعلى ذلك ، فعندما كان الفرد من العامة يلحظ فى أغلب الأحيان أن الطقوس التى أداها ، على سبيل المثال ، رغبة فى ضمان حصاد طيب ، قد أعقبتها غلة وافرة من أرضه ، يصبح بطبيعة الحال أشد حماسا إلى الإيمان بأثرها الفعال . ولما كان يعنى بموتى أسرته ؛ ولم تطارده أية أشباح ، فلا شك فى أن الطقوس أثبتت فاعليتها فى هذه المرة أيضا .

وقد يصادف فالأحسان وهو منصرف إلى عمله ، فيستحقه ذلك على مواصلة الجهد ، فإذا بعمله بكل بالنجاح بفضل هذا الفأل وبفضل مثابرتة وذكائه (ومما صفتان تميز بهما اليونانيون عامة في كل عصر) . وعلى ذلك فالفأل صحيح ، أرسله إله عطوف ليكون هادياً له . وجلة القول أنه كان شخصاً معتدلاً ، لا يعمد إلى القسوة ولا يعمد في الظلم ، كما أنه يؤمن بألوهة تماثله تماماً . أما القول بضرورة أن يكون هؤلاء في مرتبة أسمن وأن يتحلوا بخلق بالغ السكال ، فتلك فكرة لم تظهر إلا في عصور متأخرة بعض الشيء . كما لم تطرأ إلا على العقول المفكر وحدها .

أما بالنظر إلى ما قد يطرأ له ، حين يقضى نحبه ، بعد عدد من السنوات ليس بالكثير ، فيبدو أن هذا الأمر لم يكن يحظى باهتمام كبير طالما أن شؤون الحياة الحاضرة كانت تسير سيراً مرضياً بالقدر المعقول . ولقد كان العالم السفلي كما أسلفنا ، موحشاً كثيباً ، لا يمكن لامرئ أن تحدوه في العادة رغبة في الذهاب إليه . ومن ناحية أخرى فإن التطلع إلى الخلود لم يكن من السمات المميزة للسواد الأعظم من اليونانيين . كما لم يكن الفلاسفة الفيثاغوريون وغيرهم من الفلاسفة هم وحدهم الذين قرنوا اللانهاى واللاحدودى بالشر ، فقد كان الذوق العام يميل إلى الشيء المحدود المتناسب الأجزاء ، ومن ثم فهو فيما يتعلق بحياة الإنسان ، يتوق إلى مثل ذلك السكال الذى يتحقق من العيش حتى شيخوخة طيبة في ظل قدر معقول من سعة العيش ، وترك ذرية له ثم الموت ميمنة كريمة مشرفة . وقد لانجد الكثيرين ممن كانوا يخالفون القول المأثور عن سولون ، من أن تيلوس الآثيني كان أسعد بنى البشر أجمعين : « أولاً ؛ لأن مدينته ازدهرت وعلا شأنها ، وأنجب هو أبناء أفاضل ، ورآهم جميعاً وقد أنجبوا أبناء لهم ؛ كلهم على قيد الحياة ، ثم إنه كان ، ثانياً ؛ غنياً ، كما نقدر نحن اليونانيين الثراء ، وكانت خاتمة مشرفة مجيدة ، إذ أنه هب للنجدة في معركة دارت رحاها بين الآثينيين وجيرانهم في إليوسيس ، وحمل على العدو فولى العدو الأدبار ، ومات وهو يقاتل بشجاعة فائقة

وأقام له الآثينيون مأتماً على نفقة الدولة في الموضع الذى لقي فيه مصرعه وكرموا أعظم تكريم .

هذه هي النعم التي كان المهذبون من أواسط الناس من أبناء العالم القديم يلتصقونها من آلهتهم ، أما من تطلع إلى ما وراء ذلك ، وبخاصة من رغب في الخلود ، فقد يحق له أن يتذكر تلك المشورة السديدة التي ردها شعراؤهم أكثر من مرة : « حذار أن تسعى لتكون زيوس » .

على أنهم كانوا يعبدون بعض الآلهة الشبيهة على الأقل بالآلهة المينوية، وأن عقائدهم هذه قد خلقت آثارها فيما وراءها في صورة عدد من الأسماء الإلهية التي يتعذر تفسيرها في ضوء أى من مفردات اللغة اليونانية، وفي طقوس وأساطير يماثل بعضها البعض وإن كان من السهل تمييزها عن الأساطير والطقوس اليونانية العادية. وبالجملة فلندنيا من الأسباب ما يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الإلهات كن على رأس العبادات المينوية، وأنه قد كان هن مركز الصدارة أيضاً في بلاد اليونان الأصلية. كما أن الكثيرات منهن إن لم يكن كلهن كن « إلهات أمهات » وهو نمط ذائع كل الذبوع في دول شرق البحر المتوسط، كما يوجد غالباً في أقطار أخرى. ذلك لأن الفكرة الشائعة في واقع الأمر هي أن الأرض التي تخرج نباتات غذائية مختلفة الألوان، إنما هي شبيهة بالمرأة، أما الزرع فهو ذريتها. وفي أحيان كثيرة تكون هذه المرأة وهي « الأرض الأم » زوجة « للسماء الأب » الذي يبعث إليها بالمطر فيخصبها. وزبوس إنما هو « سماء أب » من هذا النوع، ومن السهل تعليل أزواجه الكثيرات من الإلهات والآدميات بأنها أشكال مختلفة لهذه الأسطورة القديمة المسيرة للطبيعة أشد المسيرة. ولكن هذه لم تكن هي الحال دائماً. فقد تبلغ الأرض الأم من الأهمية شأواً بعيداً يبطل معه الاهتمام كلية بمن يكون زوجها أو عشيقها، والحق أنه في بعض المداخل الأولى من أفكار الإنسان، لم يكن يدرك أن لكل طفل أباً، ولم تكن قصص ولادة العذارى تثير فيه أدنى عجب أو غرابة. ومن ثم فليس ثمة ما يدعونا إلى الدهشة، في أننا لانعثر إلا في القليل النادر على أى شكل قد يمثل أحد الآلهة، بين الأعمال المينوية أو الموكنية الفنية العديدة التي تهدينا إلى قبس من ديانتها، في حين أن الإلهات (ولا حق لنا أن نقول إنهن يمثلن جميعاً إلهة واحدة) يبلغن من الكثرة حداً كبيراً، حيث يظهرن عاريات في بعض الأحيان أو يرتدين في الغالب ذلك الزي المعقد الذي عرفت به النيبيلات المينويات، وفي حالة واحدة على الأقل ظهرت الإلهة نصف محففة خلف درع هائل كانت تحمله، على نحو يذكرنا بتلك التماثيل الكلاسيكية العديدة للإلهة أمينا التي تظهر فيها وهي تمسك بدرع جندي المشاة اليوناني. وفي حين أننا لانجد

الفصل الثالث

أصول الآلهة

على الرغم من أنه ليس من الميسور دائماً، كما أوضحنا من قبل، تتبع أصل أية عقيدة يونانية إلى منشأها، فلا بأس من أن ثبت هنا ما هو معروف على وجه التحقيق أو ما هو مرجح إلى حد كبير؛ حول تاريخ بعض المعبودات التي كانت تؤلف « الباثيون » أو مجموعة الآلهة اليونانية القديمة. فقد مضى منذ أقدم العصور التي تاهى إلينا من خبرها الشيء القليل أو الكثير، حتى زوال الديانات غير المسيحية من بلاد اليونان، ما يقرب من ألفين ونصف ألف من السنين، وفي خلال هذه الحقبة الطويلة لم يكن هناك مفر من أن تطرأ تغييرات كثيرة تتضمن إدخال معبودات أجنبية مع ماصحها من طقوس.

والجدير بالذكر أن لدينا قدراً كبيراً من الشواهد المتعلقة بالآلهة التي وجدها اليونانيون عند حلولهم بالبلاد لأول مرة. وهذه الشواهد تضمنها الاكتشافات الأثرية الضخمة التي تمت في كل من كريت، حيث ازدهرت الحضارة التي نطلق عليها اسم الحضارة المينوية، زهاء ألف وخمسمائة عام، وفي بلاد اليونان الأصلية التي كانت ذات حضارة مجيدة تعرف باسم الحضارة الموكينية، نسبة إلى المكان الأول الذي تمت فيه أولى الاكتشافات وأخطرها. أما من كانوا نفاة هذه الحضارة، فسأله فيها نظر، ولكنه يبدو بوجه عام أن هؤلاء كانوا في الغالب من الغزاة؛ أسلاف الأشراف الذين تحدث عنهم هومر والذين أخذوا عن الكريتيين كثيراً من فنونهم وآداب ملوكهم؛ على أنه من المحتمل أيضاً، وبما يذهب إليه بعض الباحثين، أنهم كانوا من المستعمرين الكريتيين الذين اجتذبهم فرص الاتجار مع شعوب البلاد الأصلية. وسواء صدقت هذه النظرية أو تلك، فثمة دلائل واضحة

أثراً واضحاً على زوج إلهى لآى من هؤلاء الإلهات ، فإننا نقف على ما يبدو جلياً أنه طفل إلهى .

اشتهر الكريتيون في الزمن القديم بأنهم من دهاقين الكذب ، ومن أسباب ذلك أنهم زعموا أن زيوس قد مات وأن بوسهم أيضاً أن يدلوا على قبره . ولا غرو أن ذلك قد بدا في نظر اليونانيين سخفاً محضاً ، وهم الذين لم يكونوا يفهمون عن الإله أنه ذو سلطان وقوة فحسب بل إنه خالد أيضاً . أما القول بخلوده فلم يكن يعنى في العادة أنه كان كائناً روحانياً ، ومن ثم لا يمكن أن يموت كما هو شأن الكائنات الحية التي تعيش في الجسد ، بل إن روحه وجسده لا يفترقان قط . ويترتب على ذلك أن القول بإله ميت ، ولا سيما القول بزيوس الميت ، إنما كان يمثل تناقضاً في التعبير . ولما كنا إذاً قد قسنا قسماً آخر من القرائن التي عثر عليها في كريت أيضاً ، تبين لنا على نحو أكثر وضوحاً ما كانت تعنيه هذه الأكدوبة المزعومة في واقع الحال . فإن الأمر لم يقتصر فحسب على الزعم بأن زيوس قد دفن في تلك الجزيرة ، بل قيل أيضاً إنه ولد بها ، وساد الاعتقاد بأن أموراً عجيبة تقع حولاً بعد حول في المغارة المقدسة التي شهدت مولده ، بما يوحى بأن هذا الميلاد لم يكن بامر وقع مرة واحدة في الماضي ، بل إنه أعجوبة متواترة متكررة . وفضلاً عن ذلك ، فقد آلت إلينا أنشودة يونانية تنسب إلى عصر متأخر نسبياً ، يدعى فيها زيوس بأنه «أعظم الشبان» ويطلب إليه أن يأخذ بنصيب في طقس يقصد به استدراز الرخاء للأرض . وهكذا ، فإننا نقف عليه طفلاً حديث الولادة ، وشاباً يافعاً ، وجثة هامة . وبمقارنته بآلهة مماثلة من مختلف أنحاء العالم يتضح لنا من هو ؛ فإنه لم يكن بحال «إله الطقس» كما رآه اليونانيون (أما عما دعا إلى تسميته بزيوس Zeus فذلك لغز محير ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه كان أبرز الآلهة التي عرفها اليونانيون في كريت ، فطابقوا بينه وبين رئيس معبوداتهم ، بل كان أشبه بما يمكن تعريفه باسم إله السنة ؛ بمعنى أنه كان تشخيصاً لا شعورياً للسنة ، لا باعتبارها حقبة من الزمن ، بل باعتبارها دورة من المواسم ، تخرج خلالها إلى الوجود جميع الأشياء التي تغلها الأرض ثم تمر في طور النضوج ثم تموت .

وهو على هذا الاعتبار ابن دون شك . للأرض الأم ، وهو على هذا الاعتبار أيضاً ينمو ويهرم ويموت ، لا شيء إلا ليعود إلى الحياة في العام التالي . وليس أدل على صلابة هذه الفكرة ورسوخ قدمها على مر الزمن ، من أن هذا المعبود قد امتد به الأجل إلى عصر الحضارة المينوية وما اشتق منها من حضارات أيضاً . أما فيما بين اليونانيين الذين لم تكن معتقداتهم تضم شيئاً من هذا القبيل ، فقد ذوت هذه الفكرة واتخذت أشكالاً مقنعة ، حيث صبح الابن الإلهى طفلاً بشراً ، يطرح في العراء ، إلا أن الحياة تكتب له من جديد بفضل رعاية حيوان أو كائن أعظم من الكائنات العادية كإحدى الحوريات .

ثم يشب بعد ذلك عن الطوق ويسلك حياة عامة مجيدة ولكنها حياة بشرية . وقد لا يصل قط إلى سن البلوغ بل يموت إما في طفولته وإما وهو لم يزل حدثاً صغيراً . ولقد سبق أن أشرنا في معرض حديثنا إلى أشهر مثل لذلك . فليس ثمة سبب معقول يدعوا إلى الشك في أن هيا كينثوس من أموكلاى كان واحداً من ذلك النوع من الآلهة الذي عرضنا له بالشرح منذ لحظات . فالثابت من اسمه أنه غير يوناني ، لأن المقطع الزائد في نهايته وهو «nth» ، إنما يميز الأسماء القديمة التي يتعذر تفسيرها في ضوء اللغة اليونانية في عصر ازدهارها ، وهي في بعض الأحيان أسماء أما كن مثل كورنثة (كورنثوس Korinthos) كانت تنتقل ، مع تغيير طفيف في النطق بوجه عام ، من طبقة من السكان إلى أخرى ، وهي في أحيان أخرى أسماء زهور أو نباتات أو أية معالم ثابتة أخرى للبيئة التي أحاطت بالوافدين الجدد ؛ ولنا أن نقارن أسماء البلاد مثل اسم تيمسكيمنج Temiskeming التي تفتش فوق خريطة كندا وتنسب إلى اللغة الأميركية وليس إلى الإنجليزية أو الفرنسية . وألفاظ مثل «أوانانيشى ouananiche» و«كاريبو caribou» ويعنيان على التوالي سمكة ودابة ، لا توجد في أوروبا وإن كانت شائعة إلى حد كبير في أمريكا الشمالية . وتشير الأسطورة التي تروى عن ذلك الإله أنه كان غلاماً مبد أن الصور المنحوتة التي تزين العرش الكبير الذي يقوم عليه نصب قديم الطابع للإله أبولون في المعبد الذي كان يتقاسمه هذان الإلهان في الأزمنة التاريخية ، لم

تصوره على هيئة غلام ، بل أظهرته رجلا ملتجيا . وصورة هذا النحت أيضا محمولا إلى السماء على أيدي جماعة من المعبودات معظمهن من الإلهات . أما الدوريون الذين فتحوا أموكلاي بعد كفاح طويل وأدخلوا بها عقيدتهم الخاصة ، لم يدركوا فيما يظهر معنى للإله المحلى ولكنهم قابلوه بالاحترام مثلما فعلوا مع المقاتلين الأشداء الذين يعبدونه ، وحاولوا أن يوائموها بينه على نحو أو آخر وبين الديانة التي يعرفونها . وجملة القول ، إذن ، أنه على الرغم مما لهذه الديانة الكريكية السابقة على اليونانية من أهمية تاريخية ، إلا أنها أثارت حيرة بالغة بين يوناني العصور الكلاسيكية حالت دون تأثيرهم بها تأثراً عميقاً .

غير أن الأمر كان يختلف عن ذلك بالنسبة للإلهات . فقد كان الغزاة على شيء من العلم بكائنات تفوق الكائنات الطبيعية من الإناث وأمهات الأطفال ، لأنهم هم أنفسهم كانوا يعبدون واحدة على الأقل من هذه الكائنات ، ألا وهي ديمتر Demeter . والدليل المؤكد على أصلها هو الحقيقة الماثلة في أن اسمها يوناني ، فلا يمثل مقطعاً الأخيران سوى اللفظة الدالة على « الأم » ، في اللغة اليونانية ، أما المقطع الأول فقد أمكن تفسيره على وجه مرض للغاية بافتراض أنه تركيب غير شائع للفظه التي تعني الحنطة ، وهي ذلك الحب الحقيق الرتبة الذي كان يمثل الطور المتقدم من القمح . فهي على ذلك « أم الحنطة » ، أو « أم القمح » ، أما ابتها فهي كوري Kore أي العذراء ، وهي النظرية الإلهية للحبة الجديدة التي تنمو وتحصد ثم تخزن . وعلى ذلك فقد كان هؤلاء الغزاة عند حلولهم بالبلاد التي قدر لهم أن يحتلوها على تمام الاستعداد لأن يعترفوا بألوهية شخصيات محوطة بالجلال والوقار مثل إلهة أرجوس الكبرى . ولأنه قد قدر لهذه الإلهة أن تحمل اسماً على الإطلاق ، فإنهم لم يلقنوه فيما يبدو ، لأنهم دعوها باسم هيرا Hera الذي لا يعدو ، فيما يظهر ، أن يكون مؤنث هيروس heros ومن ثم فهو لا يزيد في معناه على مدلول كلمة « سيدة » . وكان لها سلطان على كل ما يتعلق بالمرأة ، منذ نعومة أظفارها حتى كهولتها ، ومن ثم فقد كانت هي ذاتها أما . وترتب على ذلك أيضاً أن تبين لأناس كهؤلاء الغزاة ، لا يحتكون لغير المنطق والعقل ، أنه لا بد أن يكون لها زوج ،

ولم يكن هناك من زوج معروف يدانها مهابة وجلالا سوى إلههم العظيم زيوس . وهكذا أصبح على رأس الأسرة الإلهية اليونانية زوج وزوجة ينتسبان إلى أصليين مختلفين جد الاختلاف . أما الزوجة الصحيحة والأصلية للإله زيوس ، فقد كانت ، كما هو مؤكد إلى حد بعيد ، من آلهات الأرض اللاتي لم يثبت بأى دليل أن هيرا كانت من بينهن في أى زمن من الأزمان ، كما كان اسم الزوجة كما يرجح ، استناداً إلى أن اسمها في أقدم عبادة للإله ومقرها دودونا ، هو مؤنث اسم الإله ديوني Dione .

غير أنه كان من الصعب إلى حد ما الموازنة بين أرتميس Artemis وبين التخطيط اليوناني العام . وليس من شك في أنها كانت في الأصل « إلهة أما » ، من ذلك النمط الذي لا نجد محيصاً عن أن نسميها ، نظراً لجهلنا بما كان يدعوها به الكريتيون سيدة كل ما هو برى متوحش . أما عن ولايتها فكانت البراري وما يعيش بها من حيوان « فضلاً عن أنها كانت تهيمن على النساء بطريقتين على جانب كبير الأهمية ، إذ قد تساعدهن في أثناء الوضع ، كما أنه عندما تموت امرأة فجأة ، يقال إن سهم أرتميس هو الذي أرداها . وكان من الطبيعي لإلهة مثلها ترتبط كل هذا الارتباط بعامل الخصب أن تكون هي ذاتها ولودا ، بيد أنها على خلاف بعض الإلهات اللاتي كن يماثلنها في غير ذلك من الوجوه ، لم يكن لها قرين . أما بالنسبة لمنطق الفكر اليوناني ، فقد كان ينبغى على الإلهات والآلهة أن يتمثلوا في سلوكهم بالنبل العظام ، وقد تختلف قواعد السلوك لديهم عن مثيلاتها لدى البشر ؛ إلا أنه كان لهم قواعد السلوك الخاصة بهم ، وهم بالنظر إلى كونهم آلهة شعب يؤمن بالزواج بواحدة ، فلا بد أنهم كانوا يقيمون وزناً كبيراً لعفة زوجاتهم وبناتهم وطهارة ذبولهن ، وإن كان للذكور منهم أن يسمحوا لأنفسهم بقسط كبير من الحرية مثلما كان يفعل النبلاء الأخايون . كان « الملك » في ملاحم هومر (ومثل هذا اللقب يبدو أضخم من أن يخلع على أى من ذكركم هومر ؛ وجعل لقب « نبيل » أقل بعداً عن التضليل) لا يحتفظ بغير زوجة واحدة ، بيد أنه كان له أيضاً الحق في أن ينجب نسلًا من نسوة أخريات ، ولم يكن أحد من أبنائه هؤلاء أو أمهاتهم من المنبوذين ، فالنوثوس nòthos ،

أى ابن المولود من هؤلاء كان يعد فردا من أفراد العائلة التي يضمها بيت أبيه، كما كان له نصيب في ميراثه، ولو أن نصيبه كان يقل عن نصيب الابن الشرعى. ولكن العادة جرت على إظهار النسوة من أقرباء النبيل، في ثوب العفة والطهر، فقد كانت جريمة شنعاء تلك التي اقترفتها زوجة أجاثون حين اتخذت لها خليلا في أثناء غيابه، كما لم يكن من سبيل إلى غفران فعله هيلانة عندما هجرت زوجها لتذهب إلى طروادة في صحبة باريس، إلا القول بأنها إنما كانت واقعة تحت تأثير أفروديتي ومن ثم فلم تكن تملك زمام نفسها. وعلى هذا القياس أيضا كان يسمح لزيوس بأن تكون له محظياته، غير أنه كان يتحتم على ابنته إن لم تكن قد تزوجت أن تكون عذراء. أما القول بأن أرتيميس هي ابنته، فذلك عقيدة لا بد أنها ظهرت منذ زمن بعيد للغاية، وأغلب الظن أيضا أنها نشأت عن محاولة للوائمة بين هذه الإلهة البالغة الأهمية وبين النظام الذى يقف هو على رأسه. وعلى ذلك فحال أن تكون أرتيميس أما لأحد. وليس أدل على أن الإلهة الأصلية كانت محور كثير من الأساطير المحلية السابقة على الديانة اليونانية والتي تدور حول الأمومة وإحباب الأطفال، من القصص التي تروى عن نسوة مرتبطات بها أو حوريات يقمن على خدمتها، ممن كن يعقدن في الغالب، وإن لم يكن هذا هو الحال دائما، زواجا غير شرعى، وكاليسو التي عرضنا لذكرها من قبل، تعد شاهدا على ما نقول، لاسيما وأنها تنقلب فيما تزعم بعض الروايات المختلفة لأسطورتها إلى دب، وهو حيوان وثيق الصلة بأرتيميس. وهكذا ارتقت النظرة إلى إلهة البراري القديمة فأصبحت بمضى الزمن رمزا كريما على البكارة، وإن احتفظت، رغم ذلك، بشيء من عنفوانها القديم، في أنها ورفيقاتها كن من الصائدات.

وليس ثمة دليل شاف على أن أثينا كانت في وقت من الأوقات إلهة أما، إلا أن هناك من القرائن البينة ما يقطع بأنها كانت هي الأخرى بالبلاد قبل مقدم اليونانيين. وهي تشبه هيا كيثوس. في أنها تحمل اسما يعد علما على العصر السابق على مقدم اليونانيين، لأن المقطع الزائد في نهايته وهو *ra* يعتبر من الخصائص المميزة للسان القديم غير المعروف الذى كان يتكلم به البلاجيون، إذ يظهر، على

سبيل المثال، في ذلك الاسم الجغرافي البالغ القدم، وهو موكناي *Mycenae* كما أن سلوكها، كما يتبدى في بعض أبيات من هومر، يشير إلى أحد المعالم البارزة للديانة المينوية الموكيفية، وهو ما تكشف عنه فنونهم أيضا؛ إذ تعرض الكثير من المشاهد التي يتضح منها أن الطيور التي تشاهد في أماكن مقدسة وترتبط بأشياء مقدسة، إنما هي أشكال مرئية للآلهة، ولقد كشفت أثينا لدى هومر، عن ألوهيتها، في أكثر من مرة، بأن اتخذت بعد ظهورها في هيئة بشرية بين الناس، صورة طائر وحلقت بعيدا. والحقيقة أن رفيقها الدائم كان طائرا، وهو البومة. أما إذا أردنا أن نفق على ما كانت عليه طبيعة هذه الإلهة في الأصل، وقبل أن يحيلها خيال اليونانيين وعميق شعورهم الدينى إلى تلك الشخصية النبيلة التي تتمثل في ربة الحكمة ورعاية المهارة والحدق، وهي الصورة التي تبدو عليها الآن فيما آل إلينا من أدب اليونان، فلدينا في ذلك عدد من الأدلة غير الصريحة. لقد كانت أقدم عباداتها المعروفة ترتبط بالمعادل الطبيعية، مثل الأكروبوليس *Acropolis* أو القلعة في أثينا، حيث كانت تقوم زمنا ما قصور السادة الموكينين، وحيث لا يزال في الإمكان الكشف عن آثار أساساتها. كما تبدو نزاعة إلى الحرب على الدوام، مما يذكرنا بصورة تلك المرأة التي سبقت الإشارة إليها، وقد حملت درعا موكنيا ضخما، كما تبدو على لوح من الحجر الجيري عثر عليه في موكناي ذاتها. ولكن ذلك من شأنه أن يشير من الوهلة الأولى التساؤل عما يدعو إلهة من الإلهات أن تبذل كل هذا الاهتمام بالحرب، خاصة وأنه قد كان لليونانيين في العصور الكلاسيكية إله للحرب معترف به هو آريس *Ares*. وعلى أية حال، ففى وسعنا أن نعثر على شيء من هذا القبيل، إذا ما وجهنا أنظارنا شطر بلاد إيطاليا القديمة، حيث تظهر الإلهة العظيمة جونو *Juno*، وذلك في لانوفيوم *Lanuvium* حاملة رحا ودرعا. وكان للمعبود الرئيسي لدى أى قطر في العصر القديم أن يتخذ لنفسه مهام حربية، بالنظر إلى جولات الصراع المتصل ضد المجتمعات المجاورة، التي كانت تمثل أحد المعالم البارزة في جميع تاريخها وعلى ذلك فإننا عندما نجد إلهة تلبس الدروع وترتبط بقصور النبلاء الموكينيين المقاتلين — ذلك لأن كل ما نفق عليه من هذه الحضارة ينبئنا بأن تاريخها كان عاصفا — فالنتيجة المنطقية أن أثينا بدأت حياتها إلهة حامية

لهؤلاء الأمراء ولدورهم ، وأنه عندما قضى عبادها نجهم بقيت هي على صلتها بالقلاع الطبيعية التي كانت تقوم فوقها القصور المحصنة التابعة لهؤلاء الذين كانوا سادة البلاد زماناً ، كما ظلت موضع تقديس وعبادة من جانب الوافدين الجدد من سكان المدن التي تتكلم اليونانية والتي قامت حول المواقع التاريخية القديمة . أما أن يرتفع بها بعض الشيء ، شعب دموب أريب عن مجرد كونها دريئة منيعة ضد أعدائه ، وأن تصبح على ذلك حامية للفنون والصناعات اليدوية فضلاً عن الجنود المقاتلين وأسلحتهم ، فذلك ما لا يدعو إلى عجب أو غرابة . والحقيقة أن بوسعنا أن نقول فيما يختص بكونها إلهة للحرب ، إنها كانت إلهة للحروب المتمدنة مع ما يتصل بها من نظم عسكرية مستتيرة في حين أن آريس ، الذي يبدو في رأى البعض أنه كان في الأصل إله الموت ، ظل مقروناً بالمذابح وجنون الحرب والموت القسرى على اختلاف صورته ، بما في ذلك الموت من أثر الإصابة بالآوبئة .

ويمكن أن نرجع بأصل إلهة أخرى تنسب إلى نمط الإلهات الأمهات ، وهي أفروديتي ، إلى جزيرة قبرص ، ذلك المركز التجاري والصناعي البالغ القدم ، إذ يعرف معدن النحاس في اللغة اللاتينية باسم *aes Cyprium* أو *Cyprum* نسبة إليها ، ومن المعروف كذلك أنه في نهاية العصر الحجري اكتسبت تجارة النحاس أهمية مطردة ، وهو معدن موجود في الجزيرة . كما عثر في هذه الجزيرة أيضاً على تماثيل أثرية عتيقة تبالغ في إبراز الخصائص الجنسية ، على النحو المعهود في مثل هذه الأشياء البدائية . وقد أقام اليونانيون مستعمرة في قبرص في زمن مبكر ، كما يستدل من الحقيقة الماثلة في وجود طائفة مختلفة بها من مفردات اللغة الأركادية العتيقة باللغة القدم ، ولابد أنهم عرفوا بطبيعة الحال الإلهة الرئيسية لهذه البلاد . وعندما حلت أفروديتي ببلاد اليونان الأصلية ، ألقت نفسها في مواجهة خصوم أديم ، وبخاصة هيرا ، ومن ثم أصبح نشاطها قاصراً إلى حد بعيد ، لا على الشؤون التي تقسم بالوقار والاتزان مثل الزواج والتناسل ، وإنما بالآخرى على كل ما يتعلق بعاطفة الحب ، وهذا هو السبب دون ريب فيما هو شائع عنها من أنها أم لإيروس *Eros* ، وهو إله لم تكن لها به أية علاقة أصلاً . أما الطابع الخلق

لعبادتها فكان يختلف اختلافاً كبيراً من معبد إلى آخر . وهكذا نجد أن في أثينا وفي أماكن أخرى ، كانت شعائر العبادة تقام لها على اعتبار أنها « بانديموس » *Pandemos* أي تلك التي تقع في دائرة نفوذها شؤون الحب والزواج المتعلقة بجميع الناس ، وتذهب القرائن التي بأيدينا إلى الدلالة على أن عبادتها كانت من نوع لا اعتراض عليه بتاتاً . أما في كورنثة وفي أماكن أخرى ، فإن الإلهة لم تحتفظ فحسب بلقبها القبرصي القديم ، وهو « أورانيا » *Urania* أي السماوية ، بل كانت لديها عاهرات ملحقات بالمعبد للقيام بخدمتها ، مثل بعض إلهات آسيا الصغرى . وثمة جانب من طبيعتها حقيق بأن يشير دهشة من لا يعرفون هذه الإلهة إلا من خلال خيالات الأدباء ، وهو أنها مثل أثينا ، تبدو من حين لآخر في ثوب امرأة محاربة ، فهي (حاملة الرمح) في جزيرتها الخاصة ، إذ تدعى أريا *Areia* (ومعناها المحاربة) في جزيرة كوثيرا *Kythera* المواجهة للشاطئ الجنوبي من البليونيز ، وكثيراً ما تقرن بالإله آريس *Ares* الذي يظهر في شتى الأساطير المعروفة على أنه عشيقها ، أما زوجها فهو في الغالب هيفايستوس *Hephaistos* رب الحدادين والصناع . غير أن ثمة ارتباطاً آخر ، يتعذر تفسيره إذا ما وضعنا في اعتبارنا بادية ذي بدء أنها إلهة حب ، إلا أنه سيكون ميسور الفهم إلى حد بعيد لو أننا تذكرنا طبيعتها الأصلية ، وهي ارتباطها بالموت . ففي دلفوى *Delphoi* كما يقول بلوتارخوس الذي كان على علم كبير بتلك البلدة ، كان يقوم لها تمثال صغير يسمى (أفروديتي بالقرب من القبر) حيث يدعو الناس الموتى إلى قبول القرابين المقدمة لهم . ولا غرو ، (فالأم الكبرى) التي تخرج إلى الوجود كل ما هو حي ، هي أيضاً التي تلتقي كل حي في النهاية عندما يقضى نجبه .

ولإذا وجد الآخيون أن بلاد اليونان تحوى بالفعل عدداً كبيراً من الإلهات فقد دفعهم ذلك إلى أحد أمرين ، إما أنهم لم يصحبوا معهم سوى عدد ضئيل منهم وإما أنهم طابقوا بين إلهاتهم وبين الإلهات المحلية مطابقة تامة إلى الحد الذي اختفت فيه إلهاتهم باعتبارها موجودات لها كيان منفصل . وعلى خلاف المينوليين

والموكنين ، فقد كان الآخايون يميلون بوجه عام إلى أن تكون رؤساء الآلهة
لديهم من القوى المذكورة ، كما لم يكونوا يترددون في أن يأخذوا عن الشعوب
الآخرى التي لهم بها صلة ، أيأ من الآلهة التي يبدو لهم أن الأصوب كسب رضائه .
وليس هناك سوى إله واحد يمكننا أن نقول عنه . ونحن على يقين تام ، إنهم عبدوه
على الدوام منذ أن انفصلت لغتهم عن اللسان المشترك الذي كان يتكلم به أسلافهم
والذي يعرف إما باسم اللغة الهندية الجرمانية ، وإما اللغة الهندية الأوربية وإما لغة
الفير . ذلك هو زيوس Zeus ، الساطع ، وهو من الناحية اللغوية ، يمثل
المعبود ذاته الذي يعرف باللاتينية باسم يوبيتر Iuppiter وبالألمانية باسم تيو
Tiu . وهو رب السماء التي كان ينظر إليها في هذا المقام لعلها الطبقة الصلدة
التي يقوم عليها سكن الآلهة السماوية ، وهي الصورة التي كانت ترسم لها في مخيلات
معظم اليونانيين قبل أن يتقدم العلم لديهم ، بل باعتبارها المكان الذي تصدر عنه
التقلبات الجوية . يقول ثيوكوتوس : يبدو زيوس تارة صافياً ، وتارة مطيراً ،
وهذه العبارة إنما تبين أوجه نشاطه الرئيسية . كما تدل في الوقت ذاته على ميل عام
إلى المطابقة بينه وبين القسم الخاص به من الكون . وغنى عن البيان أنه قد كانت
لديه سلسلة طويلة من الألقاب الدالة على إرساله الرعد والبرق والمطر والريح
إلى آخره ، كما أنه بالنظر إلى أن اهتمام المزارع بالطقس ينصب على النواحي العملية ،
فقد كان لزيوس أيضاً سلسلة أخرى من الألقاب التي توضح علاقته بالزراعة .
ولكن أنى لذلك أن يأتي على جوانب طبيعته المركبة ؟ فهو بالنظر إلى عليائه وعظمته
وقربه رغم ذلك من الأرض بالقدر الذي يكفل له أن يؤثر عليها ، لا بد أنه عالم
بكل شيء . وواسع الحكمة أيضاً ، كما هو حال آلهة السماء ، في كافة أنحاء الأرض ،
لذا أنهم يعاينون ويسمعون كل ما يجري . فضلاً عن ذلك ، فشمه أشياء تنساقط
من السماء على الدوام ، وهذه لا تقتصر على المطر فحسب ، بل تشمل أيضاً الصواعق
والنيازك . ولما كانت هذه تقوم شاهداً على القوة أو المانا ، التي يتمتع بها
الإله السماوي ، فقد كانت تحمل اسمه في بعض الأحيان ، فإننا نسمع من حين
لآخر عن عقيدة زيوس كابوتاس Zeus Kappotas أي زيوس الهابط ،

وذلك على سبيل المثال ، بالقرب من جوثيون Gythion ، ميناء اسبرطة .
كان الشيء المعبود هو قطعة من الحجر ، ولعله كان معلوماً أو من المعتقد زماناً ما
أنه حجر نيزكي ، رغم أن أبناء الأزممة المتأخرة لم يعودوا يذكرون بالضبط
السبب الذي من أجله يحاط بكل هذا التقديس . وإذا كان لزيوس أن ينزل في
صورة حجر أو شؤبوب من المطر ، فلا غرابة في أنه قد ينزل أيضاً في هيئة جسمانية
أو قد ينزل متخفياً ، والأساطير التي تروى عن قيامه بمثل ذلك من أجل شتى
المقاصد والأغراض ، لا تقع تحت حصر ، ويؤكد لنا عدد كبير من القصص وغير
قليل من الألقاب أنه كان مهتماً بسلوك الآدميين الذين كان يرقبهم من داره العالية .
وعلى ذلك فقد كان من صفاته : أكسينيوس Xenios أي إله الغريب ،
وقرى الغرباء فرض واجب . يقول هومر : تتجول الآلهة بين البلدان في هيئة
الغرباء القادمين من أقطار أجنبية ، متخذة في ذلك مختلف الأشكال ، ترقب جشع
الناس وتعاين معاملاتهم المشروعة ، وتحدثنا الأساطير في أحيان ليست بالنادرة ،
كيف أن زيوس نفسه قام بهذا العمل ذاته ، مجازياً أو معاقباً حسبما يقضى الحال ،
من قاموا بواجبهم نحو السائل المزعوم فقدموا له الطعام والمأوى أو من أعرضوا
عنه . كما أن ثمة رحلات أخرى كان يقوم بها إلى الأرض ، لأغراض غرامية ،
كلما استهوته هذه المرأة أو تلك . ومثل هذه الأسطورة وعدة أساطير أخرى غيرها ،
ليست سوى أقنعة رقيقة ، تختفي وراءها الأسطورة القديمة التي تبين كيف اقترن
الآب السماء بالأرض الأم ، ولكن بغض النظر عن ذلك ، فإن سلوكه يشبه إلى
حد بعيد سلوك النبلاء الآخايين الذين تحدثنا عن علاقاتهم الجذسية فيما سبق . ويجدر
بنا أن نتناول في موضع آخر التعليقات التي أثارها هذه القصص خلال ما أتى
من عصور تفوق هذا العصر سفسطة وبعداً عن الفطرة . ولم يكن في هذه القصص
كما كان يبدو لرواتها الأوائل ، مساس على الإطلاق بمقام الإله أو بسمعة الذسوة
اللاتي اختصن على هذا النحو بعطفه . وثمة جانب آخر ، وجانب بالغ الأهمية
أيضاً ، لهذا المعبود العظيم ، ألا وهو الاعتراف به منذ زمن بعيد بأنه رئيس
الآلهة ، وأن قوته تفوق قوة سائر الآلهة مجتمعة ، وهكذا اتخذت الخطوة الأولى
في سبيل التوحيد . أما عن الاستنتاجات الفلسفية التي توصل إليها المفكرون

المتأخرون ، فستناولها بالبحث عندما نأتى إلى الحديث عن الديانة الشخصية ، بيد أن زيوس كان في نظر الكثيرين ، من هومر قصاعدا ؛ « أبا » (بمعنى الحاكم الطبيعي ، ولا تعنى هذه اللفظة بالضرورة العلاقة الجسمانية) لكل الناس والآلهة .

وكان زيوس أحد أشقاء ثلاثه ، ثانيهم هو بوسيدون Poseidon ، وقد ثبت أنه أقل قدرة من شقيقه الأكبر على النمو الخلقى واكتساب المحامد والفضائل ، ولكنه رغم ذلك يمثل شخصية جليلة مهيبة . أما عن أصله اليونانى ، فتلك مسألة لم تستقر الآراء حولها على وجه بات ، بالنظر إلى أننا لسنا على قدر ثابت من اشتقاق اسمه اللغوى ، ولكن الأرجح أنه يونانى . فلو كان الأمر كذلك لاستحال إلى حد بعيد القول بأنه كان في الأصل إله البحر ، مثلما يظهر في الأساطير الشائعة عنه وفي جانب كبير من عبادته في العصر الكلاسيكى القديم ، لأن أيا من الأصقاع التى انحدر عنها الآخايون لم تكن مناطق ذات سواحل بحرية . ومن ثم فن المحال أن يكون بوسيدون سيد عنصر من عناصر الطبيعة ، لا يعلم عنه عبده شيئا . والأرجح أنه كان إله المياه بوجه عام ، متمثلة في الأنهار والينابيع ، وأخيراً وليس آخراً ، المياه الجوفية سواء التى تجرى بالفعل أو التى كان يتوهم وجودها ، ذلك لأنه كان إله الزلازل ، ولعله كان يعتقد في العصور القديمة أن هذه إنما تنشأ عن حركة المياه الجوفية في موضع ما بباطن الأرض ، ولو أن هذه ليست العلة الوحيدة التى نسبها خيال العامة إلى الزلازل .

وعلى ذلك فإن بوسيدون ، بالنظر إلى كونه إله المياه ، يدخل ، شأنه شأن زيوس ، في علاقات مع « الأرض » التى لا يمكنها أن تثمر ما دامت جافة . ومن هنا يتضح المغزى الحقيقى لواحد من أقدم ألقابه وهو « جيا أوخوس » ، Gaiòchos ، أى حامل أو معانق الأرض ، أو بعبارة أخرى زوج « إلهة الأرض » . ولا يغفط من هذه الحقيقة أو يناقضها ، أنه وفق ما جاء في الأساطير ، لم يكن زوجها بل حفيدها ، فإن مثل هذه الأنساب ، وهى المحاولات الأولى لضم شتات التقاليد في نظام موحد ، إنما هى أمور لا قرار لها ، بل هى على أحسن الفروض أدنى إلى الزيف والبطلان . وكان بوسيدون ، لسبب لم يعد في مقدورنا إدراكه ، إله الخيل أيضا ،

بل كان يظهر هو نفسه في هيئة حصان ، كما يقال عادة إنه كان صانع أول حصان وقعت عليه الأبصار خارجا من الأرض كما كان ينسب إليه في بعض الأحيان أبوة كائنات لها هيئة الحصان بكاملها أو في بعض أجزائها . ولكنه ، عندما عرف أتباع بوسيدون البحر ، أصبح ذلك هو النطاق الرئيسى لنفوذه وما لبثت معبودات البحر القديمة ، التى لا بد أنها كانت موجودة هناك قبل حلول الآخايين ، أن أخلت له مكانها تماما على نحو أو آخر . فواحدة من هذه المعبودات ، وتدعى أمفيتريت Amphitrite باتت تقوم بدور الزوجة المغمووة للإله العظيم . وثمة معبود آخر هو نيريوس Nereus استطاع أن يحتفظ لنفسه ، على الرغم من أنه قد أصبح هو نفسه مغمورا خامل الذكر بمكان بين معتقدات العامة ، بالنظر إلى أنه كان أبا لحوريات البحر التقليدية المعروفة باسم نيرايديس Nereides (بمعنى بنات نيريوس) ، وما زال الاعتقاد بها قائما في أنحاء الريف اليونانى ، ولو أن اسمهن قد حور في الوقت الحاضر إلى نيريغديس Neraïdhes ، كما لم يعد نشاطهن قاصرا على البحر وحده . وقد بقى بوسيدون ، مثله في ذلك كمثل مملكته ، فظ الطباع مقيتها ، عرضة لسورات غضب جامح ، كما أن أبناءه الآدميين ، إذ كانت له مثل زيوس خليلاته من البشر ، كانوا أهل قسوة وظلم على الدوام . وكان بوسيدون ، كما هو منتظر من شعب جواب للبحار ؛ وتبلغ شواطئ بلاده حداً هائلا من الطول بالقياس إلى المساحة السكينة للبلاد ، يتلقى الشيء الكثير من شعائر العبادة ، إلا أن ما كان ينتزعه من النفوس أقرب إلى الإكبار والإجلال منه إلى الحب .

أما عن الشقيق الثالث ، هاديس ، فلا حاجة بنا إلى أن نستفيض في الحديث عنه . فقد رأينا فيما سبق أن الأحياء لم يكونوا يقيمون له شعائر العبادة ، أما الطقس الهام الوحيد الذى كانت له به صلة ، وهو الأسرار الإليوسية ، فسوف نتناوله بالبحث في موضع آخر .

ولعل أصدق مثل للآلهة اليونانية ، وهو أبولون Apollo لم يكن في البدء إله يونانيا . وتختلف الآراء حول الموضوع الذى عثر فيه الآخايون عليه ، فإن ثمة

أموراً كثيرة عن عقيدته وأساطيره تشير إلى الشرق الأدنى في حين أن أموراً أخرى تشير إلى منطقة شمالية. ولكن بغض النظر عن منبته، فقد تأقلم تأقلاً تاماً بموطنه الجديد، قبل تاريخ أقدم الوثائق التي آلت إلينا. أما عن نسبه فيوناني قلباً وقالبا، شأن أنساب جميع الآلهة المجتلبة من الخارج فإنه ابن زيوس من ليتو Leto التيتانية، وهي أحد نماذج الجنس القديم من الآلهة، الذي سبق آلهة أوليمب وأرتميس هي شقيقته التوأم. أما عما دعا إلى أن تقوم بين هذين الأخيرين اللذين ينتسبان إلى أصلين مختلفين جد الاختلاف، مثل هذه الصلة الوثيقة على الإطلاق، فذلك مالا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى، ولعله كان للحقيقتين المائلتين في أن كليهما كان يحمل قوساً وأن كلا منهما كان مرتبطاً بحيوان الغاب، أثر في ذلك. ويدون أبولون كان في أقدم صورته، إلها للرعاة، ومن هنا جاء اسمه «نوميوس» Nomios (إله المراعى).

وكان من دأب آلهة اليونان، كما هو الحال مع آلهة معظم الأمم، أن تتشبه بعبادها، والحقيقة أنه لم يكن من النادر أن يحمل المعبود اليوناني ألقاباً تدل في الواقع على حال من وجدونه. وهكذا يظهر زيوس في بعض الأحيان على أنه «هيكيتيس» Hiketes بمعنى «الضارع»، لأن من يضطرهم الأمر إلى التماس العون من شخص آخر، سواء كانوا غرباء أو ضيوفاً، إنما يخضعون لحمايته، وإبداؤهم يعد جرماً في حقه. وكانت عبادة هيرا تقوم على أساس كونها «عذراء» و«زوجة»، و«أرملة»، إذ أنها كانت إلهة للفساد، وجميع النسوة يندرجن تحت فئة من تلك الفئات الثلاث. ومن ثم كان على «أبولون إله المراعى»، أن يسلك سلوك راعي الماشية الأدنى. وإن ذلك لينسمر على الفور علة حمله القوس، ذلك لأن الراعى في العصر الحديث، الذي يعمل في أرض موحشة وعرة يحمل سلاحاً نارياً ليدفع به الحيوانات الضارية أو لصوص الماشية. كما أن في ذلك ما يعزل اهتمامه بالطب، فرعى الماشية في المراعى الجبلية عمل يتسم بالوحدة والعزلة. وينبغي على من يشتغلون به أن يلبوا ولو بقدر محدود، بطريقة علاج الأمراض التي تصيبهم أو تصيب ماشيتهم. ويتضح من ذلك تماماً السبب في كونه ربا

للذئاب (Lykeios) لأن الذئاب التي انقرضت في الوقت الحاضر في كل من شبه جزيرة البلقان وما جاورها، كانت تمثل آنذاك الخطر الرئيسي الذي يهدد الماشية سواء الصغيرة منها أو الكبيرة. وقد يعيننا ذلك على تفسير اهتمامه بالموسيقى، على الرغم من أن آتاه الموسيقية المختارة كانت القيثارة، وأن راعى الغنم أو الماشية اليوناني لم يكن يحمل أية آلة وترية بل كان يحمل مزماراً. بيد أننا لا نعلم من أين جاءت قدرته على التنبؤ، كما يتعذر علينا أن نقتنع عليه وخبرته بكل شئون التطهير حتى أصلها الأول. ومع ذلك فإنه من الحقائق المعروفة أن أشهر مهابط الوحي اليونانية قاطبة، وهو ذلك الذي يقع في دلفوى، كان ينسب إلى أبولون خلال العصور التاريخية، على الرغم من أن أسطورة المعبد التي تؤكد لها بعض القرائن الأثرية، تنهى إلينا أن هذا المعبد كان قبل مقدمه هيكلًا لإلهة الأرض (Ge Themis) رغم أنه كان قد اكتسب فعلاً صفة العرافة. وعلى النقيض مما كان يفعله معظم من كانوا يدلون بنبوءات يونانية، فلم يكن أبولون يبحث بأحلام منندرة إلى من يسألونه المشورة، أو يستخدم الوسائل الآلية مثل ضرب القرعة. أو يلجأ حتى إلى الفأل ذاته، بل كان يوحى مباشرة إلى نبته وهي «البوثيا» Pythia (نسبة إلى پوثو Pytho وهو الاسم القديم لمدينة دلفوس) بالإجابة عن السؤال المطروح. فتتطق وهي في حالة غيبوبة بكلمات قد لا تحمل أى معنى على الإطلاق بالنسبة للسائل، الذي يتسلم بعد ذلك من أحد كهنة المعبد رداً مكتوباً في الوزن السداسى عادة، يمثل الترجمة الرسمية لما قائلته. ولا شك في أن الغش والخديعة كانا يتطرقان في بعض الأحيان إلى إنشاء هذه الكتابات، غير أنه ليس هناك أدنى سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن أيًا من هؤلاء البيثيات لم تكن غير امرأة «وسيلة»، أو «روحانية»، كانت تعتقد دون شك تمام الاعتقاد بأن الإله قد حل بها وأنه تكلم من خلال شفيتها اللاواعيتين، مثلما يحدث «لوسيط» في جلسة روحانية حديثة. وكانت الصورة التي ترسم في الأذهان لشخص الإله أبولون هي أنه شاب وسيم رشيق، أما عن مزاجه فهو عطوف كريم، وإن كان غضبه عند

الإساءة إليه أمر لا يستهان به . ولما كان هو صاحب الخطوة لدى أييه الإله زيوس ، فقد كان يدلى بنبوءات صادقة لأنه كان يعلم مشيئة أييه ومقاصده .

وقد ظهرت هناك إبان القرن الخامس قبل الميلاد ، لأسباب خافية علينا ، نظرية فلسفية تنادى بأن أبولون تشخيص للشمس ولقيت هذه النظرية ذيوفا كبيرا ، الأمر الذى يستدل عليه ، على سبيل المثال ، من الآيات الكثيرة التى يتضمنها الشعر اللاتينى والشعر الحديث والتى تزعم أن فـوـيـبـوس Phoebus (وفويبوس Phoibos أى الساطع ، أو الطاهر ، من ألقاب أبولون) قد أشرق أو مال للغيب ، وهى تعنى بذلك أن الشمس هى التى تشرق أو تغرب . ولعله كان من نتيجة ذلك ، أن ظن الكثيرون أن أرتميس هى القمر .

أما عن آريس Ares فقد سبق أن عرضنا له فى موضع آخر . وقد كان الأقدمون ينظرون إليه بوجه عام باعتباره وثيق الصلة بتراقيا ، وكان سكانها الذين كانوا أكثر تخلفا من بقية سكان بلاد اليونان ، ينقسمون إلى عدد من القبائل الهمجية النائرة ، التى يناصب بعضها البعض العداء على الدوام . ولا يبعد أن كان آريس فى الأصل إلها تراقيا ، رغم أنه زود بنسب يربطه بالآلهة الأوليمبية ، ففيل إنه ابن زيوس وهيرا . ولم يرق الحال به قط إلى ما يزيد على كونه مجرد سفاح علوى ، لاصلة له بأية مبادئ خلقية ، كالتى باتت تنسب إلى الكثيرين من ذوى قرباه المزعومين ، وبخاصة زيوس وأثينا وأبولون وبالنظر إلى أنه لم يكن بالإله المحبوب لدى الجماهير ، ذلك لأن اليونانيين رغم أحقادهم المتصلة لم يكونوا يرغبون فى الحرب قط ، فقد كان أوفر حظا فيما كان ينعت به فى الأدب من صفات غير حميدة من أى معبود آخر . وعلماء الدين إذ يضعونه فى مرتبة الإله مارس الإيطالى ، إنما يمنحونه أكثر مما يستحق ، لأن مارس يتجاوز إلى حد بعيد مجرد كونه إلها للحرب .

وما لاشك فيه أن هينايستوس كان إلها أجنبيا ، الأمر الذى يستدل عليه ، إن لم يكن ثمة دليل آخر ، من مواقع مراكز عبادته ، لأن هذه قد بدأت فى

الانتشار من آسيا الصغرى . ولعله ظهر أول ما ظهر فى صورة إله للنيران البركانية ، وأنه قدم من تلك المنطقة التى يسميها اليونانيون المنطقة المحترقة ، من آسيا ، والتى تظهر بها دلائل ، لا بد أنها كانت تبدو أشد وضوحا فيما مضى ، على نشاط بركانى سابق . ويقترب اسم هيفايستوس بجزيرة لينوس Lemnos التى كانت تظهر بها أيضاً دلائل على طبيعتها البركانية ، أو أن ذلك على أقل تقدير هو ما ظنه القدماء عنها . بيد أنه عندما حل بالأجزاء ذات التقدم الملحوظ من بلاد اليونان ، أى تلك التى قطعت شوطا بعيدا نسبيا فى مضمار التصنيع ، مثل أتيكا ، فإنه أصبح ربا لأصحاب الحرف الذين يستخدمون النار فى صناعاتهم . وحين تقدم صوب العرب ، مع ركب الحضارة اليونانية حين سعت إلى إيجاد منفذ للفائض من سكانها فى إيطاليا وصقلية ، عاد إلى الارتباط من جديد بعنصره القديم ، إذ كان من بين الأقوال الشائعة فى تعطيل النشاط البركانى لجبل إتنا هو أن هيفايستوس إنما يقيم كورا للحدادة فى مكان ما أسفل هذا الجبل . وإذا كان كما تروى الأساطير ، لبنا لهيرا بلا أب ، فقد ظل عربيا بعض الشيء عن دائرة الآلهة الأوليمبية ، بحيث كان أقرب إلى معبود هربى .

وفى زمن غابر يرقى إلى أوديسية هومر (ولعل ذلك كان من قبيل الإضافات التى أقحمتها على الملحمة يد مجهول فى زمن مبكر أيضاً) يظهر هيفايستوس بطلا لقصة هزلية تروى كيف أن زوجته أفروديتي خافته مع آريس وكيف انتقم لنفسه من العاشقين انتقاما أريبا . ولعل فى إمكاننا أن نفترض سببا لذلك . إذ ينظر إلى الآلهة اليونانية ، كقاعدة عامة ، على أن لها من الجمال والبهاء قسطا لا يتأتى للبشر ، بيد أن هيفايستوس مصاب بالعرج ، ولعله يشبه فى هذا الصدد الحدادين من البشر فى المجتمعات الصغيرة ، حيث يجد الرجل الذى لا يستطيع أن يسير مسافات بعيدة ، والذى يتمتع فى غير ذلك من النواحي بصحة جيدة أن من المحتم عليه أن يثبت نفعه للمجتمع بإصلاحه الأدوات والأسلحة وصنعها لسائر أفرادها . وعلى ذلك فإنه يبدو على شيء من غرابة الخلقة وقبح الشكل . ويمكننا القول بالإضافة إلى ذلك إن طابعه الأجنبى الدخيل يبدو أشد وضوحا ، رغم شجرة نسبه المزيفة ، مما يبدو

بالنسبة لساير الآلهة غير اليونانية الآخرين ، لأنه عندما حل الآخايون ببلاد اليونان ، عثروا بها على صناعات يفوقون صناعاتهم مهارة وحذاً . ولذلك فقد شملت معتقداتهم ، إلى جانب هيفيا يستوس حدادين علويين آخرين ، مثل اليكخينيس Telchines الذين اشتهروا بمهارتهم البالغة وإن عرفوا بحب طوبيتهم ونزوعهم إلى السحر الويل .

وعلى أية حال ، فلم يكن لدى العامل في صناعة المعادن متسع من الوقت للاهتمام بما كان يشغل النبلاء اليونانيين بوجه خاص ، ولقد كانت التقاليد اليونانية تقاليد أرستقراطية رغم ما قد تبلغه سياساتهم من نزعة ديمقراطية أو اشتراكية . ولا غرو وهو مشغول في مسبكه أو مصنعه ، لا يشتغل بالصيد أو الزراعة أو القتال أو يحرز بطولات رياضية مثل العدو والقفز ، أن يعبد إلها على شيء من الغرابة ، وليس إلها عاديا أو ليمبيا مثل أبولون .

ومن بين الآلهة الأجنبية البالغة الأهمية ، إله وفد في زمن متأخر نسبيا هو الإله ديونيوسوس . ومن الممكن أن نعود بأصل هذا الإله إلى فريجيا ، حيث يدعى ديونسيس Diounsus ، يكن أن ترجع به أيضاً إلى تراقيا ، وهي قطر يرتبط من حيث سكانه ولغته بشعب فريجيا واللسان الذي يتكلمون به ، حيث ازدهرت طقوس هذا الإله كما ازدهرت في بلاد مقدونيا المجاورة . وتقدم لنا فريجيا أيضاً اسمين يمثلان فيما يبدو زوجين إلهيين ، وهما ديوس Dios وزيميلو Zemelo ولعلهما «السماء» و«الأرض» وهما دون أدنى ريب الأصل الذي نشأ عنه والدا ديونيوسوس في الأساطير اليونانية ، وهما زيوس وسيميلي Semele ، هذا على الرغم من أن الإلهة الأخيرة تتحول في هذه الأساطير إلى امرأة آدمية ، وتنسب أبوتها إلى كادموس Kadmos مؤسس طيبة الأسطوري . ولما كان ديونيوسوس إلها لقوى الطبيعة ، فقد تميزت طقوسه في بلاده الأصلية بسمات تعد غريبة على العقيدة اليونانية الوقورة القديمة . فقد كان أتباعه وبخاصة النساء يعبدنه في البراري والأماكن الخلوية بإقامة حلقات الرقص الصاخبة الجارحة ، وإطلاق الصرخات الحادة العالية وتمزيق أنواع معينة من الدواب وبخاصة الثيران والماعز التي تعتبر وثيقة الصلة به وتعد

في أغلب الأحيان تجسدت له ، ثم التهام لحما نيشا . ويبدو أن الهدف من هذا كله هو استدراج حالة من الجذب انروحي تختفي فيها الشخصية الآدمية ويصبح العابد في أثنائها رجلاً كان أو امرأة ، واحداً مع إلهه أو إلهتها ، ومن هنا شاع إلى أقصى حد استخدام ألقاب ديوسوس للدلالة على من حققوا هذه الوحدة الخفية معه ، فبالنظر إلى أنه كان يلقب في أكثر الأحيان بياكحوس Bakchos فقد كان هؤلاء يدعون الباكحيين أو الباكحيان بحسب جنسهم .

وعلى حين أن مبلغ علم هومر بديونيوسوس لم يكن يتعدى ما يرويه من خبره فإن عقيدة هذا الإله كانت قد عرفت طريقها إلى بلاد اليونان واستقر بها المقام هناك قرابة القرن السابع ق . م رغم أن بعض سماتها البينة البربرية تحولت هناك إلى مجرد محاكاة شكلية للطقوس الأصلية . ومع ذلك فإن بعض هذه الطقوس احتفظ بقدر كاف من مظاهر الذشوة والطرب ، فقد تضمنت في دلفوى ، حيث لقي هذا الإله الجديد ترحيباً حاراً وخصص له ثلاثة أشهر من كل عام لإقامة المهرجانات الصاخبة بالليل فوق قمم جبل باوناسوس على ضوء المشاعل . وثمة تطور طفيف طرأ على الإله ديونيوسوس مؤداه أنه بالنظر إلى أن آلهة أخرى لخصب الطبيعة كانت معروفة تماماً من قبله ، فإنه جنح إلى التخصص في ناحية بعينها ، وإن بدا ذلك واضحاً في مجال الفن والأدب عنه في الطقوس الدينية ، بحيث صار إلهاً للخمر . وإلى جانب أتباعه من بنى البشر ، التفت حوله أيضاً طائفة من القوى التي تقل عنه مرتبة والتي تختص بالريف والبراري .

وتضمنت هذه الطائفة فريق الآلهة الساتورية Satyrs والسيلينية Seilenoi وهما تجسمات مصغرة لفكرة الخصب ، يظهر فيها الفريق الأول في صورة أقزام من الذكور الشهوانيين الغربي الخلفة الذين تتدلى منهم ذبول خيل ، والحوريات Nymphoi ويمثلن إناثا يسكن أو ينفضن الروح في الأشجار والجبال ومجاري المياه وغير هذه من مظاهر الطبيعة . والكلمة اليونانية numphe تعني (العروس) أو (المرأة الشابة الصالحة للزواج) ، وتصور الحوريات في الغالب في صورة العاشقات ، كما يتميزن على الدوام ، شأن الأشياء المادية المرتبطة بهن بطول الأجل

وإن لم تكن لهم صفة الخلود . وعلاوة على ذلك فقد اكتسح القادم الجديد في زحفه المظفر كل أنواع الآلهة المحلية الصغرى ، بحيث تحولت هذه في معتقدات العامة وحكاياتهم إلى آدميين ممن اختصهم ديونيسوس برعاية أو بشيء من هذا القبيل . وبمضى الزمن تحولت الأنشودة المميزة للمعبود الجديد ، وهي التي تسمى بالديثيرامب dithyramb إلى طراز أدبي معروف ، بعد أن صاغها الموسيقي الكورنثي آريون Arion في شكلها التقليدي الثابت ، ولسوف نرى فيما بعد التطورات الهامة التي اتخذتها عبادة هذا الإله في أثينا ، والتي تقف على النقيض تماماً من طقوس العبادة التراقية الهمجية .

وثمة معبود آخر ، هو هرميس Hermes كان يحظى بشعبية كبيرة ، وإن لم يقترب بحال من ديونيسوس في أهميته وخطره . وعلى قدر ما يمكننا تتبعه من تاريخ هرميس ، يتبين لنا أنه أركادى ويوناني قح . ويرتبط اسمه حسبما تقول أرجح النظريات ، بلفظة هيرما herma ، ومعناها كومة الحجارة . ولأنه لمن العادات البالغة الشيوع في الوقت الحاضر أن تميز أية نقطة يظن أنها معمورة بالجن أو أنها مخوفة ، على أية صورة من الصور ، بإقامة كومة من الحجارة عليها . وكثيراً ما تقوم هذه المواضع على طول الطرق والممرات ، ومن البدهى إلى أقصى حد أن يكون رب كومة الحجارة ، من الأرباب المألوفة لدى الرحالة والمسافرين ولو صح ذلك ، لكان من الميسور إلى حد بعيد تفسير معظم الخصائص المتعلقة بهرميس . ومن الطبيعي ، وهو الذي يعمر الطرق ، أن يوجه اهتمامه إلى تصرفات من يستخدمونها سواء لأغراض شريفة أو لأغراض دنيئة . وكان أرفع المسافرين شأنًا وأعلام قدرًا ، الرسل kerykes باليونانية ، وهم الذين يبعثون في مهام رسمية بين جماعة وأخرى ، وينظر إليهم على الإطلاق على أنهم مقدسون ذوو حصانة لا يحل قتلهم حتى زمن الحرب . وكان راعي هؤلاء هو هرميس ، ولو أنه لم يكن نصيرهم الوحيد ، ففي اسبرطة إن لم يكن في غيرها من البلاد ، راح تالثيوبوس Talthybios رسول أجائون عند هومر ، يواصل ، من جدته اهتمامه بزملائه الشبان وكان يعرب من وقت لآخر عن غضبه عندما تذلل حرمته واحد منهم .

وكان هرميس ، بصفته رسولا ربانيا ، يقضى للآلهة مختلف المهام التي يطلبون إليه القيام بها ، بما في ذلك الرحلة إلى العالم السفلي ومن ثم فهو رفيق أرواح الموتى ، ويحمل في ذلك لقب بسوخوبومبوس Psychopompos (مرشد الأرواح) غير أن المنتفعين بالطرقات ليسوا هم معشر الرسل وحدهم ، بل إن التجار يقطعونها لجلب السلع الأجنبية (أما السفر طلباً للثروة فقد كان لا يزال في أطوار الغيب وقت أن ظهرت عقيدة هرميس) ومن ثم فإن هرميس هو ولي التجار كذلك وجالب الحظ السعيد في التجارة وفي غيرها . أما من هم دون التجار شرفاً ، فقطاع الطرق الذين يهبونهم ، ولم يكن هرميس يلقى بالاً للاعتبارات الأخلاقية ، ومن ثم فقد كان ولياً للصوص أيضاً . حيث يظهر في صورة اللص العريق الذي بدأ حياته العملية في اليوم الأول من مولده ، بأن عمد إلى سرقة قطع أخيه غير الشقيق أبولون أما كيف أصبح هرميس حارساً إلهياً للملاعب الرياضية المعروفة باسم الجيمينازيا ، ومدارس المصارعة ، وإلهاً للبلاغة كذلك ، فهو ما لا نجد له تعليلاً واضحاً كل الوضوح ، ولعل مرد الصفة الأولى أنه كان يحمل في الأذهان صورة الشاب الفتى ، كما قد ترجع صفته الثانية إلى حاجة الرسول إلى قسط وافر من البلاغة يمكنه من أن يدلي برسالته على نحو واضح مقنع . وأصبح هرميس ، بكل صلاحياته هذه ، وثيق الصلة بالإنسان ، وكان ينظر إليه عامة باعتباره إلهاً كريماً صدوقاً ، وجالباً الخير للناس كافة ، ومن ثم جالبا لوجه من أوجه الخير ، هم أعظم ما يكونون تلهفاً عليه ألا وهو الخصب . وعلى أية حال فقد كان عضو التذكير من أشد رموزه شيوعاً ، وقد نقشت صورته على تماثيل هرميس المعروفة باسم الهرميات كما سبق أن ذكرنا . وكما هي العادة ، فقد كان ينتسب إلى الآلهة الأولمبية ، إذ أنه ابن زيوس من مايا Maia ابنة الإله أطلس التيتاني الذي يقف ، على هيئة جبل ، حاملاً السماء . وقد اعتبرت هذه واحدة من البليديات Pleiades .

وقد تقام شعائر العبادة لأى من هذه المعبودات أو لغيرها من المعبودات التي لا تصل إلى مثل شهرتها ، مستقلة عن بعضها البعض أو في مجموعات صغيرة ،

و مقرونة بواحد أو أكثر من الأبطال . وبلغت بعض هذه المجموعات من الذبوع والشهرة أن بات من غير الضروري ذكر أسماء الآلهة المؤلفة لها ، وهكذا فإنه إذا ما أقسم أحد الأسبرطيين « بالإلهين » ، علم الجميع أنه يقصد كاستور *Kastor* وبوليدركيس *Polydeukes* ، اللذين يسميان عادة باسم « الديوسكوروى » ، *Dioskuroi* بمعنى ولدى زيوس . وواحد منهما إن لم يكن كليهما من صلب زيوس أما والدتهما فهي ليدا *Leda* زوج تونداريوس *Tyndareos* ، ملك اسبرطة في الأزمنة الأسطورية ، وتختلف الروايات حول ما إذا كان أحدهما أو كلاهما يحملان صفة الخلود أو أنهما كانا مجردين من ذلك تماما ، ولو أنه من المؤكد أنهما كانا مخلصين في نظر اسبرطة في عصورها التاريخية . ولانعدم أن نجد في بلاد اليونان الأمثلة على أزواج الآلهة التوائم ، وإن كان الغالب أن هذه كانت تتألف من أبطال وليس من آلهة . وثمة مجموعات أخرى كانت تتخذ لأغراض رسمية معينة كما في صمغ القسم الرسمية ؛ وقد كانت المعبودات المعهودة في أثينا ، وفق ما كانت تقضى به إحدى السنن التي تنسب إلى المشرع القديم دراكون ، هي زيوس وبوسيدون ثم أثينا أو ديمتير . وكان البعض يفضلون قوائم أشد طولاً من هذه ، فقد يقسم باثنى عشر إلهاً أو ما ينوف على ذلك ، إذا ما كان لليمين أهمية خاصة وإذا ما كان يؤديه — نيابة عن دولة بعينها مفوضوها الرسميون ، عند إبرام إحدى المعاهدات . وكان الأطباء ، عندما يؤدون قسم أبقراط الشهير ، يقسمون بآلهة صناعتهم وهم أبولون وأسكليبيوس وعائلته . وفي أنواع الإيمان العارضة الدائرة على الألسن والتي تكاد تعتبر أيماناً حقيقية ، كان الذكور يميلون إلى القسم بالآلهة ، أما الإناث فيقسمن بالإلهات . غير أن أضخم مجموعة من المعبودات وأدومها كانت تلك المجموعة المعروفة باسم « الآلهة الاثنى عشر » ، الذين كانوا يعبدون سويّاً في أغلب الأحيان . وهؤلاء هم زيوس وبوسيدون وأبولو وآريس وهيفايستون وهيرميس ، ثم هيرا وأثينا وأرتميس وأفروديتي وديمتر وهستيا . وإذا كان الأمر قد ذهب إلى أن أصبح من الممكن أن تشترك مجموعة من المعبودات التي تنقسم بين ذكور وإناث ويقوم بينها مثل ذلك الخلاف الكبير

من حيث الأصل والنشأة في الطقوس ذاتها ، فلا مراء في أن عملية الإدماج بين العقائد ذات الجفسيات المختلفة والعصور المتباينة ، كانت قد تمت في ذهن السواد الأعظم من المصلين الذين لم يكونوا يأبهون في القليل بتاريخ ديانتهم ، بل كان جل اهتمامهم منصبا على المنافع العملية التي يمكن أن تعود عليهم من وراء إقامتهم لطقوسها .

خضع له من دراسات متتدة جادة خلال العصور التالية تمخض عن وفرة من المواد التفسيرية والشروح والمعاجم ، إلى غير ذلك مما آل إلينا منه جانب هائل . وتبعاً لذلك ، بات في وسعنا أن ننشئ "لائتنا" ، إن لم يكن لاية مدينة يونانية أخرى تقويماً دينياً يكاد يكون كاملاً ، وأن نقدم وصفاً مفصلاً لنسبها للجانب الأعظم من أعيادها التي نعلم أسماءها وتواريخها .

ويتحتم علينا قبل المضى في إجمال وصف هذه الأعياد ، أن نوضح كيفية حساب السنين والشهور في بلاد اليونان . فعلى حين أننا نستخدم السنة الشمسية التي اصطلح على تقسيمها إلى اثني عشر شهراً ، قد يبدأ أى منها والقمر في أى وجه من أوجهه ، فقد ظل القدماء حتى عصور تمتد إلى ما بعد عصور بلاد اليونان ، الكلاسيكية بزمان طويل ، يستخدمون الشهور القمرية التي تحسب من غرة كل شهر قرى إلى آخر . وتقدر هذه الفترة بنحو ٢٩ يوم ، ولكنه لما كان من أشد ما يدعو إلى الارتباك والهرج أن يتألف الشهر من عدد من الأيام لا يمثل بحال من الأحوال عدداً صحيحاً ، فقد أصبحت الشهور تحسب على التعاقب ٢٩ أو ٣٠ يوماً . وكانت تسمى في الحالة الأخيرة "أشهرًا كاملة" ، وفي الحالة الأولى "أشهرًا ناقصة" . واثنا عشر من هذه الأشهر تكون ٣٥٤ يوماً ، وسرعان ما تبين أن بضع سنوات من هذا النوع ، تؤدي إلى اختلاف التقاويم عن الفصول ، بحيث تبدأ أشهر الربيع مثلاً قبل حلول فصل الربيع بفترة من الزمن . وكان ذلك يسوى بطريقة عرجاء لا تنم عن مهارة كبيرة ، وهي كبس السنة بالأشهر ، أى السماح بحلول الشهر الواحد مرتين خلال العام .

وعلى ذلك فإنه في نهاية دورة معينة من السنين ، تقدر غالباً بثماني سنوات ، تكون الأشهر الزائدة قد أطالت السنوات بالقدر الذي يكفل للدورة التالية أن تبدأ في موعدها الصحيح على وجه التقريب ، ولكن أية سنة بعينها كانت إما أطول وإما أقصر مما ينبغي ، بحيث كانت تتعارض في كثير أو قليل مع مايجرى في الطبيعة .

الفصل الرابع

حماة المدينة

إلى هذا الحد كان يعنينا أساساً العابد الفرد أو المجتمع الريفي الصغير . غير أن أبرز تطورات ديانة اليونان ، كما هو حال حضارتهم أيضاً بوجه عام ، قد وقعت في المدن وليس بين أرجاء الريف . فلم يكن ثمة يوناني من أبناء الفترة الكلاسيكية القديمة ، يتصور وجود مدينة خلوا من عباداتها الرسمية ، كما لا يتصور سكان اليونان الحاليون وجود مدينة خلوا من الكنائس . ولقد كان في استطاعة المدن اليونانية — هذا رغم أن أضخمها يتضامل أمام الهجوم الكبيرة التي تبدو عليها مراكننا البلدية الواسعة ، وإن كانت مع ذلك أوفر حظاً في مضمار المجد والجاه والتقدم الحضارى ، من قرى شعوب تعيش على الزراعة البحت ، أن تقيم شعائر العبادة وسط أعظم مظاهر الآلهة والجلال ، وأن تنشئ من آلهتها نغماً أشد تعقيداً ، على الرغم من أنها تخلص في النهاية إلى ما كانت تطلبه من قبل ، وهو الخلاص من العوز ومن الاندحار أمام العدو ومن البلاء . وعلاوة على ذلك ، فإن مآثر المدينة وأمجادها كانت تدعو ، بالنظر إلى أنها بطبيعتها تستهوى الأفتدة وتؤثر فيها ، إلى طقوس للذكرى والشكر تتميز بالروعة والمهابة ، وأخيراً فإن إقامة شعائر عبادة أحد الآلهة ، كان من أكثر المناسبات لإقامة المحافل الكبيرة التي لا يدعى إليها المواطنون فحسب بل والأجانب أيضاً ، وكانت هذه المحافل وسائل طيبة للدعاية لقوة الدولة ومجدها . وقد أسفر كل ذلك عن إحدى النتائج التي يقابلها المؤرخ بكل ترحاب . فمن شأن مظاهر مشهودة للورع كهذه أن تسجل في شيء من التفصيل ، وقد ترتب على ذلك أن أصبح ما نعرفه عن الحياة الدينية بالمدينة ، يفوق إلى حد كبير ما نعلمه منها عن الريف ، وبخاصة أكثر هذه المدن إفصاحاً ، وهي أثينا . والأدب الاثيني ، شأنه شأن أدب اليونانيين كافة ، يزخر بالإشارات إلى الآلهة وأعيادها ، كما أن ما أثاره من إعجاب دائم وما

وعلى ذلك فإن عيد البذر على سبيل المثال يحتفل به وفقا للتقويم الرسمي لمدينة من المدن ، قد يقع في موعد جد مبكر أو جد متأخر بصورة ملحوظة للغاية ، وكان من دأب الزراع بتجربتهم العملية ألا يأجوا المحاكات أهل المدن ، بل يحرقون ويبدرون ويحصدون وفق المواسم الحقيقية ، مهتمين في ذلك ببعض الظواهر الطبيعية مثل رؤية صور نجومية معينة على خط الأفق في الصباح وفي المساء أو عودة الطيور المهاجرة ، أو تفتح النباتات البرية ، وكان ذلك في حد ذاته كفيلا بتوسيع الشقة بين رسوم البلدان وحقائق الريف ، ومن ثم أضفى عنصراً من الزيف على الديانة الرسمية . ومما ينبغي إدراكه بصورة قاطعة ، أن وجود الآلهة والنشاط الذي تمارسه كانوا يملكان في نظر عامة اليونانيين مبلغ الحقيقة البينة الواضحة ، فلم يكن يخطر على بال أحد ، سواء في ذلك العصر أو في غيره من العصور ، كما أنه ما خطر إلا لبعض الأذهان التقدمية السازعة إلى التمهيص والنقد ، أن أبولون وديمتر وسواهما ، كانوا من نسج الخيال الشعبي وأنه لم يكن لعبادتهم أدنى تأثير على مجريات الطبيعة التي كانت ستسير على نهج ذاته دون تغيير أو تبديل ، لو أن جميع سكان الأرض كانوا من الكافرين . ففكرة التخلي عن الدين كاية لم تدخل قط في اعتبار الجهرة الكبرى لبني البشر في العصور القديمة ، كما أنه عندما تداعت الوثنية في النهاية ، حل محلها على الفور طقس جديد ؛ ولم يكن البديل لها توقف العبادة . ولا ريب في أن الفلاح حينما كان ينظر إلى السكبان الرسميين للمدينة وهم يقومون بالطقوس التقليدية التي ينبغي أن تصاحب الحصاد ، مثلاً ، والتي كانت تعتبر جزءاً مكملًا له لا يقل أهمية عن عملية جني الحنطة في حد ذاتها ، في وقت لم يزل الحب فيه جاً أو بعد أن يكون المحصول قد ضم بالفعل ، كان ذلك يقع من نفسه موقع العجب والدهشة ، بل كان يبدو له أقرب إلى الزيف والبطلان ، رغم أنه قد لا يبدو هكذا لسكان المدينة الذي لا يكسب عيشه بالحرث والبذر ، بل بالعمل في مصنع لتشكيل الزهريات مثلاً أو صنع الأدوات والأسلحة . فإن أرسطوفانيس الذي كان على الدوام مدركاً لأحاسيس العامة ، يضع على السنة جوقة المؤلف من

« السحب » في المسرحية التي تحمل هذا الاسم ، شكوى من تقويم أثينا المهوش المضطرب ، فتقول :

« يبعث القمر بهجياته إلى الأثينيين ، وحلفائهم ، ويضيف إلى ذلك أنه مستاء أشد الاستياء من المعاملة البشعة التي يلقيها في مقابل كل ماله من منافع فإنكم تأبون حساب الأيام على الوجه الصحيح ، بل تقلونها رأساً على عقب . حتى إن الآلهة غالباً ما يهددونه ويتوعدونه عندما يضطرون إلى العودة إلى ديارهم دون أن يحظوا بالوليمة التي كانوا يترقبونها في موعداها الصحيح . ففي الوقت الذي يحق عليكم فيه نحر الذبائح وتقديم القرابين ، تستجوبون الشهود وتفصلون في القضايا ، ويوم تكون نحن الآلهة صائمين تمسكون القرابين وتمرحون » .

ومع ذلك ، فقد كان التقويم الرسمي هو الإطار المسلم به للطقوس الرسمية ، وكانت الأشهر الأثينية جميعها تحمل أسماء الأعياد ، الصغيرة منها أو الكبيرة ، التي تقع خلالها وتستهل السنة ، وذلك في نحو منتصف الصيف ، بشهر الهيكاتومبايون Hekatombaion ، أو شهر « الذبيحة الكبرى » (تعني hekatombaia في اليونانية ذبح مائة رأس من الماشية كما هو مفروض) وهذه لا نعلم من أمرها شيئاً سوى أنها تقام في تكريم أبولون ، وبذلك تحل فيما يحتمل في يوم عيده وهو السابع . وأكثر من هذا طرافة ، ذلك العيد الذي يقع في اليوم الثاني عشر ، ويسمى « كرونيا » Kronia أو عيد كرونوس Kronos وهو له قديم (لا يعني اسمه شيئاً في اليونانية) جعلت منه التقاليد الشعبية أبالزيوس . ومن الواضح البين إلى حد بعيد أن ذلك كان عيد حصاد ، والحق أن الإله يظهر في فنون التصوير حاملاً أداة مقوسة لا يبعد أنها كانت في الأصل منجل حصد ، ولو أن الأسطورة تضع لذلك تفسيراً مغايراً تماماً .

وفي ذلك اليوم كان السادة يقومون على خدمة رقيقهم ، ويطعمون معهم من مائدة واحدة ، وبالتالي يقدمون جانباً من المادة الصالحة لأسطورة أخرى ، تزعم أنه خلال العهود التي كان فيها كرونوس هو الإله الأعلى ، لم تكن ثمة فوارق اجتماعية ،

بل كان الجميع على السواء يعمون بالسلام والرخاء . ولكن أبلغ من ذلك أهمية العيد الكبير الذى كان يقع فى اليوم الثامن والعشرين من شهر « هيكاتومبايون » وهو عيد « الباناثينايا » Panathenaia أو عيد جميع الآثينيين . فقد كان يقام فى ذلك اليوم من كل عام ، وهو يوم ميلاد آثينا ، احتفال تكريما لها ، وكان الاحتفال الذى يقام كل أربعة أعوام يتميز بمزيد من الآبهة والروعة ويعرف باسم عيد الباناثينايا الكبير . أما احتفالات العيد فكانت تستهل آنذاك ، فى وقت ينبغى لنا أن نسميه عشية اليوم السابع والعشرين — إذ أن اليوم فى الحساب اليونانى يبدو بغروب الشمس — بالغناء والرقص فوق تل أثينا المقدس ؛ ألاكروبوليس Akropolis ، وبسباق لحلة المشاعل فيما يحتمل . وعند الفجر يبدأ موكب ضخم فى الزحف صاعدا التل إلى معبدها ، تتقدمه حاملات السلال Kanephoroi ، وهن فتيات من أسر عريقة كن يحملن فوق رؤوسهن ما يلزم للنقوس . تليهن الضحايا المهيأة للنحر ، من الماشية والأغنام ، التى يلحق بها عدد هائل أيضا من الخدم والمباشرين للطقوس ، ثم حشد كبير من المواطنين ، من الرجالين وراكبي الجياد ، كل فى موضعه الصحيح بحسب ما تقتضى به التنظيمات التقليدية ، رافلين فى لباس العيد . ووسط هذا المشهد الباهر . يقع مزج غريب بين القديم والجديد . فقد كانت الإلهة تتلقى من شعبها الأمين كسوة جديدة ، وهو طقس من طقوس العبادة يرجع إلى تاريخ موغل فى القدم (وقد كان للإلهة « ديونى » فى دودونا عدد ضخم من الثياب) ولا يستوحى من النظرات الاستشرافية العلوية شئ أرفع من الفكرة القائلة بأن المعبود ، سواء كان يمثله نصب أو أى جسم عديم الشكل وإن كان قدسيا ، لا ينبغى أن يترك عاريا خشيعة البرد غير أن هذه الكسوة كانت تفسر كالشراع فوق سارية وقارية سفينة تجرى على عجل ، رمزا على قوة أثينا البحرية التى تمكنت فى عهدها الزاهرة من أن تدرأ عن بلاد اليونان غائلة الفرس وأن تجعل للمدينة مركزا أمبراطوريا مجيدا . وغنى عن البيان أن رداء على هذه الدرجة من القدسية لم يكن يصنع جزافا أو بأيد غير نقية . فقد كانت تقوم على حيا كته نسوة محصنات وغير محصنات من عليا الأسر الآثينية ، تساعدن فى ذلك فئاتان

تسميان « الأريفوروى » arrhephoroi كما كان يوشى بطرز غاية فى الفخامة والروعة ، تتضمن الموضوعات التى تعرضها حروب الآلهة مع التيتان والعاقبة كما تظهر فيها أثينا ذاتها وهى تخوض غمار المعارك فى جرأة واستبسال .

ولعل الشهر التالى « ميتاجيتنيون » Metageitnion يذكرنا بمدى ما نحن عليه من جهل بدقائق الديانة اليونانية . ومن الواضح أن اسمه مشتق من العيد المسمى « ميتاجيتنيا » ، الذى يدلنا أصله اللغوى على أنه يمت بصلة إلى العلاقات بين الجيران « جيتونيس » geitones . وفيما عدا الحقيقة الماثلة فى أن الذبائح كانت تقرب فى هذا العيد إلى أبولون الذى كان يحمل فى هذا المقام لقب « ميتاجيتونيوس » Metageitnios فلا نعلم من أمره شيئا حتى مجرد يوم حلوله . وخير من ذلك — نوعا ما — ما نعرفه عن عيد آخر يحل فى هذا الشهر هو عيد إليوسينيا Eleusinia . ولا علاقة بهذا العيد وأسرار إليوسيس ، رغم أنه يقام تكريما لديميتر وكورى ، كما لم يكن يحى سنويا بل كل عامين ، وكان الاحتفال الثانى فى كل مرة يتميز بأبهة خاصة ومن ثم يسمى عيد إليوسينيا الكبير . وكانت هذه الاحتفالات التى تأتى كل أربع سنوات من بين الاحتفالات اليونانية الكثيرة التى تعرض فيها الألعاب الرياضية كما كانت تعرض فى عيد باناثينايا الكبير . ولا مجال هنا للخوض فى المشاكل المتعلقة بالألعاب الرياضية اليونانية ، إلا أنه يمكن القول بوجه عام إن وقائعها لم تكن تختلف اختلافا كبيرا عما نعرفه فى الوقت الحاضر ، إلا من حيث إن ألعابنا الجماعية مثل كرة القدم أو الكريكيت لم يكن لها فى الغالب أدنى وجود ، كما لم تحظ قط بالاهتمام .

وكان أشد مظاهر الخلاف استلفاتا للنظر ، إلا فيما يختص بالعصور الأولى هو ظهور المتبارين عراة تماما ؛ فلم يلبث اليونانيون طويلا حتى خلصوا أنفسهم من دواعى الخفارة المصطنعة والحياء الكاذب فيما يتعلق بجسم الإنسان ، تلك التى تعد أثرا من آثار الخرافات الهمجية البدائية حول وظائف الجنس . وأهم من ذلك ارتباط الألعاب الرياضية بالاحتفالات الدينية . فجميع المباريات الرياضية المشهورة التى تسمى « بالألعاب الكبرى » أو « المقدسة » كانت ذات صلة

وثيقة بالاحتفالات التي تقام تكريماً للآلهة . وأعظم هذه « الدوريات » الرياضية قاطبة ، وهي « الألعاب الأولمبية » كانت تقام في عيد زيوس رباعي الدورة عد أولمبيا من أعمال إليس Elis ، أما الألعاب البوئية فتقام في دلفوى ، حيث كان الإله الذي يقصد تكريمه هو أبولون بطبيعة الحال ، و « الألعاب الاسمية » في خليج كورنثوس تكريماً لبوسيدون ، والألعاب النيمية « تكريماً لزيوس مرة أخرى بالقرب من معبده القديم في نيميا . وكان الفائز يتوج بالكليل من نبات يرتبط بالمعبودات المحلية ، ففي دلفوى مثلاً كان ذلك النبات هو الغار ، وهي الشجرة المفضلة لدى أبولون ، كما كان ينعم برضاها فيما يقال . ونشأ عن ذلك رأى خطير نوعاً ما يقول بأن الوقائع الحقيقية لهذه الألعاب كانت تمثل طقوساً دينية ، بيد أنه يتضح بمؤالة البحث والتقصي أن الأمر على خلاف ذلك . ولعل هؤلاء المتبارين كانوا من بعض الوجوه بمثابة ضيوف للإله تظلم حمايته دون شك ، وينعم هو كما كان الاعتقاد أغلب الظن ، بما يقومون به من عرض لقوتهم ومهارتهم ، بيد أن مبارياتهم لا تعدو في حد ذاتها أن تكون ألعاباً عادية للغاية ، لا يخرج عن مألوف اللهو والتسلية لدى حشد من اليونانيين ، الذين عرفوا بولعهم الشديد بالرياضة ، حين يجتمعون في يوم عطلة . ويصدق هذا أيضاً على الاحتفالات الآثينية ، غير أن اهتمام الإله الذي ينسب إليه الاحتفال كان يظهر في طبيعة الجوائز المقدمة . ففي احتفال « الباناثينايا » كانت هذه عبارة عن جرار من الزيت المستخرج من الزيتون المقدس الذي يكثر في أتيكا ، كما تحمل الجرار ذاتها التي آل إلينا عدد منها صوراً للإلهة أثينا . وفي إليوسيس كانت الجائزة شعيراً من سهل راريا وهي بقعة وثيقة الصلة بديمتر وهديتها إلى البشرية من الحب الذي يصنع منه الخبز .

والشهر التالي هو شهر بويدروميون Boedromion الذي يقع فيه « عيد الأعوان » Boedromia ، ويرتبط هذا بدوره بأبولون ويحل في يومه المقدس أي في اليوم السابع . غير أن ما هو أخطر من ذلك وأجل ، بل ما هو أهم من الاحتفالات التي تقام في مواعيد متفرقة من هذا الشهر ، لإحياء لذكرى انتصارات

« بالاثايا » و « ماراثون » ، كان ذلك الطقس الشهير من طقوس بلاد اليونان القديمة ، والطقس الذي حظى بأوسع دراسة وأعمقها ، وهو « الأسرار الإليوسية » التي كانت تستغرق بمقدماتها المدة من الخامس عشر إلى الثاني والعشرين . وقبل أن نعرض لهذه الأسرار بالشرح والتحليل ، يحسن بنا التخلّص من طائفة من الأفكار الخاطئة . فلم يحدث أن علمت هذه الأسرار بل لم يكن في وسعها أن تعلم بعقيدة سرية لا يجوز الكشف عنها لغير المؤمنين فلا يقتصر الأمر على أن الديانة اليونانية ، كما سبق أن رأينا ، لم يكن لها عقائد ومذاهب أو علم لاهوتي بالمعنى الذي نفهمه ، بل إن التلميحات العديدة إلى ما كان يجري في قاعة التكريس (Telesterion) في إليوسيس تتحدث عن أمور من شأنها أن تقع أو تشاهد ، لا عن أمور تلقن بأية حال وكان يطلب إلى المتقدمين للتكريس أن يؤدوا يميناً بكتمان السر ، وقد حفظ هؤلاء عهودهم إلا في القليل النادر ولكننا نعلم أنه في الأحوال التي نقض فيها العهد وهتك السر ، لم يحدث إفضاء للغير بأية عقيدة لقننا المرء ، بل أداء بعض الطقوس أو محركاتها هزواً وسخرية . والحق أنه من بين العبارات الدالة على هذا الضرب من المروق الديني ما يعني حرفياً « رقص الأسرار » مما يشير إلى أنه كان يقام في أثناء احتفال التكريس ذاته ما هو أشبه بالرقص الديني أو الرقص الدرامي التمثيلي . وقد يكون لنا أن نقارن به طقساً دينياً مسيحياً مثل القداس البابوي الذي لا يجري فيه أو يتلى فيه من شيء يقع في نفوس الحاضرين موقع الكشف الجديد عن عقيدة لم يكن لهم بها علم ، ومع ذلك فقد تستثار فيهم أعماق المشاعر الدينية . غير أن هذه المقارنة ناقصة مبتورة ، فوراء تلاوة خدام القداس وأفعاله تكن تلك العقيدة الضاربة في الفكر الميتافيزيقي والقائلة بالاستحالة [بمعنى استحالة المادة أي القربان إلى جسد ودم المسيح] في حين أن ما يكن وراء الأسرار لا يعدو أسطورة شائعة ، تجري على النحو التالي . أحب هاديس ابنة « ديمتر » فاختطفها إلى العالم السفلي ، فراحت أمها ، وقد روعت حزناً ، تنقب عنها في كل أرجاء العالم .

وفي أثناء تجوالها الذي لم يكن يفتر ليل نهار ، حيث كانت الإلهة تحمل مشعلاً لينير لها الطريق في الظلام ، ابتلى العالم بالمجاعة ، ذلك لأن الأرض ، وقد حرمت

من نشاط « الإلهة أم الخنطة » لم تأت بشعر . وفي النهاية بلغت « إليوسيس » ، حيث أكرم وفادتها — وهي تستر وراء مظهر امرأة عجوز — الملك وأهل بيته وأقاموها مربية لابنه الرضيع الذي أنجبته الملكة « ميتانيرا » . وفي مقابل ما لقليته من كرم الضيافة ، عقدت الإلهة عزها على أن تمنح الطفل الخلود ، فكانت تحرق عنه صفته البشرية كل ليلة بنيران المدفأة . ولما كان الطفل يدهن بالأمبروزيا ، وهي طعام الآلهة ، فلم يكن يصاب بضر من هذه العملية السحرية ، ولكن « ميتانيرا » أبصرت ابنها ذات مساء راقدًا في النار فصرخت هلعًا . فقطعت ديمتر لذلك علاقاتها بالأسرة المالكة ، وكشفت عن نفسها في صورتها الحقيقية ، وأعلنت أن الطفل سوف يموت فيما بعد كسائر البشر . ومع ذلك فقد أظهرت حذبًا على شعب إليوسيس ، وطلبت إليهم أن يقيموا لها معبدا ، كالقنتم طقوسها . وفي هذه الأثناء تم الاتفاق بينها وبين بقية الآلهة على أنه إذا لم تكن كوري قد تناولت طعاما في عالم الموتى فإنها تعود إلى أمها ، أما إذا كانت قد فعلت ذلك ، فلا بد أن تبقى زوجة « لهاديس بلوتون » واستطاع هاديس أن يحملها بالحيلة والخديعة على تناول بضع حبات من الرمان كانت كفيلة بربطها به وبمملكته ، غير أن ثمة اتفاقا عقد بينه وبين ديمتر ، مؤداه أن تبقى كوري معه شطرا من السنة ، على حين تقضى البقية مع أمها على سطح الأرض . ويظهر في هذه الأسطورة ، كما آلت إلينا ، وهي تعود دون شك إلى تاريخ موغل في القدم ، قدر معين من الخلط بين فئتين من الآلهة ، كلاهما ينتمى إلى الأرض ، وهما هاديس ، (غير المنظور) رب الأموات ، و « بلوتون » ماح خيرات التربة وبين « بر سيفوني » الملكة وقرينة هاديس ، وبين كوري « عذراء الخنطة » . وهذا الأمر من الأهمية بمكان ، إذ يوضح التفسيرات التي وضعتها عقول المتقين منذ زمن مبكر للطقوس الإليوسية .

ويبدو أن الأسطورة برمتها تقرير باللفظ لما كان يعرض بالفعل بواسطة رقص تمثيلي أو تشخيص مبسط بدائي ، وذلك في إليوسيس فالأنفاظ والأفعال توضحان على حد سواء ما كالم يجري حقيقة عاما بعد عام ، فإن « عذراء الخنطة » تهبط بالفعل إلى بطن الأرض في صيف بلاد اليونان . ويحل موسم الحصاد في موعد

جد مبكر عن مواعده في إنجلترا . ولقد سبق أن رأينا أن ثمة احتفالا بالحصاد كان يحل في شهر هيكاتومبايون الذي يوازي بصورة تقريبية للغاية شهر يوايو) وما إن يتم الحصاد حتى تترك الحقول عارية مقفرة تحت وهيج شمس الصيف المحرقة ، حتى تهل أمطار الخريف ، فيحين وقت الشروع في الحرث . وكانت الخنطة تحفظ في العادة في صوامع تحت الأرض . كما كانت المحاصيل الرئيسية هي التي تنضج وقت اعتدال الشتاء ، وهو وقت اخضرار الحقول ، بحيث تكون قد ارتفعت عن الأرض بمقدار لا بأس به في أوائل الربيع . وعلى ذلك فقد كان يحل في شهر انثيستر يون Anthesterion الذي يقع تقريبا فيما بين شهرى فبراير ومارس ، احتفال آخر لديمتر وكوري في أجراى Agrai وقد بات هذا الاحتفال بعد قيام أثينا بضم أجراى إليها ضمن حركت ترمي إلى توحيد أراضي أتيكا في ظل حكومة واحدة ، مرحلة ضرورية تمهد لطقوس التكريس في إليوسيس ، وكان يعرف في الغالب باسم الأسرار الصغرى على اعتبار أن الكبرى هي أسرار إليوسيس . ومما هو قريب الاحتمال للغاية أن هذا الاحتفال كان يقام احتفاء بعودة كوري ، بيد أننا لا نعلم أية تفاصيل عنه .

بيد أن لدينا لمحات قليلة عما كان يجري بقاعة التكريس (التلستيريون) في إليوسيس . فإن بعض الدقائق الهينة الصغيرة كانت فيما يبدو ذاتة مرفوعة إلى حد كبير ، واسكونها لا تمثل جوانب جوهرية من الرؤى القدسية ، فقد كان من الجائز الجهر بها أو عرضها في صورة فنية . وكان بعض المسيحيين من المهتمين في الفترة المتأخرة ، من بين المكركسين بطقوس إليوسيس ، وقد ذكر البعض منهم نورا يسيرا مما شهده . وعلاوة على ذلك ، فلم يكن ثمة سرفيا يتعلق بأسماء طوائف الكهنة الإليوسيين وأشخاصهم . وقد كان بين هؤلاء ، فيما نعلم ، كاهن باسم « هيروفانت » hierophant (أى عارض المقدسات) وآخر باسم « دادوخوس » daduchos (أى حامل المشعل) بالإضافة إلى أسرة أو عشيرة كهنوتية برمتها هي « الكيروكيس » kerykes (الرسل) . ونعلم أنه كان ضمن المعبودات التي نالها التكريم إلى جانب الأم والابنة ، إله يسمى إياكخوس Iakchos (ولعل معناه

صاحب الصرخة العالية ، ، وقد قرن بدويوسوس أو با كورس ولكنه لم يمت
إليهما في الأصل بصلة) بالإضافة إلى زوجين مجهول الاسم يشار إليهما بحسب
و بالآله ، و الإلهة ، . وثمة ما يحدونا إلى الاعتقاد بأن بعض المداعبات الطقسية
ذات الطابع الفاضح ، كانت تجري خلال جانب من المراسيم وأنها كانت تقام في
ظنهم احتفالاً بذكرى الحركات الهزلية المازحة التي أتها فتاة استطاعت أن تحمل
ديميتر على الابتسام ، وسط حزنها وقلقها . ولدينا ما يكاد يبلغ مبلغ البرهان على أن
ثمة مشهداً لاختطاف وهي كان يجري في هذه الأثناء ، ولا ريب في أن ذلك إنما
يرمز إلى حادثة اختطاف كوري . ونعلم أن رأس المتقدم للتكريس كانت تحجب
بخمار خلال نقطة بعينها من الاحتفال . وأنه كان يتحسس أو يتذوق شيئاً من
المقدسات . كما قد نرى إلينا أنه عندما يبلغ الاحتفال ذروته ، كانت تعرض على
الأنظار وسط السكون والصمت سنبلة من حصيد القمح ، ويبدو أن ثمة كلمات
للسر ، أو ما هو أشبه بذلك ، كانت متداولة بين المكرسين وبعضهم البعض .
إذ كان يعان عن مولد طفل مقدس باسم بريموس ، من شخص يدعى بريمو ،
ولكننا أبعد ما نكون مقدرة على أن نؤلف من جديد صورة كاملة لهذه الأفعال
« الدرومينا » drōmena (أي ما يجري من أشياء) على حد تعبيرهم . أما عن
الكلمات المستخدمة ، فلدينا ما يفيد بأن ثمة صلاة مقتضية بسيطة تتألف من لفظتين
هما « أمطري » ، و « أخصبني » ، كانت توجه فيما يرجع إلى السماء والأرض ،
ولعله من الجدير بالذكر أن تلك العبارة الشهيرة كنوكس أو ميا كس knox ompax
التي هولت منها بعض الكتب القديمة التي عرضت لاليوسيس لم يكن لها وجود
جملة وتفصيلاً . لقد كانت ثمة فهم خاطئ لفقرة سيئة التركيب بالفعل ، ولا تمت
دون شك بصلة إلى إاليوسيس أو إلى أي طقس ديني آخر ، وردت في معجم اللغة
اليونانية القديمة وضعه الباحث البيزنطي هيسوخوس Hesychios .

وإذا نحن ألفنا بين معلوماتنا جميعاً ، بدا لنا أن هذا الطقس الذي لاشك في
قدمه البالغ ، إذ كان ثمة موضع مقدس باليوسيس منذ العصور الموكيمية ذاتها ،
قد نشأ أصلاً عن احتفال يحمل من الطابع السحري قدر ما يحمل من الطابع

الديني (١) ويقصد به زيادة خصب الحقول واستمرار إنتاجها . وغالب الظن وأرجحه
أن هذا الاحتفال كان يشتمل على ضرب من التمثيل الإيماني الذي يصور ما يقع للقمح
عاماً بعد عام ، بالإضافة إلى أداء بعض الطقوس الدينية التي يقصد بها عقد أو ثقب صلة
بين المشتركين في الاحتفال ، وهم أنفسهم من مزارعي المنطقة المجاورة لإليوسيس
وبين الآلهة المعنية ، حتى يتيسر لهؤلاء المزارعين الاستحواذ على شيء من المانا
التي لدى الآلهة ، بحيث تقبارك أعمالهم جميعاً في فلاحه الأرض ويتحقق لهم في ذلك
من الضمان والسرعة ما لا يتحقق لغيرهم من البشر الهالكين . ولكنه لابد أن يذشأ
ثمة خلط ، كما سبق أن أشرنا ، بين تلك القوى الإخوتونية أو الأرضية التي تخرج
النبت من الأرض ، وبين تلك التي تنكفل بأمر الموتى ، ولا تستثنى ديميتر من هذا
الخلط ، كما لا تعفى « كوري » بالأحرى منه . وإذا كانت تعقد ثمة صلة وثيقة بين
المكرسين وبين هاتين الإلهتين وغيرهما من المعبودات التي تقام لها الشعائر في
إليوسيس ، فقد ترتب على ذلك أن نشأت منذ زمن مبكر فكرة تقول بأن
التكريس يمد للنعم في العالم الآخر ، وذلك للخطوة التي سيلقاها المكرس من
القوى القائمة هناك . وهذه الفكرة قديمة قدم التريمة التي تقال في مديح ديميتر
والتي تنسب تقليدياً إلى هومر (الأمر الذي لا يعني في هذه الحال كما في كثير غيرها
سوى أنها قديمة فحسب وأن أحداً لا يعرف من هو مؤلفها ، ولعل تاريخها يعود
إلى القرن السابع ق.م) . ومع ذلك ، فما لاشك فيه أن هذه الفكرة لم تكن تمثل
جزءاً من الطقوس ذاتها ، بل تفسيرا لها في ضوء آمال أجيال لاحقة ومراميها .
ونالت هذه الفكرة تأييداً وقبولاً واسع النطاق ، وكانت دون شك من الأسباب

(١) الخلاف بين السحر والدين يقوم أساساً على الاعتقاد بأن الأول
ذو فاعلية في حد ذاته ، بمعنى أن لكلمات الساحر وأفعاله وما إلى ذلك
القدرة على إرغام كل من الطبيعة والآلهة التي تهيمن عليها - على الإذعان
إلى أن لزم الأمر . في حين أن الموقف الديني أكثر من ذلك اتكالا ، إذ يتطلب
التوجيه بالابتهالات والتضرعات إلى أي من الكائنات التي يعتقد بانها
قادرة على تحقيق رغبة المتعبد دون محاولة حملها على الانقياد . ويؤكد
المرحوم السير ج.ج . فريزر هذا الفارق في مؤلفاته جميعاً .

التي دعت الآثينيين إلى فتح باب الأسرار على مصراعيه لكل من يفهم اليونانية، ولا تدنسه جريمة قتل أو أي رجس خطير آخر يسيء إلى أقل الآلهة تمسكاً بقواعد الخلق أو سنن الآداب.

وثمة سؤال لم يجد بعد جواباً شافياً، يتعلق بالأسباب التي دعت إلى إحاطة هذه الطقوس أصلاً بالسرية. وقد سبق أن لاحظنا بالفعل في العصر القديم أن طقوساً مماثلة كانت تقام في كريت علناً ودون أي تظاهر بالسرية والتسكتم. وما هو بعيد الاحتمال أن تكون العبادة التي قامت شعائرها في إليوسيس أو في أي مكان آخر، قد اضطرت في أي وقت من الأوقات إلى مواجهة الاضطهاد من جانب ممارسي ديانة أخرى، خلال مرحلة تقلبات السكان التي تمخضت بمضي الزمن عن نشأة الشعب اليوناني المعروف في التاريخ.

فالديانة القائمة على تعدد الآلهة كما أسلفنا ديدنها التسامح، كما كان الشعور الغريزي الفطري لدى الشعوب القديمة بوجه عام هو التصالح بقدر الإمكان مع آلهة أي بلد يدخلونه بالسلم أو بغيره. وأغلب الظن أن الإليوسيين كانوا يعلقون أهمية كبرى على طقوسهم ومن ثم كانوا يضمنون على أي غريب بالتعرف على الأسماء الحقيقية لمعبوداتهم والطرق الصحيحة لاسترحامها ونيل رضاها وعونها خشية أن يغيرها بالتخلي عنهم، أو ربما عمل سحراً مضاداً لمصلحة جماعته وحدها دون إليوسيس ولدينا وفرة من الأمثلة القديمة على إحاطة نصوص الصلاة والرق وما شابه ذلك بالسرية، وعلى استبعاد الأجانب من طقس معين يعتقد في تأثيره البالغ.

وكيفما كان الحال، فلم يكن ثمة ما يحاط بالسرية على الإطلاق فيما يتعلق بالطقوس التمهيدية التي ينبغي على «الموستاي» *mystai*، كما كان يسمى المرشحون للتكريس اجتيازها. ففي الخامس عشر من شهر بودروميون كان يجتمع كل الراغبين في أن يكرسوا لأول مرة أو أن يعاد تكريسهم (فقد كانت هناك رتبة عليا يدعى نائلها «بالإيبوبتيس» *époptes* ومعناها الحرفي المشاهد)، وذلك بصحبة مرشديهم

وهم أشخاص سبق تكريسهم كانوا يرافقونهم لمساعدتهم في أداء الطقس المعقد. وفي اليوم السادس عشر المعروف باسم «إلى البحر أيها المستاي»، كانوا جميعاً ينزلون إلى الشاطئ حيث يطهرون أنفسهم والخنازير الواجب على كل منهم تقديمها ضحية لديميتر بالاغتسال في البحر. وفي اليوم التالي تقرب الذبائح إلى ديميتر وكوري، وفي التاسع عشر يأخذ الموكب وجهته شطر إليوسيس. لقد كانت هذه رحلة مرحية، يقضيها أفرادها، بحسب ما جرت به التقاليد، في ثياب رثة يصاحبها الغناء والرقص والمزاح. ولا ينبغي أن يدخل في روعنا أن كل ما كان يجري إذاك كان يحمل مغزى دينياً؛ فما كان خطب هذا الحشد يزيد على كونه جمهوراً تداعى يوم عيد، رغم هيبة الشعائر التي يزمع الاشتراك فيها. وكانت هذه الشعائر تبدأ في العشرين من هذا الشهر، أي بعد غروب شمس اليوم التاسع عشر بحسابنا، بالنظر إلى أن طقوس التكريس كانت تقام دائماً بالليل على ضوء المشاعل. وتستمر حتى الثاني والعشرين، ولعل السبب في ذلك لا يعدو تجاوز عدد المرشحين للتكريس غالباً الحدود التي تسمح بمواجهتهم دفعة واحدة في ذلك المبنى الذي يمكن استعماله والذي لم يكن على جانب كبير من الاتساع.

أما الشهر التالي «بويانوبسيون» *Pyanopsion* فيستمد اسمه من احتفال «بويانوبسيا» *Pyanopsia*، وهو بدوره احتفال لأبولون، وكان يحل، كما هو معلوم على وجه التأكيد، في اليوم السابع من هذا الشهر. وكان من أهم معالم هذا الاحتفال، التقدم إلى أبولون، في مأدبة رسمية، بما يشبه الحساء المصنوع من أنواع مختلفة من القطن التي تسلق معاً، ومن هنا جاء اسمه الذي يعني حرفياً «سلق البقل». ولا شك في أن القصد من تقديم شيء من هذا الصنف من الطعام ليمتناوله الإله، إنما هو الحصول على بركته بالنسبة لجملة المحاصيل المماثلة. وثمة طقس شعبي قديم آخر؛ كان يحل في اليوم ذاته، ولعله لم يكن يمت في الأصل إلى أبولون بأدنى صلة، كما لم تكن له فيما يحتمل علاقة أيضاً بأي من الآلهة. وكان يتمثل في حمل «الايريزيوني» *eiresione*، وهي أشبه بنموذج مصغر لسارية مايو (سارية تركب في رجليه وتسلك بالورود يحتفل من حولها بعيد أول مايو) تتألف من غصن زيتون أو غار، تعلق به فاكهة وخبز وكعك وزجاجات صغيرة

من عمل النحل والنبذ وزيت الزيتون . وكان حملتها من الصبية الذين يطوفون
لجمع التبرعات من المنازل الخاصة ، وهي عادة شائعة بعيدة الانتشار كما ترتبط بطائفة
من الاحتفالات الموسمية ، في مختلف بقاع أوروبا . لا تزال بين أيدينا أزوجة
قديمة ، تعزى كما هي العادة إلى هوس ، كانوا يتغنون بها في ساموس في مثل هذه
المناسبة ، وهي بمثابة سلسلة من المدايح والتمجيدات الطيبة لرب البيت ، يعقبها التماس
العطاء . كان الصبية الآثينيون ينشدون قائلين :

« بالتين جاءت ، أيرزبوني » ، وبالسمن من الرغفان ، والشهد في إناء ،
والزيت يمكن كشطه منها ، والكأس من أعنى النبيذ يجلب لعينها المنام .

وكان هذا الغصن يعلق فوق باب المنزل ويحتفظ به هناك حتى العام التالي .
غير أنه كان يؤتى بغصن كهذا (وذلك وفقا لعادة زعم الآثينيون أن ملكهم
الأسطوري نيسوس هو مبتدعها) إلى معبد أبولون في عيد البوبيا نوبسيا ، على يد
صبي لا يزال والداً على قيد الحياة ، ويعلق هناك . ويبدو واضحاً أن الإله كان
يأخذ بنصيبه في هذا الطقس الجالب للحظ مثل عباده . لقد كان ذلك أمراً مستحجاً
بطبيعة الحال ، فالغاية من هذا الطقس كله هو جلب الفلاح والنجاح لجهود الناس
في إنتاج الغذاء ، ومن شأن « المانا » القوية التي يستحوذ عليها أبولون ، وهي
تعمل من خلال هذه الأداة السحرية التي تزين باب معبده ، أن تنعكس على
كل ما تمثله .

وقبل ذلك ، وفي الخامس من هذا الشهر ، كان يحل عيد « البرويروزيا »
Proerosia ، ويعنى حرفياً موسم الحرث السابق . وكان يمثل أحد أعياد ثلاثة
للحرث ، على حد تعبير بلوتارخ ، يحتفل بها في نقط متفرقة من أراضى أتيكا ،
وترمى دون شك إلى استئزال البركة على جهود الزراع الذين يقدر لهم في مثل هذا
الوقت من السنة أن يكونوا بسبيل إعداد حقولهم لبذر الخريف . وثمة ترنيمة
قديمة لم يبق لنا منها غير قصاصة ، تحمل دعاء إلى كوري بالمشول . وأجدد من
ذلك بالاهتمام ، عيداً يسمى فوريا Thesmophoria وهو عيد « ديميتراليسمو فورية » ،

(أي جالبة الفئاس) وكان يحتفل به في أتيكا طوال أيام ثلاثة ، تمتد من اليوم
الحادي عشر إلى ختام الثالث عشر ، وتعرف على التوالي « بيوم الصعود » (أو
« الصعود والهوط ») و « يوم الصوم » و « يوم الغلة الطيبة » . أما المحتفلون
فكان من النساء ، إذ كان الرجال يستبعدون تماماً من البقعة المقدسة أو التيسمو فوريون ،
Thesmophoreion التي كن يحتضنون بها . وكانت تطلق قواعد مماثلة في أماكن
أخرى ، ذلك لأن هذا الطقس كان قديماً بعيد الانتشار . ولعل الاحتفالات
ذاتها لم تكن تختلف في جوهرها . إلا أن تاريخها لم يكن واحداً على الدوام .
ومن ذلك أنه في هاليموس Halimus بأتيكا كان الاحتفال يقام قبل يوم من
بدء مثيله الآثيني ولم يكن يستغرق غير يوم واحد . وإذا أردنا أن ندرك القصد
من عبارة « الصعود والهبوط » ، وجب علينا أن نمد البصر إلى ما هو أبعد من
منتصف السنة الآثينية . ففي الشهر الأخير من الأشهر الاثني عشر ، أي شهر
« سكيروفوريون » Skirophorion ، كان يقع الاحتفال الذي استمد الشهر
منه اسمه ، مضاه « حمل الإسكيرا skira » . أما عن ماهية هذه الإسكيرا ، فقد
اتفق لنا إدراكها بفضل باحث مجهول الاسم عاش في أواخر العصر القديم وقام
بتدوين بعض المذكرات التفسيرية حول مؤلفات لوكيان . وكانت هذه عبارة
عن خنازير رضع وكعك مصنوع على هيئة أقاعى وعلى شكل عضو التناسل عند
الذكر ، تلقى في فجوات معينة في الأرض تعرف باسم « ميجارا » mégara حيث
تبقى إلى أن تلتهمها في الغالب الأعم الأفاعى التي تعيش بهذه الجحور . (وإذ يحل
عيد التيسمو فوريا تهبط إلى هذه الجحور نسوة ممن قمن سلفاً بتطهير أنفسهن مدة
ثلاثة أيام ، محدثات حملة وضوضاء لإفزاز الأفاعى وأبعادها ، ثم يصعدن بأية
أشلاء من عظام الخنازير أو اللحم العفن تكون ما تزال متخلفة هناك .

أما هذه فقد كن يرفعنها فوق المذايح في تضرع وخشوع ، ثم يجري خلطها بعد
ذلك بالحبوب . وليس بعسير إدراك الغاية من وراء كل ذلك . فمن شأن شهر
سكيروفوريون أن يحل ، ولو من الناحية الاسمية لحسب ، قبيل موسم الحصاد ،
حين تكون الأرض فيما يقدر قد أصابها السكلال من جراء ما بذلته من جهد في

إنتاج المحاصيل . وعلى ذلك فقد كانت تقدم لها نماذج حبة غضة من أكثر الحيوانات الأليفة خصبا ، وهو الحيوان المقدس أيضاً لديميتير ، علاوة على دمي تمثل أشياء منتجة للخصب والوفر ، وأخرى تصور المخلوقات الغامضة التي تنسب للعالم السفلي . ومن شأن هذه الأشياء ، كما كان يؤمل ، أن توفر قسطاً جديداً من «المانا» اللازمة للعام التالي . ولكن بقاء فضلات مثل هذه القرايين على اتصال بالعالم السفلي طيلة هذه المدة ، يستتبع دون شك امتلاؤها بسحر الحُصب امتلاء كبيراً ، ومن ثم في وسع الأرض بعد ما اكتسبت من عنفوان وقوة أن تتخلى عن هذه البقايا لتمنح بذور الحب معدلاً عالياً من الغلة . أما عن اليوم الثاني من أيام عيد التيسمو فوراً ، فلا نعلم عنه غير القليل ، فيما عدا الحقيقة الواضحة وهي أن النسوة كن يصمنه ، وهي عادة شائعة مألوفة إلى حد بعيد فيما يتعلق بكل من الطقوس الدينية والسحرية ، وقد كان هذا من قبيل الاستعداد لما هو مقدر أن يقع في اليوم الثالث ، تعززه إقامته في أخصاص من فروع الشجر المورقة دون أي نوع من الأبنية ، حتى يكن أقرب صلة بالأرض وما ثمره ، ولعل عبارة « الغلة الطيبة » التي تطلق على اليوم الثالث ، حيث كانت تقرب قرايين شتى ، كانت تشير إلى وفرة المحاصيل أو كثرة الأبناء أو إلى البركتين معا ، أما الاحتفالات بهذا العيد فكان من بين السيدات المتزوجات اللائي ينسبن إلى كرائم العائلات ، الأمر الذي لم يكن يحول مع ذلك بينهن وبين أحياء الطقس القديم الذي يقضى بتبادل النكات الفاضحة في أثناء الاحتفال .

وليس ثمة ما يثير الاهتمام خلال المدة الباقية من هذا الشهر وطول الشهر الذي يليه وهو شهر مايماكثيريون Maimakterion وقد سمي الأخير باسم الاحتفال الذي يسمى «مايماكثيريا» Maimakteria والذي كان يقام تكريماً لزيوس المايماكثيري وهو لقب قديم يعنى ، فيما يبدو «العاصف» . ولعل القصد منه كان اتقاء عواصف الخريف بما تجره من كوارث وأضرار . وكان شهر بوسيديون Poseideon وهو من شهور الشتاء ويشق اسمه من احتفال الإله بوسيدون (وهو البرسيديا Poseidea) الذي يقع في الثامن منه ، يحوى احتفالاً آخر لديميتير أيضاً ، تلقب فيه «بالهالوا» Halou ، ويقع في السادس والعشرين . ويبدو أن

هذا اللقب مشتق من لفظ قديم يعنى الأرض الزراعية ، ولقد كان الاحتفال يحوى قسطاً كبيراً من أعمال السحر الجالبة للخصب ، والتي يعتبر بعضها إباحياً بجافيا لأذواقنا في العصر الحديث ، بالإضافة إلى أحد المعالم المميزة للاحتفالات التي تحل في الفترة المظلمة الباردة من العام ، وهي الوليمة الصاخبة المرحية ، التي يكاد يصفها المرء بعشاء عيد الميلاد ، أو لعلها كانت على الأرجح وليمتين ، ذلك أن النساء اللائي كن يقمن وحدهن بهذه الشعائر كن يولمن فوق أرض ديميتير المقدسة في إليوسيس ، غير أن ثمة مآدبة كانت تقام للمواطنين عامة على أرض أقل قدسية . وثمة عدد من تفاصيل هذا الاحتفال حقيق بالتوبه . فوليمة النساء كان ينبغي ألا تضم أنواعاً معينة من الفاكهة ، وعدة أصناف من السمك ، كما حرم فيها الدواجن والبيض . وكان الاحتفال يتضمن طقساً خاصاً بتذوق النبيذ الجديد الذي بدأ منذ وقت قريب يصبح صالحاً للشرب . وكان لبوسيدون دوره في هذه الشعائر ، إذ كان يقام احتفال في تكريمه ، وبالنظر إلى أنه كان ، كما أسلفنا ، زوجاً لإلهة الأرض ، فلم يكن من النادر أن يقرن بإلهة الحنطة أيضاً . وإن هذه الأنواع من المحرمات tabus والشعائر غير المهدبة وظهور الإله فيما لا بد أن يكون من أقدم وظائفه قبل أن يصبح إلهاً للبحر ، لتدل جميعها على أننا حيال عيد يضرب في أغوار الماضي السحيق ، جاء به الآخيون فيما يبدو من منطقة شتاوها أشد برودة وأقل في مظاهر الحياة به من مناخ بلاد اليونان الذي يتميز باعتداله النسبي .

هنا نحن أولاء قد بلغنا الآن النصف الثاني من السنة الآتيكية بحلول شهر جاميليون Gamelion . أما الاحتفال الذي خلع اسمه على هذا الشهر ، فلانعلم عنه في الواقع شيئاً . ولعله فيما نحسب كان يسمى بعيد جاميليا ، وثمة ما يحدونا إلى الاعتقاد بأنه كان يحتفل بزواج زيوس من هيرا ، بمعنى اقتران أسماء الأب مرة أخرى بالأرض الأم ولم يكن ذلك مجرد احتفال بذكري حدث أسطوري يعود إلى ماض سحيق ، فما كان هذا هو ماترمى إليه الاحتفالات في البيانات القديمة ، أو على الأقل لم يكن مقصدها في أصولها الأولى .

فالسما تقترن بالأرض عاماً بعد عام ، وإلا فكيف للأرض أن تحصب وتلد

أطفالها من المحاصيل بعد بذر الربيع؟ وإن هذه لفكرة متأصلة عميقة الجذور، فمن القصص ما يدور حول فلاحين من اليونان من أبناء العصر الحديث، ممن تبدو لهم الاحتفالات المسيحية مثل عيد الفصح وهي احتفالات تذكارية فعلا كنص اللاهوت الرسم، وكأنها تعالج وقائع جارية لا أحداثا ماضية.

وعلى أية حال فعلمونا ما وافرة عن عيد بالغ الطرافة، كان يحتفل به في الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من هذا الشهر. وكان يعرف باسم « لينايا »، Lenaia بمعنى عيد اللينايون Lenaion أى موضع الليناي Lenai، وهي من بين طائفة الألفاظ التي تعني عابدات ديونيسوس من الإناث، ومن المؤكد أن هذا الاحتفال كان خاصا به. وكان هذا الإله قد سبق تكريمه في الشهر الماضى، لا عن طريق أى احتفال في أثينا ذاتها، بل في عدد من الأماكن بالريف، الذي كان يحتفل بما نسميه عيد الديونيسييا الربيعي.

ثم يحى دور المدينة للقيام بشعائره التي لا نعلم عنها، لسوء الحظ، سوى النزر اليسير فيما خلا تلك الحقيقة الماثلة في أنه كان يجرى آث. عرض للمسرحيات كذلك الذي يقام في عيد ديونيسيا الكبير، الذي سوف يتحتم علينا التعرض له فيما بعد. وما نلحه من مراحل هذا الاحتفال يثير فضولنا إلى معرفة المزيد. كان المسئول الرسمي عن هذا الاحتفال والمشرف عليه هو « الأرخون ». وهو الحاكم السفوى الذي كان يحمل لقب الملك (أى « باسيلوس » Basileus وهذا هو السبب في دعوة المحدثين له في الغالب بخلاف أى من القدماء. بالملك الأرخون). وإن ذلك ليبدل في حد ذاته على ما كان لهذا الاحتفال من أهمية وخطر. وقد كان الأرخون يتولى بنفسه في مثل هذه المناسبة تنظيم الركبن المعهودين في أى عيد يوناني قديم، وهما سير الموكب ثم تقديم القرابين، ولكنه لما كان أبولون في دلفوى قد اعترف بالإله الأصغر الذي كان أخا غير شقيق له وأفسح له مكانا في معبده، فكذلك رحبت، فيما يبدو، معبودات الخصب الكبرى التي كان مكانها المقدس في إليوسيس، بذلك المعبود الناشئ من معبودات الخصب، الذي كان لقبه باخوس Bakchos يبدو قريبا بعض الشيء في وقعه.

من اسم ذلك المعبود المعروف لديهم وهو إياكخوس Iakchos واتخذ الرحاب صورة الاعتراف بأن ياكخوس وإياكخوس معبود واحد. وعلى ذلك، فقد كان الكاهن المعروف باسم « دادوخوس »، يصبح وهو يحمل مشعله، في نقطة بعينها من الاحتفال، قائلا: « تضرعو الإله، فيجيبه المؤمنون قائلين « ابن سيميلي، إياكخوس، واهب النعم، ولقد دأب اليونانيون الذين كانوا يميلون إلى القول بأن جميع الشعوب إنما تعبد الآله ذاتها وإن اختلفت الأسماء فيما بينها، على المطابقة بين الآلهة وبعضها البعض بناء على أسس أضعف من هذه وأوهى. وقد رد الإله، فيما يبدو، هذه اللفتة الفكركية، إذ كانت تقدم في عيد اللينايا القرابين لديميتر وكورى وبلوتون. وعلى أية حال، فيكاد يكون كل ما يتعلق باللينايا فيما عدا ذلك، من قبيل الحدس والتخمين، ولا يتسع المقام هنا لعرض القضايا المختلفة وناهيك بمحاولة حسمها، التي ثارت بين بعض المتخصصين الأكفاء حول تفسير بعض مدلولات الفن القديم، التي لو كنا في الواقع على يقين مما تمثله، لاستقيننا منها الشيء الكثير.

وقد يضم شهر جاميليون، وفق ذلك التقويم الآثيني المتأرجح، شطرا من فبراير، والمعروف أن ربيع بلاد اليونان يحل في موعد أسبق بكثير من موسمه في إنجلترا فلا عجب إذن أن يحمل الشهر التالى اسما مشتقا من الزهور التي تنفتح عن أكمامها آنذاك. وهذا الشهر هو انثيستيريون. أما عن الاحتفال الذي سمي باسمه، فكان يحل في ثلاثة أيام متوالية منه هي الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، ويدعى بالانثيستيريا Anthesteria أى « عيد الزهور ». وبخلاف ما يوحى به اسم هذا العيد، فإنه لم يكن مبعث فرح وسعادة تامين. فقد كان ينظر إلى الربيع على أنه وقت غير ميمون بعض الشيء فصحة الأرض والنشاط الزراعى الذى يصحب انتفاضتها، إنما يطفقان العنان لقوى قد تكون خطيرة مهلكة. وأخصها بالذكر أشباح الموتى التي تنشط عادة نشاطا كبيرا في مثل ذلك الوقت، وثمة دلائل واضحة على قيام احتفال لأرواح جميع الراحين خلال عيد الانثيستيريا. والحقيقة أنه كان يحتم بطرد صارم بات

لتلك المخلوقات الغريبة الخطرة بفصح عنه في عبارة تقليدية تقول : « انصرف في أيها
الاشباح ، فقد ولي عيد الانثيستيريا » . بيد أنه كان لديونيسوس دوره ودوره
البالغ الخطر أيضا في إجراءات الاحتفال والمرة الأولى يتسنى الربط بين موعد
احتفال يقام في تكريمه وبين حقيقة تتصل بالنيبذ وصنع النبيذ ، وإن هذه المظاهرة
نادرة الوقوع تماما في بلاد اليونان القديمة ، التي لم يكن من دأبها القيام بشعائر
عبادة هذا الإله ، في أوقات مثل مواسم قطاف الكروم ، الأمر الذي كان لابد أن
يحدث لو أنه كان في الأصل إلها للخمر مثل الإله الإيطالي ليبير Liber . وبحلول
الربيع ، يصبح عصير العنب الذي سبق استخراجه واختزانه في الخريف الماضي
تام التخمر إلى حد بعيد ، وهناك أكثر من مجتمع في نافي واحد كان يخصص يوما
في شهر من شهور الربيع لفض أختام دنان النبيذ لديه ، رسميا وطقسيا . فكانت
« يوبوتيا » ، على سبيل المثال ، تقوم بذلك في الربيع في السادس من شهر
بروستاتير يوس Prostatierios ، ولكنها لم تكن فيما يبدو تذكر ديونيسوس
بشيء ، بل تتمثل الأجاثوس ديمون Agathos Daimon أو الروح الخيرة
الكريمة ، التي كان من بين خصائصها ، استطاعتها لرؤية الناس ناعمين ملتذنين .
ومثل هذا الطقس من طقوس الابتداء لا تنفرد به بلاد اليونان وحدها أو أي
بلد آخر ، فثمة رأى يسود العالم جميعه مؤداه أن بدء أي عمل للمرة الأولى إنما
هو فطينة خطيرة وينبغي الاحتياط له بتدابير من شأنها استدراار العطف الإلهي
أو جلب النعم بطريق السحر ، أو بكلا الأمرين معا . وعلى ذلك فقد دعت أثينا
اليوم الأول من عيد الانثيستيريا باسم بيثويجيا Pithoigia أي عيد فتح دنان
التخزين . وكان المقدار الأول من النبيذ الذي يؤخذ من هذه الدنان (فلم يكن
القدماء يستعملون البراميل) يسكب قربانا ، وفي هذه الأثناء يدعو الشعب أو
السكان المشرف على الحفل ، لا ندري أيهما ، بألا يصيب النبيذ الشاربين بسوء ،
بل يحفظهم وبقيهم . ويبدو أنهم لم يكونوا يسمونه نبيذا في مثل هذه المناسبة بل
« فارماكون » pharmakon وهي لفظة تعني في الطب اليوناني العقار ، وإن
كانت تحمل في اللغة الدارجة معنى أوسع وتتضمن المواد السحرية . ومع ذلك فإن
شرابا يبدأ بكونه مجرد عصير عنب ثم ينقلب بعد ذلك إلى شيء قد يفسد أتران

عقل المرء ، لابد أن يعامل ، مهما كان شائعا مألوفاً بشيء من الاحترام ، لا
لسبب إلا لأنه يحتوي على « مانا »

ومن ثم كانت تعقد الصلة بينه وبين معبودات معروفة بודהا وصادقتها مثل
ديونيسوس أو الأجاثوس ديمون ، بحسب ماجرى به العرف المحلي ، حتى لا يكون
لفعاليتيه غير أثر طيب فحسب . أما اليوم الثاني من عيد الانثيستيريا فكان يعرف
« بالخويس » choes ، جمع «خوس» Chus ، وهو وعاء صغير يسع قرابة لترين ،
وتشير هذه اللفظة إلى احتفال غريب كان يقيمه في ذلك اليوم من ينوب عن الدولة
وبعض الشخصيات التي تدعى إاليه ، وذلك في مبنى من المباني العامة ، ولا ريب
في أن الأفراد كانوا يحبونه كذلك في دورهم الخاصة . ووجه الغرابة هو أن كل
ضيف كان يقدم له إناء خاص به ، بدلا من أن يقدم الخمر للجميع في كأس مشتركة .
وبذلك يحصل كل من الحاضرين على المقدار ذاته من النبيذ ، ثم كانت تجري مسابقة
في تجرعه يفوز فيها بالجائزة من يفرغ من نبيذه أولا . ومع ذلك ، فلم يكن الأمر
الامر مفردا في التفاهة والسخف ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، فكل شيء كان يجري
في صمت . ولم يكن لاكل من الضيوف نصيبه من النبيذ فحسب ، بل كان لاكل
مائدة الطعام الخاصة به أيضا ، على النقيض من الأكلات الجماعية العادية التي كان
اليونانيون يتخذون فيها مثلنا مائدة كبيرة واحدة للضيوف كافة . وقد بدا ذلك
أمرا غريبا يشذ عن المألوف إلى الحد الذي دعا الآثينيين إلى البحث عن مبرر له ،
واستقر رأيهم على أنه إنما يحى ذكرى زيارة أورستين لأثينا ، عندما أتى ليحاكم
ويتطهر بعد قتله لأمه ، وكان على من استقبلوه أن يجذوا حلاوسطا بين أن ينكروا
عليه الضيافة كلية ، أو أن يحادثوا ويؤاكلوا ويشاربوا شخصا مازالت تدنسه جريمة
قتل . أما ما كان يعنيه كل ذلك على وجه التحديد ، فأمر مازلنا بعد على غير
يقين منه ، غير أن ذلك الصمت والسكون إنما يدلان على أن المحيط الروحي كان
مشحونا ، وأنه كان يتحتم تجنب كل خطر مهما هان شأنه ، ينجم عن كلمات تحمل
سوء الطالع أو ربما نشأ عن جلبة من أي نوع . ومن بين الاحتمالات العديدة
التي لا يتميز أي منها عن الآخر ، القول مثلا بأن الأشباح كانت تحوم بالمسكان ،

وأنه كان من الصواب إنهاء الاحتفال برمته على وجه السرعة (ومن هنا جاءت مسابقة الشراب) ، وفي صمت وهدوء .

ولعلنا نذكر أنه يتحتم تناول خروف ، عيد الفصح ، Passover وهو من أعياد فصل الربيع أيضاً ، ، على عجل ، مع التظاهر بالحرص على البدء في رحلة فوراً . وكيفما كان الحال ، فإن ديونيسوس كان يثبت وجوده في احتفالات ذلك العيد ، بطقس لا يقل خطورة عن طقس زواجه . وفي مثل هذه المناسبة ، كان يجري نقل زوجة « الملك الأرخبون » إلى « البوكوليون » Bukoleion ، وهو المقر الرسمي لزوجهما ، ترافقها جماعة من النسوة ، يعني باختيارهن ، ويطلب إليهن الشهادة على طهارتهن وعلى التزامهن ببعض الشعائر الديونيسية الخاصة . كما يشترط فيها أن يسكن هذا الذي تعيش معه هو زوجها الأول . وكانت « الملكة » وحاشيتها يقدمن قرابين تحاط ماهيتها بالسرية ؛ ولأننا لا ندري على وجه الدقة كيف كان يتم هذا الزواج المقدس ، ولكنه يبدو من المحتمل أن ديونيسوس ، سواء كان يمثله نصب معين ، أو كان يمثله الملك نفسه ، وهذا جائز للغاية ، كان يؤتى به إلى المبنى محمولا فوق عربة على شكل سفينة (فقد كان أجنبيا قادم من وراء البحار) وهناك يقدم إلى عروسه . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الأشباح تحوم في الطرقات في كل هذه الأثناء ، وكان الجميع يعمدون إلى مضغ الزعرور البري white thorn (وهو نبات ملين ومن ثم يصلح للوقاية أو التخلص مما هو فاسد مكروه بوجه عام) ، ويلطخون أعمدة أبوابهم بالقار ، إما لاصطياد الأشباح كما يصطاد الذباب بالورق اللزج وإما لطردها بفعل رائحته . ومن أجل هذا السبب عد العيد من أيام النجس ، . رغم احتفالاته المهيبة ، ورغم الحقيقة الماثلة في أنه كان فيما يبدو — إن كان لنا أن نثق بما توحى به الرسومات التي تزين العديد من الزمريات — وقت مرح ولهو بالنسبة للأطفال الذين كانوا يقومون بأسلوبهم الخاص بمحاكاة طقوس آبائهم .

ثم يحل في النهاية عيد « الخوتروي » Chytroi ، وهو اسم لا يحمل من الدلالة أكثر من « الأوعية » أو « القدور » . وكان دون ريب عيداً من أعياد الموتى ،

فالقدور المعنية كانت تحوى قربانا لهرميس يتألف من نوع من الحساء يصنع من مختلف الحبوب الصالحة للأكل . والقصد الصريح من ذلك هو نيل صفح الإله وغفرانه من أجل الموتى والراجلين الذين كان يقوم الإله منهم مقام الهادي والمرشد ، وثمة تفسير يسترعى النظر أدلى به بعض العلماء الأثريين ، مزده أنه في زمن « الطوفان » (طوفان دو كاليون Deukalion وليس طوفان نوح لأن هذه أسطورة يونانية) قام من كتبت لهم الحياة بهذه القرابين للمرة الأولى ، من أجل أرواح الغرقى . وثمة حقيقة جديرة بالذكر وهي أن عملية الطهو لم تكن تتم ليلا وقت انطلاق الأشباح بل نهارا . ولم يكن يحق لأي كاهن أن يطعم من هذه الحبوب ، وكانت كل أسرة فيما يبدو تقوم بإعداد القدر الذي تحتاجه . ولا بأس من أن نستخلص مما تقدم أنه كان مقدرا أن يأخذ موتى الأسرة بنصيب في هذه الأكلة ، وعلى ذلك فقد كانوا يستدعون للشول فترة من الزمن ويتناولون الطعام مرة أخرى مع أقربائهم . كما أن بوسعنا القول بأن الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن هرميس يحضر أيضاً هذه المآدب .

وفي أواخر هذا الشهر كان يحل احتفال آخر يبلغ من القدم شأوا بعيدا ، ويعتبر في زعم التقاليد الآثينية ، أعظم أعياد زيوس قاطبة . وكان يسمى بعيد دياسيا Diasia ويقع في الثالث والعشرين . وأول ما نلاحظه هو أن الإله الذي يقام هذا العيد لتكريمه هو « زيوس ميلخيوس » Zeus Meilichios الذي يختلف اختلافا كلياً عن زيوس رب الظواهر الجوية ، بل إنه معبود أرضي يرى عادة بصحبة حية أو يظهر هو بنفسه في هيئة حية . أما كيف وقع له اسم زيوس ، فهذا مثير خلاف في الرأي . فلا عجب إذن فيما تفيدنا به مصادرنا من أن الاحتفال كانت تخيم عليه « مسحة من الكآبة » ، وأن الضحية كانت تحرق ، أي تأتى النار عليها بأكملها ، دون أن يتناول الحاضرون منها شيئا . ولم تكن الضحية التي تنتظر عادة من واحد من عامة الجمهور ، تتمثل في بهيمة حقة ، بل في كعكة تصنع على هيئتها ، أما تلك البهائم التي كان يضحي بها في الغالب على الأقل ، فكانت من الخنازير

وعلى أبة حال ، فقد كان ذلك يوم عيد بالنسبة للآتينين ، حيث يستضاف الضيوف وتقدم الهدايا للأطفال . ولعل لقب هذا الإله ، الذي يقرب في معناه من عبارة « الميسور والشفاعة » ، لم يكن يرجع إلى مجرد الرغبة في التأدب أو مراعاة رقة التعبير ، بل إنه كان من الآلهة التي يؤمل الانقياء في نيل نعماتها . ولذا كانت تجري في هذه الأثناء شعائر العبادة الواجبة ، فلم يكن ثمة ما يحول بين سائر الأهلين وبين التماس المتعة واللذة ، وهم آمنون مطمئنون إلى أن زيوس ميليكوس لن يصيبهم بسوء بل قد يباركهم .

أما الشهر التالي « إلفيبوليون » ، Elaphebolion ، فقد اشتق اسمه من احتفال أرتميس المعروف باسم « إلفيبوليا » ، Elaphebolia (قص الوعول) وكانت تقرب إلى هذه « القناسة » الإلهية « الوعول » ، ولكن هذه لم تكن وعولا حقيقية إذ أن هذا الاسم كان يطلق على نوع من الكعك الحلو الذي يأخذ على الأرجح صور غزلان . غير أن أجل من ذلك وأخطر ، عيد ديونيسوس الكبير الذي كان يمتد من التاسع ، أو الثامن — بحسب مقدماته — حتى الثالث عشر من هذا الشهر . وكان يعرف باسم عيد ديونيسيا الكبير أو عيد ديونيسيا المدينة ، كما شهر شعبيا باسم عيد « شعراء التراجيد الجدد » ، بالنظر إلى أن عرض المسرحيات كان يتم أصلا في مثل ذلك الوقت . ويكاد يكون من المؤكد أن المسرح قد بدأ في بلاد اليونان ، مثلما بدأ في عدة أجزاء أخرى من العالم ، في صورة طقوس دينية أو سحرية ولو أننا لا نستطيع تتبع المراحل المختلفة التي مهدت لذلك . وبغض النظر عما سبق المأساة من احتفالات تنكرية ، فقد ظهرت كقالب أدبي لأول مرة في القرن السادس ق . م ، ولقيت تشجيعا من ذلك الطاغية المستنير العظيم بيزستراتوس وكان أول مؤلفيها المعروفين هو تيسبيس Thespis من إيكاريا Ikaria ، وهي منطقة بأتكا كان لها ديونيسوس عدا ذلك صلات أخرى . وبما استقر حوله الرأي تقليديا أن موضوع المسرحيات الأولى ، كان يدور على الدوام حول مغامرات الإله الخاصة ، أما استقاء الموضوعات من أساطير أخرى غير هذه فلم يتم إلا بعد حين . ويبدو أن الملهاة أيضا نشأت في الأصل عن لون من ألوان المزاح اللفظ

ذي المغزى الطقسي ، أو عما هو أشبه باحتفالات عيد الميلاد التاريخية الصاخبة ، حيث يراعى التحفف على الأقل من القيود المعهودة ، وقد كان « الكوموس » ، komos أو جماعة المعربين الذين سميت باسمهم هذه المسرحيات ذاتها ، ذلك لأن لفظة الكوميديا تعني « الأنشودة المعربة » ، مطلق الحرية في توجيه أفدع الكلمات والخش الإيحاءات إلى أشد أفراد مجتمعهم هيبه وأرفعهم شأنًا ، « في ذلك الآلهة التي يعبدونها ، وناهيك بالإله الذي يقيمون الاحتفال إكراما له . ولم يكن أرستوفانيس وكراتينوس ، وهما شاعران من شعراء الملهاة في مرحلتها الأولى ، غير مراعين للتقاليد ، مبتغين مسرة إله الاحتفال حينما صوراه في صورة جبان غر ، ذي موهبة خاصة في الإيقاع بنفسه في مآزق مزرية مهينة . ولم يكن ينتظر أن يعنى السياسيون والأدباء والفنانون وعامة الناس من بهم أو يمكن الزعم بأن بهم مأخذ أو شذوذ معين ، من قذع الكوميديا وقذفها للذين كانا يأخذان تارة صورة مزاح خالص صرف ، وتارة أخرى صورة نقد جاد أو شبه جاد . غير أن الدولة لم تتعهد الملهاة بالتنظيم والرعاية إلا في موعد لاحق على المأساة التي دلت على علو مكانتها بالعدد الأكبر من إنتاجها المسرحي ، إذ كان يجري عرض اثنتي عشرة مسرحية مقابل أربع ملاهي ، في أثناء الاحتفال الذي كانت تقام فيه مشاهد أخرى ، تضم فيما تضم ذلك الضرب من أشعار الترانيم الخاص بديونيسوس ، وهو الديثورامب . أما تفاصيل التنظيم والترتيب ، ولا سيما قصة خروج المسرحيات على قوالها الأصلية ، ودنوها من الطابع الأدبي وجنوحها عن الطابع الديني ، فإنما تختص بتاريخ الأدب اليوناني دون مؤلف عن الديانة اليونانية . غير أن ارتباط الإله بالمسرح ، من الناحية الاسمية على الأقل ظل قائما حتى زمن متأخر ، فقد كان الممثلون المحترفون يطلقون على أنفسهم اسم صناع ديونيسوس . ولنا أن نذكر بصفة عارضة ، أن الربط بين ميلبوميني Melpomene وثاليا Thaleia ، وهما من ربات الفن ، وبين كل من المأساة والملهاة على التوالي إنما كان من خيالات نفر قليل من أديباء العلم المتأخرين .

ولعل ذلك قد نشأ عن العادة الشائعة وهي إقامة نصب لربات الفن التسع

(وعددهم يعود إلى هسيود كما تعود أسماؤهم أيضا إليه) وهن يؤلفن مجموعة واحدة، حيث كان من الطبيعي أن تعطى كل ربة من ربّات الفن شارة بعينها من شارات الفنون، مثل قرطاس أو قبشارة أو قناع ممثل. وفي الاعتقاد الديني كما في التصور العادي، قد تتكرم جميع ربّات الفن أو آية منهن، بإلهام فنان بعينه في أي فرع من الفروع، ولذلك فإن ثمة قصة طريفة تروى كيف أن الربّات التسع جميعا قد شوهدن وهن يبارحن بيت فيليمون، الشاعر الهزلي، يوم أن مات. ويعني اسمهن «من يذكرن»، وهن، في عقيدة هسيرو، بنات «منيه موسوني» Mnemosyne أي «الذاكرة» ووظيفتهن أن يحضرن إلى عقل أي أمره يختصنه برعايتهن، القصة التي يريد سردها أو أفضل السبل إلى الشروع في عمل فني من أي نوع.

وهكذا نرى أن عبادة الإله التراقي الفريجي البدائي، رب الحيوية الطبيعية المتدفقة، قد تحولت بفضل الاعتدال والقسط والإحساس الفن المرهف الذي يتمتع به اليونانيون إلى احتفال مهذب لائق، تعرض فيه طائفة من أروع نماذج الشعر اليوناني، والغناء اليوناني أيضا بغير شك أمام جمهور يبدو أنه كان بوجه عام أوفر الجماهير التي قدر لها أن تملأ مسرح من المسارح على مر التاريخ حظا من روح النقد والتميز. وإبان عصر أساطين المؤلفين المسرحيين، وهو القرن الخامس وإلى فترة معينة بعده، لم يكن يجري عرض أية مشاهد مسرحية إلا في احتفالات ديونيسوس، أما فكرة إخراج المسرحيات لأشياء إلا لتسلية من يودون أداء ثمن مقاعدهم أو من أجل ما يعود على مديري المسارح وفرقهم من ربح فلم تخطر قط على بال. ولقد ظل المسرح، رغم كل مداخل مضمونه من فكر دنيوى، جزءا من الاحتفالات الدينية التي كان لها دون ريب ما الكثير من الاحتمالات من شعبية وطرافة، إلا أنه كان من المتعذر فصلها عن إطارها الديني.

أما الشهر التالي المعروف باسم مونيخيون Munichion، فلم تكن تطرأ فيه أية وقائع دينية ذات بال. واشتق اسم هذا الشهر من عيد المونيخيا Munichia

الذي يحل في السادس عشر منه، وهو التاريخ ذاته الذي يحتفل فيه بذكرى انتصار سلاميس عام ٤٨٠ ق. م.

ومن الواضح أن موعد هذه الذكرى قد اجتذب إلى يوم العيد القائم أصلا، ذلك لأن المعركة دارت بالفعل في تاريخ لاحق خلال ذلك العام، وكان من برامج الاحتفال عرض بحرى. أما عن عيد المونيخيا ذاته، فإننا لا نكاد نعلم من أمره شيئا فيما خلا كونه عيدا لأرتيميس. غير أن ثمة احتمالا آخر لها، نلم بمجرياته على وجه أفضل، رغم أن المصادر أغفلت تاريخه، وهو احتفال «البرورونيا» Brauronia المسمى باسم مدينة «براورون» الصغيرة الواقعة على شاطئ أتيكا فقد كان يقام في هذا الاحتفال عرض لرقص «الدبة»، إلى جانب تقديم الماعز كضحية، وهى من أكثر الذبائح التي كانت تقرب عادة للآلهة.

وكانت تقوم بهذا الرقص فتيات صغيرات، يناهزن من العمر عشر سنوات، يرتدين ثيابا مصبوغة بالزعفران، ولسنا ندرى ما إذا كان المقصود بذلك هو محاكاة جلد هذه الوحوش الأسحر، أو أن الأمر لا يعدو أن هذا كان اللون المعروف للأردية الرسمية للفتيات والنساء. بيد أن ذلك إنما يتيح لنا أن نلمح بصيصا من طقس أمعن في الهمجية من الطقوس الآنيكية العادية، ولا يليق باحتفال ينسب إلى العاصمة ذاتها. فقد كانت هذه الإلهة، باعتبارها ربة الأماكن الموحشة وكل ما هو بربرى هجوى تظهر هى بذاتها في بعض الأحيان في هيئة وحشية، ومن الصورة التي كانت تظهر فيها صورة الدبة. وطبقا لميل شائع للغاية بين مختلف العقائد والديانات، اجتذب المصلون إلى مظهر معبودتهم الخارجى، فقامت على خدمة الإلهة الدبة. عذارى من الدبة. وثمة أثر آخر من آثار ماضى أرتيميس البربرى الغابر، أبقت عليه مدينة هالاي Halai. حيث كان يحتفل سنويا بعيد التوروبوليا Tauropolia تكريما لها. وكان هذا الاحتفال قياما بالليل، إذ كانت عابدات للإلهة يملأن ساعات الليل بالرقص والغناء لإكرامها لها، بيد أنه كان يحوى أيضا أثرا أخيرا من شيء أشد جهامة وهو تقديم الذبائح البشرية. إذ كان يساق

رجل إلى المذبح، حيث تحز رقبة حزاً طفيفاً بالقدر الذي يكفي لحسب نزول بضع قطرات من الدم. ومما لا يكاد يحتمل شكاً، أنه قد مضى زمن كانت فيه السكين تزج إلى أبعد من ذلك وأعمق. وقد رأى الآثينيون أنفسهم أن هذا هو المعنى الأصلي، ومن ثم أعلنوا، بالنظر إلى كراهيتهم المعمودة للوحشية والبربرية، أن ذلك لم يكن طقساً يونانياً، بل إنه قد اجتلب في الأزمنة القديمة من أراضى شعب همجي هو شعب التاورين Tauroi. وكان لهم في ذلك بعض الحق، إذ أن هذا الطقس قد انحدر إليهم دون شك من عصر سابق على مقدم الآخاليين إلى بلاد اليونان. ولا سبيل لنا إلى أن نقطع بما إذا كان الآخايون هم الذين استعاضوا بهذه الصورة المخففة من سفك الدم عن الطقس الأصلي، أو كان هؤلاء هم البلاسيين، وما كانت أرتيميس، على خلاف ديونيسوس، تحس باطمئنان قط لوجودها بالمدينة، ومن ثم فقد تبدت عليها، في الديانة اليونانية العادية، آثار واضحة لماضيها الغابر.

ويشتق اسم شهر «تارجيليون» Thargelion، وهو الشهر الذي يأتي قبل الأخير من السنة من عيد «تارجيليا» الذي يحتفل به في اليومين السادس والسابع تكريماً لأبولون. ولعل توالى ظهور هذا الإله في التقويم الآثيني يرجع إلى دافع سياسي فما كانت تزعمه أثينا، أنها المدينة الأم للأيونيين كافة، أما الآيونيون فيمنحدرون كما تقول الأسطورة عن أبون Ion بن أبولون، الذي يعتبر لذلك الإله الراعى theòs patròos لذلك القطاع كله من الشعوب اليونانية. ومثل هذه المزايم كانت تحمل على محمل الجد في الزمن القديم. ولقد قيل تفسكها إن نظيرها في العصر الحديث هو فكرة الجنس، ولها من الواقع التاريخي خط مقارب وأقل ما يقال إن أبولون بمحظياته وأبنائه من أنصاف الآلهة إنما يمثل شخصية أروع وأبهج من فكرة معنوية مجردة كتلك التي تقول بالإنسان النوردي، وعلى ذلك فإنه في النواحي الدنيوية ظهرت أثينة في أكثر من مرة بمظهر المناصرة لأيونيا ضد السيطرة الفارسية، في حين ظلت، في المسائل الدينية، تقيم شعائر

العبادة للإله أبولون في حماس غير قليل فيما يبدو إلى الوقت الذي كلفه ميله للإسبرطيين وحلفائهم خلال الحرب البليونيونية مكاتته الشعبية، رغم أن المدينة لم تذهب قط إلى حد إلغاء الاحتفالات التي تقام لتكريهه. وفي السادس من هذا الشهر، كان يجري طقس عجيب من طقوس التطهر، يعتبر الصورة الآثينية لعادة ذاعت ذيوعاً كبيراً وكانت تمارس بوجه خاص في أيونيا وفي مدينة أو مدينتين ترتبطان بها ثقافياً، إما للتخلص من النحس سنوياً وإما في الأحوال الطارئة مثل إنتشار وباء. وتشبه هذه العادة في جوهرها الطقس العبري الخاص بتيس الخطيئة إذ كانت تقوم على تحميل كائنات حية أكدامس النحس أو الإثم ثم التخلص منها ومن أوزارها في آن واحد. فقد كان يختار رجلان بأئسان دميان، أحدهما عن أثينا والآخر عن نساتها: ثم يزنان بعد ذلك لسبب مالميس من اليسير الاهتداء إليه بعقود من التين المخفف، سوداء بالنسبة لممثل الرجال، بيضاء بالنسبة للآخر. وفي النهاية يطردان من المدينة، ولعلمهما كانا يساقان إلى خارجها رجماً بالحجارة، وإن كنا لا نجد سنداً لذلك من قرائن مباشرة. أما عن كيفية اختيارهما، أو عما إذا كانا يختاران من بين الوطنيين أو الأجانب، العبيد أو الأحرار، أو ما إذا كانا يعوضان عن واجباتهما المقيمة هذه أو يؤديانها سخرة، أو كيف كان يتم على وجه التحديد انتقال نحس سكان أثينا إليهما، فتلك مسائل تقصر عنها معلوماتنا، وإن كان المغزى العام لهذا الطقس واضحاً بيناً. وفضلاً عن ذلك فاللفظة التي استخدمت للدلالة عليهما وهي «فارماكوي» pharmakoi بمعنى العاملين عمل العقار pharmakon كانت أقرب إلى أسماء الأضداد. إذ يقول أرسطوفانيس في التشهير بسياسي عصره إن أثينا لم تكن في العصور الخالية، لتلجأ بأية حال إلى استخدام أناس مثل «العقارين». وكان اليوم التالي يطلع على المدينة، بعد تطهرها على هذه الصورة، وهي تبشر الشعائر التي اشتق العيد كله اسمه منها. فقد كان تسوى في قدور جوب مأخوذة من المحاصيل الناضجة، وتقدم رسمياً إلى أبولون. وكانت هذه الغلة المبكرة تعرف باسم «التارجيليا» thargelia، ومن من شك في أن الغرض من هذا القربان هو كفالة تأثير الإله

الطيب على المحصول التالي ، عن طريق عقد الصلة بينه وبين هذه الغلال .

وفي أواخر هذا الشهر ، ويحتمل أن يكون ذلك في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين ، وإن كان هذا الموعد غير معروف على وجه التحديد ، كان يقع احتفالان يعودان إلى النصور العتيق الساذج بأن تماثيل الآلهة تحمل في حد ذاتها صفة الإلهية وأنها تعيش في المعابد التي تأويها . ولا بد أنه كان أمام أئمة ، شأنها شأن ربوات البيوت الصالحات كافة ، أوقات تعنى فيها بتنظيف البيت وغسل الملابس . وهذا هو المعنى المقصود من الاسمين الذين أطلقا على هذين العيدين ، أولاهما « كالونيتريا » Kallynteria وثانيهما « بلونتريا » Plynteria . أما عن اليوم الأول فلا نعلم عنه غير ما يدل عليه اسمه ، فالفعل « كالونايين » kallynein إنما يعنى ترتيب غرفة أو منزل وكفها ونفض التراب عنهما ، ومن ثم فإن ذلك هو ما كان يجري لمقر أئمتنا الرسمي في ذلك اليوم . غير أن معلوماتنا أوفر عن اليوم الآخر . فما نعلمه أن ثمة فتاتين تسميان « ماشطتين » أو « غسالتين » ، كانتا تأخذان بالإله أى تماثيلها القديم ، لأن ذلك كان في الحقيقة الشيء المقدس في عبادتها ، وليس ذلك التمثال الفخم الذى صنعه « فيدياس » للبارثينون . إلى شاطئ البحر عند « فاليرون » Phaleron ، وهو المرفأ القديم الذى كان مستخدما قبل بيرايوس . وكان يشرف على أعمالها وعلى المركب الذى كان يرافق الإلهة ، أفراد أسرة عريقة ، يعرفون باسم « البراكسييرجيداي » Praxiergidai الذين كانت واجباتهم تتضمن إلى جانب ذلك خلع ثياب الإلهة ولفها بالقماش قبل بدء الموكب ، ثم إلباسها من جديد في ذلك الساعة حين يعودون إلى المعبد على ضوء المشاعل . ولم يكن هذا هو التمثال الوحيد لأنثينا الذى يلقى مثل هذه المعالجة ، فقد تناهى إلينا أن طقسا مماثلا كان يجري في أرجوس ، على أن وجه الخلاف الرئيس بينهما هو أن الغسل كان يتم في نهر وليس في البحر . وليس ثمة ما يدعو أحدا إلى العجب ، من أن اليومين اللذين يقضيان على هذه الصورة . كانا مشثومين ، فقد كانت الإلهة جد مشغولة بذلك عن مباشرة وظائفها العادية .

رأينا فيما سبق أن الشهر الأخير « سكيروفوريون » Skirophorion اشتق اسمه من « الأسكيرا » skira بمعنى القدور . ولقد كان يضم احتفالا عتيقا آخر على جانب من الأهمية ، هو « الديبوليا » Dipolieia ، بمعنى عيد زيوس بوليوس Zeus Polieus ، أو إله المدينة وقلعتها ، إذ درجت اللغة الآتيكية على استخدام لفظة polis في كلا المعنيين . أما تاريخه فهو الرابع عشر أى وقت تمام القمر ، وهو وقت ملائم لإقامة شعائر إله السماء ؛ وهكذا كان الرومان يكرمون إلههم يوبيتر في « الإيديس » Ides أى الشهر القمري . غير أن أشد ما يثير الدهشة والعجب من مراسيم هذا العيد كان « البوفونيا » Buphonia ومعناها الخرفى قتل الثور (فلفظة « فونوس » phónos تعنى في القانون اليونانى قتل النفس) . وقد جرت العادة عند تقديم الذبائح اليونانية على أن ينحر الحيوان مع مراعاة الطقوس الواجبة ، على أن يتم التصرف في لحمه ، بوليمة قربانية أو بدونها . وهذا هو كل ما فى الأمر . فبغض النظر عن بعض الطوائف النباتية ، ونفر قليل من الفلاسفة ، ممن يرجع عهدهم جميعا إلى زمن متأخر نسبيا ، فإن أحدا لم يكن يداخله الإحساس قط بأن ثمة ما يؤخذ على ذبح الحيوان من أجل إقامة وليمة للإله ، بالاشتراك مع عباده أو بدونهم . بيد أنه في مثل تلك الحالة ، كان يؤدى طقس دينى ساخر في غاية من الشذوذ والغرابة ، غمضت تفاصيله من جراء تضارب المصادر القديمة حول ما كان يدور به . وإذا ما التزمنا أبسط هذه الروايات وأقربها إلى الصدق ، وهى رواية بوسانياس ، وجدنا أنه كان يبدأ بوضع بعض الغلال فوق مذبح زيوس مما يجعلها مكرسة للإله ؛ ولقد كانت قرابين الغلال شائعة تماما ، كما كان من الجائز تقديمها دون أية ذبيحة حيوانية . وكانت تترك دون حراسة ، ثم يتاح لثور ما الصعود إلى المذبح وتناول شيء منها . وعند ذلك كان يقوم أحد الكهنة ، ويعرف اصطلاحا باسم « قاتل الثور » (buphonas) بذبح الثور ، وإلقاء البلطة التى استخدمها ، ثم يفر هاربا . وكان من الممكن ، طبقا للقانون الآتيكى . تقديم الجملاد الذى تسبب في إزهاق نفس إلى المحاكمة بتهمة القتل ، وهذا هو ما كان يجري رسميا للبلطة التى كانت تثبت عليها بطبيعة الحال جريمة

القتل ويلقى بها في قاع البحر فيما يحتمل . أما ما حدا إلى ظهور مثل هذا الشعور الرقيق في حالة هذا الثور بالذات في حين أن مئات الثيران الأخرى كانت تنحدر كل عام ، في جميع أنحاء اليونان ، تقرباً إلى زيوس وغيره من المعبودات ، فتلك مسألة اختلفت وجوه الإجابة عنها بين الدارسين ، سواء من المحدثين أو القدماء ، دون أن يحظى أى تفسير حتى الآن مطلق القبول . ولعله من بين الآراء القريبة الاحتمال ، أن هذا الحيوان يتناوله طعام زيوس المقدس يصبح بذاته مقدساً . ولا يخلو نحره على اختلاف سائر الدواب من خطر . ومع ذلك ، فلا مناص من أن يضحي به ، فلن يقبل الإله الذي أقيم الاحتفال في تكريمه أن نضيق عليه هديته الموعودة . ومن ثم وجب ذبحه ، على أن تتخذ الاحتياطات الواجبة . فالسلاح الذي صرعه ، ومن ثم أصبح يحمل شحنة من المانا بالغة الخطر ، لم يكن يقل وبالأعمال لو كان قد قتل إنساناً ، كما قد لحق به دنس الموت وقتل النفس ، وعلى ذلك كان يتم التخلص منه بالطريقة الواجبة . أما الكاهن الذي تناول البلطة ، فإنه فيما يرجح لم يمس الثور بالفعل ، وعلى ذلك فإنه بانفصاله عن السلاح المشحون بالمانا بأقصى سرعة ممكنة كما فعل ، وبترجبه أيضاً هذا الجوار ، يصبح في مأمن من الخطر .

وكان هذا الشهر يختتم ، كما تحتتم السنة أيضاً بضحية لزيوس وأثينة ، اللذين كانا يحملان كلاهما لقب « المخلص » (Soter و Soteira) :

كانت هذه بالإيجاز مع إغفال عدد من الاحتفالات التي كانت مجرد تذكارات لوقائع معينة في التاريخ الآثني ، أو كان قد أتى بها الأجانب إلى البلاد بإذن من الحكومة الآثينية ، أو كانت في النهاية على قدر من الغموض والصعوبة يجعلان مناقشتها لا تليق إلا بدراسة علمية دقيقة شاملة للديانة الآثينية — الاحتفالات الطقسية السنوية لذلك المجتمع اليوناني الذي نعرفه أفضل معرفة ، أو بالأحرى نحن منه ، في هذه الناحية وفي غيرها من النواحي ، أقل ما يكون جهلاً . ولنا في ختام هذا الفصل بعض الملاحظات العامة .

ليس الأمر مقصوراً على لقب هذا الإله أو ذاك ، بل إن هناك عدداً لا يحصى من نصوص الآداب التي آلت إلينا والتي تتحدث عن علاقات الآلهة بالجنس البشري ، حيث نقف على وصف للمعبودات اليونانية بأنها منقذة أو مخلص . وكان نوع الخلاص الذي يأتون به مادياً بحتاً ، يتمثل في حماية المجتمعات ، وكذلك الأفراد بدرجة تقل قليلاً ، من الأخطار المادية التي تهدد الحياة السياسية أو حياة الفرد . وقد تخصص بعض الآلهة في درء أنواع معينة من الأخطار ، عن يعوذون ، مثال ذلك أن الديوسكوري كانوا ينقذون البحارة من أخطار البحر ، وذلك بتسكينهم العواصف ، كما أن الظاهرة المعروفة باسم نيران القديس إلمو ، ارتبطت بهم ، وكانت إذا ظهرت كرات النار هذه عند نقطتين من جبال الأشرعة عد ذلك بشيراً طيباً . بيد أنه كان من المحتمل بوجه عام ، ومن المؤكد في معتقد الرجل العادي والمجتمع العادي ، أن يوسع أى إله دفع كل ما يهدد المرء بالخطر . وهكذا كانت المهمة على وجه الخصوص المنوطة بالمعبود الرئيسي لمدينة من المدن ، هي حماية هذه المدينة أو تلك من الأعداء ، وإن كان في وسع غيره من الآلهة مشاركته في ذلك .

وماذا يكون حال آلهة مدينة من المدن إذا ما استبيحت هذه المدينة ودمرت ؟ الجواب المعبود هو أن الآلهة بارحتها . وقد يقال في بعض الأحيان إنهم انقلبوا على سكاكنها ، وعاونوا على تدميرها ، رغبة في الاقتصاص منهم لجريرة ما ، وعلى الرغم من أنه كان ينظر إلى معبودات أية دولة من الدول على أنها تمثل على نحو ما فئة متميزة سامية من المواطنين ، إلا أنها كانت خالدة بالغة السطوة والجبروت ، ومن ثم فحال قتلها أو أسرها . ولكن الذي لاشك فيه أن المؤمنين لم يكونوا ينتظرون أن تسمح الآلهة بأن يبلغ سوء الحال منتهاه . ومن ثم فعقائد العصر القديم كان يعتورها عيبان . لقد كانت مواضع العبادة الجماعية تعتبر على نحو ما محل تجربة واختبار . فإن هي لم تستطع أن تحمي عبادها ، فقد لا يبقى هؤلاء على ولائهم لها ، بل يتحولون إلى آلهة أخرى ، أو يقلعون عن الإيمان بالحماية الإلهية كلية .

والعيب الثاني هو أن الفرد الذي كان يؤمن في العادة بمطلق عدالة آلهته وكرمها، كان معرضاً عاجلاً أو آجلاً، إما إلى الشعور بحاجات غير مادية ومن ثم تخرج عن النطاق المعهود للنعم الإلهية، وإما أن يجابه هذه المشكلة، وهي كيف أن الصالحين الذين يحفظون فيما يفترض برضاء الآلهة، لا يفلحون دائماً. وقد قدمت الفلسفة لإجابات جدلية معقدة لكل من المشكلتين، بيد أن هذا الكتاب ليس بتاريخ للفلسفة القديمة، ومن ثم قلن تعرض الفصول التالية لغير الحلول التي طرأت على أذهان غير الفلاسفة، عندما بدا النظام المقرر للعبادة، لأى من السبيين السالفي الذكر، ناقصاً معيياً.

ذلك لأنه كان يمكن بين التسليم غير الفاحص، بما درجت عليه التقاليد، أو نبذها غير الواعي أيضاً جملة وتفصيلاً، من جانب، وبين المحاولات الجبارة لأذهان متميزة السمو والرقى حقاً، في سبيل تفسير العالم والسلطة التي يخضع لتدبيرها، وذلك عن طريق الاستنباط المنطقي لمبادئ أولية هي بالفعل أو تخيل فحسب أنها ثابتة مؤكدة بدرجة لا تحتمل النقص أو الطعن من جانب آخر، عدد عديد من المراحل التي تفاوتت مسيرة لحكم المنطق والعقل والتي تتمثل في تعديلات وتحويرات وتخريجات لتلك المعتقدات التي يبدأ بها المنتقضي الساخط. ولعل أجل من ذلك وأخطر تلك الطائفة الكبرى من مختلف الاستجابات العاطفية، التي تفضي تبعاً لذلك إلى ميول متنوعة تجاه هذا النمط أو ذاك من السلوك الديني أو غير الديني.

وختاماً، فإن انتشار الديمقراطية في بعض أجزاء بلاد اليونان، صاحبة نمو للمشاعر الخلقية أولاً بين الأذهان ذات الاتجاه الفلسفي المتميز، ثم انحدار هذه المشاعر وتفاعلها بين الجماهير. وأصبح التسليم الذي كان سائداً في القديم، بأن للآلهة مناهج معينة من السلوك تختص بها، يتضاءل رويداً رويداً. فإذا كان ثمة مبادئ للخير والشر واجبة على البشر أجمعين، فلماذا لا تكون واجبة على البشر والآلهة على حد سواء؟ ومن جهة أخرى، فإذا كان ثمة أمور تصح للبشر وأخرى تصح للآلهة، فهل هناك أصلاً أى فارق أدبي حقيقي بين الأفعال وبعضها البعض؟

وهكذا باتت الفروض الثلاثة الفائلة بوجود الآلهة وبكرمها وبمراعاتها للصلاح والتقوى، وهي الفروض التي تسكن وراء العقيدة اليونانية المعهودة أقل جزماً وقطعاً بمضى الزمن. ولم يشعر الفيلسوف فحسب، بل الفرد الذي كان يتمتع بقسط محدود من الذكاء، بطرف من المشاكل الناشئة عن ذلك. وسوف يعرض الفصل التالي لمناقشة طائفة من أشهر هذه الحلول.

ولكن القرون التي سبقت قيام مدن العصر الكلاسيكي العظمى كانت عصر فرضى واضطراب . فقد كانت الثورات سواء الاقتصادية أو السياسية ، شائعة كل الشيوع . فكثيرا ما كان يطاح بنظم الحكم القديمة في جور وقسوة لتحل محلها حكومات طغاة أى حكومات غير مسئولة بتزعمها رجال بلغوا كراسى الحكم بالقوة الغشوم أو بالمكر والخديعة في صورة رؤساء أحزاب أو شيع ناجحة في الغالب الأعم . كما نشأت هناك أنماط جديدة من الرأى ، من جراء زيادة النشاط التجارى واستخدام الاختراع الذى ظهر في ليديا وهوسك النقود . وتغيرت في الوقت ذاته التنظيمات الحربية ، فقد استعاض عن المقاتل الهومرى القديم الذى كان يرى مندفعاً بعربته الحربية في كل اتجاه ثم مترجلاً عنها ، تحميه دروعه الثقيلة لينازل عدوا مزودا بعناد بمائل — استعاض عنه بحامل الرمح (hoplites) ، الذى كان ينشئ ، وهو مصطف في تشكيل متلاحق مع زملائه ، سورا من أطراف الاسنة لا يمكن اختراقه إلا بوساطة جماعة أخرى من حاملى الرماح . وعلى ذلك فمن كان له مثل ذلك الدخل المحدود الذى يمكنه من حيازة درع ورمح وبقية عتاد جندي المشاة ؛ بات يحظى بمكانة عسكرية مرموقة . إن لم يكن من أجله كفرد ، فعلى الأقل من أجله كطبقة . ولما كانت هذه الطبقة قد أثبتت في كثير من الأحيان أنها أصلب قناة وأعسر مراسا من طبقة النبلاء التقليدية ، فقد بقى هناك على الدوام احتمال قائم لأن يحاول بعض أفراد تلك الطبقة ولاسيما في أوقات التذمر العبث كذلك بسلطان الآلهة التقليدى . فلاعجب ، والحال هذه ، أن تسمع قرابة القرن السادس أو قبل ذلك عن بدع دينية جديدة .

ومن أبرز هذه المعتقدات الريفية الجديدة ، تلك التى شرحت في عدد هائل من المصنفات الأدبية المنظومة شعرا والتي تنسب إلى أورفيوس Orpheus ، وهو موسيقى وعراف أسطورى ظهر في تراقيا ، أو تعزى إلى شخص قريب الصلة به مثل موسايوس Musaios وهو من ذوى قرباه أو تلاميذه . وقد يكون ، من الملائم أن ندعو هذه « بالآورفية » بيد أنه لا يحق لنا على الإطلاق أن نزعّم أنه قد قامت هناك في أى وقت من الأوقات مجموعة موحدة متكاملة من العقائد

الفصل الخامس

الآلهة تحت الاختبار

القول بأن الآلهة تكره الشر ، أو على الأقل تنبذ أنواعا معينة منه ، وأنها تعاقب من أجله ، افتراض قديم قدم هومر الذى يضع على لسان زيوس أن عناد الإنسان ذاته هو الذى يجلب عليه قسطا من المتاعب يتجاوز حدود ما هو مقدر على كل شخص أن يكابده . والقول بأن زيوس رب الكون ، وأنه عادل ، دعا إليه في إصرار « هسيود » الذى تبدى غيرته على الفضيلة في صورة واضحة وضوح غيرة عاموص^(١) الذى كان معاصرا له فيما يحتمل . ويعرض لنا هسيود أيضاً تلك الصورة اليونانية الطبيعية غير المغالية في التفاؤل ، عن عواقب الهدى ونتائج الضلال . فالصورة الأولى تعنى أن تكون للمجتمع كفايته من القوت ، وأن تتوافر له أسباب الخماية من عدوه ، وهلم جرا ، أى أن يكون في الحق على درجة الرخاء التى يصح لمزارع صغير مثله أن يأمل في بلوغها ، وفي الظروف التى يستطيع في ظلها الرجل المتأبر أن يجنى من الرزق ما يكفل له العيش الميسور المشرف فحسب ، ولا شيء أكثر من ذلك . وعواقب الضلال هي الهزائم والأوبئة وغير هذه من الكوارث التى لا تلبث أن تهوى سريعا بالطبقات الدنيا على الأقل إلى درك المجاعة . وعلى ذلك فإنه من الواضح الجلى أن زمتا تجمّحه اضطرابات اقتصادية وسياسية هائلة ، تسفر عن شقوة ودمار للكثيرين ، لهُو في نظر أى شخص يسلم بدنيا هسيود ، زمن ضلال يستوجب غضب السماء النازل به .

(١) عاموص (Amos) نبي من أنبياء بنى اسرائيل . كان اول أمره راعى غنم فأرسله الله نبيا (حوالى ٧٨٣ ق.م) . انذر بقدم ملوك آشور واستيلائهم على أرض اسرائيل . (المترجم)

الأورفية ، بل لم يكن هناك شيء يمكن أن يوصف بالكنيسة الأورفية ولكن ما كان قائماً بالفعل ، في جانب من هذا الأدب على أقل تقدير ، وفي زمن مبكر إلى حد بعيد فيما يبدو هو ديانة غربية تؤمن بالعالم الآخر ، وتختلف اختلافاً بيناً عن معتقدات اليونانيين المعهودة كما تنبئ في طقوسهم وعاداتهم . ومع ذلك فإنها من بين الديانات التي يمكن للمرء أن يتصور نشأتها بين أفراد وطبقات من المجتمع تربط بين الإيمان الحار بضرب من الآلهة ، وبين الحيرة إزاء المصاعب التي تحيق بهم وبغيرهم في تلك الأزمنة العصيبة ، في حين أن تطورهم الفكري لا يبلغ من التقدم الحد الذي يحدوهم إلى النفور من السخافات والترهات التي تنطوي عليها الصور التي يحملونها هم في تخيلاتهم أو يرسمها لهم معلومهم عن الآلهة والمعبودات . وكانت هذه العقيدة الجديدة ، بمجرد الإيمان بها ، تبرر بصورة مرضية إلى حد بعيد ، بلايا الصالحين في هذه الحياة ، وتلوح بالآمال في التعويض عنها في حياة أخرى . ولم تكن هذه تقل بحال عن عقيدة تؤمن بالخطيئة الأولى والبعث والجنة والمطر والنار .

والأسطورة التي تضمنت هذه التعاليم لم تصل إلينا إلا عن طريق كتاب متأخرين إلى حد بعيد عن الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها إلا أن ثمة قرائن تثبت أن لب هذه الأسطورة على الأقل يعود القهقري إلى زمن غابرحقاً ، ويقول هؤلاء الكتاب إن زيوس أنجب من ابنته برسيفوني ولدا يدعى زاجريوس Zagreus وكان ينوي أن يجعل من الطفل الوليد سيداً للكون ولكن التيتان ، بإيعاز من هيرا ، تمكنوا من قتل الطفل ثم التهموه . فأهلك زيوس التيتان بصواعقه ، ومن رمادهم خرج البشر الذين يحملون بذلك قسطاً ضئيلاً من طبيعة زاجريوس الإلهية وجانباً هائلاً أيضاً من شر التيتان وخبيثهم . وابتلع زيوس زاجريوس الذي كانت أمينا قد أنقذته ، وشرع في إنجاب ديونيسوس الذي يعد على ذلك ندا لزاجريوس . وغاية الإنسان الأولى هي أن يتخلص من العنصر التيتاني ويحتفظ بالعنصر الإلهي في كيانه المعقد . وأمامه في هذا العالم وفي العالم الآخر سلسلة طويلة من الحياة التي قد يجازى أو يقتص منه في أثناء كل رحلة منها

على ما يكون قد أتاه من خير أو شر خلال وجوده السابق . فإذا ما احتمل واصطبر فإنه يصل في النهاية فيما يبدو إلى ما هو أقرب إلى الحبور الإلهي الأبدى . أما الأسلوب الذي يتبعه فهو الحياة الأورفية ، وهي مزيج من الطقوس الدينية وضروب التأبي عن الطعام والشراب (فبعض الأوربيين على سبيل المثال ، كانوا من النباتيين) مع قدر معين على الأقل من السلوك الخلق .

ومن الواضح الجلي أن المشايخ لهذه الديانة ، قد وجد في مثل هذه العقيدة التي آمن بها نوعاً من التفسير لمصائبه وقسطاً لا بأس به من السلوى والعزاء . فإذا ما بدا له أنه يعاني من وبيلات لا يستحقها فذلك لأنه قد اقترف ثمة معصية في المرة الأخيرة التي كان بها في العالم الآخر أو أنه على أية حال لم يتقدم بعد إلى الدرجة الكفيلة باستدرار رضاء برسيفوني عنه وإعفائها له من نصيبه من الخطيئة الأولى . فإذا ما صمد لهذه البلايا ، فقد يكون له أن يأمل ، في الأقل في وجود أوفر سعادة وهناءة من هذا الوجود ، عندما يستبدل حياته هذه المرة التالية بحياة أخرى في مملكته . وله على أكثر تقدير أن يتطلع إلى مرتبة غاية في السمو والرفعة في واقع الأمر ، فربما عاد إلى الأرض في صورة ملك أو حكيم ، وشق طريقه بمضى الزمن إلى مرتبة إلهية فائقة لمراتب البشر . وإذا واثق الحظ جاره الظالم ، فله أن يعزى نفسه بالفكرة القائلة بأن ذلك الجار سيلقى القصاص الرادع على مثل هذا الظلم في حياة أخرى ، وإن بدا في هذه الأثناء محقراً بين أخوانه ، فإن ثمة إلهاً واحداً على الأقل ، وإله واحد عظيم أيضاً يهتم بأمره ، وسيعمل على أن يثيبه جزاءه المادل في النهاية . وقد تصادف وجود مدارس فكرية قدمت المبررات لنسبة محدودة على الأقل من هذه العادات التقليدية أو المكسبة التي كان يمارسها أشياع المذنب الأورفي . ولعل ذلك لم يكن بالامر الهين في عصر بدأت فيه تلك الخرافات التي كانت تختص بطبقات معينة من الشعب ، والتي أغفلها التراث الهومري إغفالا تاماً مؤثراً عليها معتقدات النبلاء الإقطاعيين التي تنسم بمجاراتها لشيء نسبي من المنطق — بدأت في الظهور وفي إثبات وجودها . وكان يحوط مذهب فيثاغوراس ، الذي كان في أحسن صورته مذهباً فكرياً بالغ

السمو ، قدر هائل من أغرب أشكال المحرمات التي تدل في أصلها على عقلية لا تفضل عقلية البدائي الهمجى ، والتي يبدو أن بعض أعضاء هذه المدرسة قد تناولها بالتعليل والشرح ، استناداً إلى مناهج في التفسير لا تختلف فيما يحتمل عن تلك التي شاع استعمالها في زمن جد متأخر عن زمنها ، فوجدوا في هذه المحرمات رموزاً على شرائع خلقية ودينية . وفي هذا النطاق الغريب من التفكير ، قد يراعى المرء من الفروض ما يحرم عليه ، مثلاً ، ترك رسم جسده على أغشية الفراش الذي يكون قد رقد عليه وألا يتناول بعض الأسماك المشتومة المعينة ، وألا يستخدم سكيناً لتحريك النار التي يوقدها ، ومثبات من الفروض الأخرى من هذا القبيل . وهو في ذلك راض قانع لعله أنه إذ يفعل ذلك إنما يدخل في نوع من المشاركة والأخوة مع رجال طبقت شهرتهم الانفاق . ونذكر على وجه الخصوص في ميدان العلم والحكمة جنوبي إيطاليا وشرقي صقلية التي كان أتباع فيثاغورث يمارسون فيها نشاطهم . وقد يجد المرء في المذهب الفيثاغورى أيضاً أو مشتقاته الشعبية ، مبرراً لاعتقاد ترك أثره هنا وهناك في المنطقة اليونانية ، وهو تناسخ الأرواح . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك قط ، كما أسلفنا ، ما يمكن اعتباره جماعة منظمة تنادى بالمذهب الأورفي ، فقد ذاعت نظرياته ذاتها خارج البلاد ، وظهر أثرها في كثير من الدوائر خلال أعظم عصور الثقافة اليونانية وهي القرن السادس والخامس والرابع قبل الميلاد . ويبدو أن بيسسترايوس ، الطاغية الآثيني الذي كان يتطلع إلى مساندة الشعب لحكمه الاستبدادي المستدير المعتدل ، قد شجع الأدب الأورفي ، والحق إنه بما تنهى إلينا أن أونوماكريتوس Onomakritos ، وهو من أشهر عراني ذلك العصر قد حكم عليه بالنفي لأنه أقحم بعض النبوءات التي كانت من تزييفه هو ، على مجموعة من النبوءات تنسب إلى موسايوس .

وقام لاسوس الهرموني Lasos of Hermione بضبط الجاني متلبساً بجريمته وهو شاعر ذو مهارة فنية فائقة ، قيل إنه هو الذي ثقف الشاعر العظيم بندار ، وأصدر الحكم هيبارخوس Hipparchos بن بيسسترايوس الذي نال هو ذاته

شهرة في تلقين رعاياه ، أو رعايا والده مبادئ الأخلاق العامة بنقشه الحكم والأقوال المأثورة على التماثيل التي كان يقيمها . فقد أقيمت في دلفوى صورة للعالم السفلى تختلف جد الاختلاف عن تلك التي وردت في القصائد الهومرية ؛ حيث تواصل الغالبية العظمى من الموتى حياة تعكس بصورة خافته أوجه النشاط التي كانوا يمارسونها على الأرض ، وحيث لا يسام أحد العذاب سوى قلة قليلة ممن أساءوا إلى الآلهة لمساءة مباشرة ، مثل تانتالوس الذي استلبهم طعامهم الإلهي ، والعلاق تيتيوس الذي حاول اغتصاب ليتو .

وكان المقصود من هذه اللوحة التي رسمها بولوجنوتوس Polygnotos أحد المعاصرين لسقراط ، ومن ثم لا يمكن أن يعود تاريخها إلى ما بعد نهاية القرن الخامس بـ زمن طويل ، تصوير منظر هوميرو ، وهو زيارة أوديسيوس للعالم الآخر طلباً للنصيحة من شبح تيريسياس Teiresias ؛ العراف الطيبي . غير أن هذا العالم يختلف جد الاختلاف عن ملكة الموتى كما صورها هومر . إذ تظهر واضحة للعيان على ضفاف نهر أخيريون في العالم السفلى صورة ابن عاق ، يخشع أبوه الذي اعتدى عليه هذا الابن ، ويرى كذلك أحد لصوص المعابد وهو يسام العذاب . وفي موضع آخر ، تكشف اللوحة عن بنات بنداريوس اللاتي انتزعتهن الزوابع على نحو غامض حسبما يقول هومر ، في صورة تليق بشبابهن العذرى الغض ، متوجات بالأزاهير ، يلهون في مرح . بل إن أورفيوس نفسه ظهر هناك ، واقفاً وسط أجمة من الأشجار وقد أحاط به الموسيقيون القدامى . وفي قسم آخر من هذه اللوحة العظيمة ، ترى امرأتان تحاولان نقل الماء في جرار مثقوبة . وثمة نقش يخبر النظارة بأن هاتين السيدتين أهملتا مراسيم تدشينها . وكان عقابهما فيما يبدو هو أن تحاولا جاهدتين على الدوام وبغير طائل ، الحصول على المياه اللازمة لحمام التطهير الذي كان ركناً من أركان معظم المراسيم . وثمة أسطورة تقضى بالمصير ذاته على بنات دانا اللاتي انتهكن حرمة الزواج انتهاكاً فاحشاً بأن قتلن أزواجهن . بيد أن الرسامين لم يكونوا هم وحدهم الذين يستوحون المذاهب القائلة بالعالم الآخر والتي كانت تنعش من حولهم ، فإن شاعراً عظيماً مثل بندار ، وكان

من جانبه من أتقى عباد الآلهة الرسمية ولا سيما أبولون وأكثرهم استنارة ، قد اجتذبت هذه التعاليم وضمها في أكثر من مرة قصائده التي كان يرمى بها إلى مواساة المريض أو المسكوم . وما زالت لدينا نقلا عنه أوصاف الحياة مباركة تزخر بألوان النشاط التي بعثتها اليوناني من أبناء الطبقات العليا ، ولكنها خلو من الشقاء والعوز . وفيما بعد أدخل أفلاطون نفسه في محاوراته أساطير يمكن القول بأنها أورفية الصبغة ، عندما استطاع أن يجد الصور الملائمة لأفكار من الحس والتخمين حول مصير الروح .

ولقد كان لهذه الصورة ، بطبيعة الحال ، وجه مخالف ، ففي بلاد اليونان كما في غيرها من البلاد كان هناك الأندال الذين يتجرون في الخوف مما سيحدث بعد الموت ، وهو الشعور الذي بدأ بحلول هذا العصر يداخل غير قليل من اليونانيين . ربما بصورة جمهورية حية مستديمة كما كان الحال بالنسبة للبعض ، أو عندما تنال منهم الشيخوخة أو السقم كما كان الأمر بالنسبة لغالبيتهم . ونحن نعلم من أفلاطون أيضا ، أنه قد قام هناك فريق ممن يتجرون في إصرار وإلحاف صكوك الغفران ، إن جاز لنا هذا التعبير ، فيطرقون أبواب الأغنياء ويخرجون لهم مكاتب بأكلها من وضع أورفيوس وموسايوس ، ويعلمون عن استعدادهم ، مقابل أجر معقول جدا ، لأن يحصلوا لهم على عفو إلهي عن أية آثام ارتكبها عملاؤهم ، بما في ذلك الآثام المتوارث من الآباء والأجداد ، أو أن ينزلوا اللعنة ، إن آثر عملاؤهم ذلك ، على أعداء هؤلاء العملاء . وغنى عن البيان أن هؤلاء الأدعياء كانوا أحصف من أن يأمرؤا بحياة تكشف وزهد ، بل إنهم كانوا ينصحون بتقديم الذبائح والقربان ، مع ما يصحبها من الولائم التي كان من شأنها جميعا أن تعود على القائمين بها ، بالفلاح في هذه الحياة ، فضلا عن السلامة من كل ألم وعقاب في العالم الآخر . ولم يكن لدى هؤلاء أي كتاب مقدس ينظر إليه الناس عامة على أنه كتاب منزل كيما يستشهدوا بآيات منه ، غير أن نصا لهومر لم يكن ليقل عن ذلك حجة ، فلم يفتهم أن يقتبسوا من أشعار هوميروس قول العجوز فونيكس Phoinix في

الإلياذة أن الآلهة إنما ترحم الذين يتقدمون لها بالصلوات والقربان . ويبدو أن هذا الأمر كان شائعا تمام الشيع خلال القرن الرابع ، أي وقت أفول العصور الكلاسيكية القديمة . حيثما كانت بلاد اليونان وقد أنهكتها سلسلة من الحروب الداخلية ، تضم أناسا كثيرين من المترقبين المتوجسين الذين هم أدعى إلى التحول بآمالهم إلى وجهة كانت تعتبر في نظر اليونانيين عامة وجهة شاذة . وكانت هناك وفرة أيضا من هذا الضرب من الكهنة الأميين الادعياء ، لامن أجل للأثرياء وحدهم ، بل من أجل أصحاب الدخل المحدود ، إذا ما رغب هؤلاء فيما هو أشد إثارة من معتقدات الدولة المترفة الوفيرة . ولقد كان ذلك الورع الذي تحدث عنه ثيوفراسترس ، والذي سبق أن عرضنا له ، من عملاء الأورفيوتيلستاي Orpheotelestai أو خدام الطقوس التي وضعها أورفيوس وإليهم كان يلتجئ مرة كل شهر ، بصحبة أولاده وزوجه ، إن لم تكن جد مشغولة ، وفي هذه الحالة كان يحضر المريية معه .

كان لدى الرجل العادي مصدران لمعرفة صورة الآلهة وما هم عليه : الفن والأساطير التقليدية التي تدور حولهم . ولم يكن أي من هذين المصدرين يمثل قوانين للإيمان ولكنهما كانا يلقيان قبولا عاما . فيندر أن يوجد من كان يساوره الشك ، في أن زيوس مثلا إذا ما ظهر في صورته الحقيقية ، واستطاعت عيون البشر أن تحتل مرآه ، سوف يتخذ مظهر رجل في جليل الطلعة في شرخ الشباب . أما أثينة فتظهر في صورة امرأة قوية البنية صارمة الفتة تحمل دروع جندي يوناني مترجل ، في حين أن جمال أفروديتي سيحمل طابعا أشد رقة وأكثر شهوانية أما هرميس فسيبدو في صورة شاب رشيق تنم ملاحه عن رقة وذكاء . ومع ذلك فقد ظهرت ثمة أصوات مذهقة . فقد كان يعيش قرابة مستهل القرن الخامس شاعر جوال أو منشد محترف للملاحم ، يتسم بغرابة أطواره يدعى أكسينوفانيس قضى ردها من حياته في مناقضة الشعراء أنفسهم بل والتشهير بهم وهم الذين كان يكتسب عيشه من وراء أعمالهم ، وكذلك الفنانين الذين كانت نقوشهم ولوحاتهم تزين المباني العامة التي يجتمع من يستمع إليه بالقرب منها أو في داخلها فيقرر

في إحدى قصائده بأنه لو استطاعت الماشية والخيل أن تصنع صوراً وتماثيل الآلهة لأظهرتهم في هيئة حيوانات. فالآلهة الخشبية زنوج فطس الأنوف، والمعبودات التراقية زرقاء العيون حمراء الشعر. أما أعظم الآلهة قاطبة فهو لا يبدو في صورة الإنسان ولا يفكر تفكيره، ولكنه البصر كله والسمع كله والعقل كله يحكم كل شيء بذهنه، دون جهد أو مشقة. ولا يعتربه قط تغيير أو تبديل. وحسبنا ذلك عن الفن. أما عن الأساطير فإن هومر، معلم البشر أجمعين منذ البداية وهسيود كذلك، قد نسب إلى الآلهة تلك الفعال ذاتها التي تعد أفحش ما يمكن أن يأتيه بنو البشر كالسرقة والزنا والغش. ولعل قلة من الناس هي التي ذهبت في ذلك العصر إلى المدى الذي ذهب إليه أكسينوفايئس، الذي كان يقف على الحدود ما بين الشعر والفلسفة (وقد وضعت العصور المتأخرة في مصاف الفلاسفة) ولكن كان هناك الكثيرون دون شك ممن هم على استعداد على الموافقة على بعض أقواله.

ذلك أننا نقف على ميل إلى تصحيح الأساطير القائمة، بما يتفق والخلق أو الدين، في زمن جد مبكر أيضاً عن ذلك الزمن. فإن هسيود هو الذي يروي قصة الأجبولة التي نصبها بروميثيوس للإلهة زيوس، بيد أن هسيود ذاته هو الذي يفسد هذه القصة بقوله إن زيوس لم ينخدع بحال في حقيقة الأمر، بل تظاهر بذلك لحسب. وكان من الممكن أن يبلغ بندار، مواطن هسيود، حدوداً بعيدة في مجال التخطئة والنقد. فقد زعم أن ثيتالوس أراد أن يختبر علم الآلهة الواسع بكل شيء، فقدم إليهم إداماً قوامه لحم ابنه بيلوبس. فتناول أحدهم شيئاً منه دون أن يتبين حقيقته، ومنذ ذلك الحين أصبحت لبيلوبس، رغم أنه أعيد إلى الحياة بصورة عجيبة معجزة كتف من عاج وليس من لحم.

وبدا ذلك في نظر بندار لحاداً بعيداً عن المنطق والعقل. فإن بوسيدون، الذي قتل بجمال بيلوبس انتزعه حياً إلى السماء، أما القصة القائلة بأن بيلوبس قتل بيد أبيه فهي محض افتراء. وفيما يتعلق بكتفه العاجية، فهذه كانت له منذ مولده. وعندما وقع أبولون في حب كورونيس، أم أسكليبيوس، وخانت هذه حبه

لم يندره أي طائر بسلوكها الشائن، بل إنه عرف ذلك بعلمه الإلهي الواسع. أما قصص المعارك التي نشبت بين الآلهة، فيحسن أن تظل سفراً مغلقاً، فبندار لا يجرؤ على التصدي لها. وبعد مضي أعوام على ذلك، عمد يوربيديس الذي كان داعية متطرفاً إلى الإصلاح في شؤون الدين كحاله في كثير من المسائل الأخرى، إلى أن يضع على لسان أحد أشخاصه هذه العبارة الجريئة التي تقول:

«إذا كانت الآلهة يأتون شيئاً إداً، فهم ليسوا بآلهة». أما بندار فلو نطق بذلك لقال: لأنهم آلهة ومن ثم فلن يأتوا قط شيئاً منكراً، مهما أرجف الناس عنهم بالآفاسيمص الباطلة. كما لم يكن الشعراء والفلاسفة هم الذين عمدوا وحدهم إلى إصلاح الأساطير على هذا النحو. فيبدو أنه قد ساد الاعتقاد في أثينة ردحا من الزمن، بأن الإلهة أثينا هي التي قامت بشخصها برفع بيسستراتوس إلى كرسي الحكم. بيد أن ذلك إنما كان يسيء إلى الإحساس الخلقي لدى الجمهورية التي قامت إثر سقوط أسرتها، فكيف لإلهة أن تنزل بنفسها إلى الحد الذي تشايع فيه طاغية من الطغاة، حتى ولو كان هذا الطاغية في مثل استنارة بيزاستراتوس واعتداله؟ وبحلول الوقت الذي تناهت فيه هذه القصة إلى مسمع هيرودوت، أي بعد مضي جيلين على إرساء قواعد الحكم الديمقراطي، لم تعد هذه القصة تعني غير أجبولة نصبها مغامر بخادع، عمد فيها إلى إلباس امرأة فارعة القامة جميلة الخيا بلباس لائق واصطحبها معه عند دخوله المدينة.

غير أن هيرودوت يساوره شيء من الشك، إذ يبدو غريباً له أن ينخدع الآثينيون وهم أهل فطنة وذكاء بتلك الخدعة البينة الضلال. غير أن البعض الآخر كان سيء الظن بمستوى الذكاء لدى العامة؛ وقلة قليلة، لا يبدو أنها لقيت ترحيباً كبيراً، هي التي ذهبت إلى حد اعتبار كل الأساطير وكل الديانات شبه خدعة بيسستراتوس المزعومة. لقد ذكر كريتياس عضو حكومة الأقلية وصديق سقراط، في مأساة من تأليفه أنه عندما كانت الحكومات وليدة، سرعان ما اكتشف أنه في حين أن القوانين يمكن أن تحد من الجرائم العلنية، إلا أن هذه الجرائم تظل مع ذلك ترتكب في الخفاء. ولذلك فإن رجلاً داهية ابتدع الآلهة، وقال للناس إنهم يعيشون أبداً وإنهم يعلمون كل شيء، ومن ثم فلا سبيل إلى

خداعهم ، وإن مسكنهم هو السماء ، وإن البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الطبيعية المروعة رهن إشارتهم . وعلى ذلك فالدين حائل مفيد يقوم في وجه النذل الأثيم . ولنا ندرى ما إذا كان هذا المذهب قد وضع على لسان شخصية محبوبة أو على لسان ذلك الرعيد الأسطوري سيسيفوس الذى سميت المسرحية باسمه ، ذلك لأنه لم يبق لدينا من هذه المأساة غير هذه الفقرة ، إلا أن هذا المذهب صادف قدرا معينا من القبول في بعض الأنحاء . وكان هذا هو الحال أيضاً — وإن وقع ذلك في عصور متأخرة بين الرومان أو المناخين عن العقيدة المسيحية — بالنسبة لخرافات يوهيميروس العجيبة ، وقد عاش نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ففى مؤلفه الذى يغلب عليه طابع الغباء وعثر عليه في جزيرة تقع على بعد مناسب ، نقف على نقش يبين في وضوح أن الآلهة التقليديين ما هم إلا آلهة حقيقيون وأن القصص التى تروى عنهم صادقة في معظمها ، بيد أن ثمة خلافا واحدا وهو أنهم كانوا في الأصل ملوكا أو أناسا من ذوى المسكنة ، رفعتهم شعوبهم إلى مرتبة الألوهية ، عرفانا منها بفضلهم أو تملقا ومداهنة . غير أن يوهيميروس لم ينكر وجود كائنات كالألهة على الإطلاق ، بل إنه ذكر بعض الآلهة السماوية وربما كانت هذه هى الأجرام السماوية . كما لم ينكر وجودهم بحال أبيقور . الذى كان معاصرا له ، ذلك لأن مذهبه كان يفترض ضمنا وجود الشخصيات التقليدية للآلهة في واقع الأمر . بيد أن دارهم تقع بعيدة في الفضاء ، فيما بين الأكوام العديدة التى سلم أبيقور بوجودها ، وهم في أكمل سعادة وجور ، ومن ثم فلا تثقل كواهلهم مثل تلك الواجبات الشاقة كالنظر في شئون الدنيا أو رعاية البشر . وهم لم يخلقوا شيئا ، ولن يصيبوا بأذى جمادا أو إنسانا . لقد كتب يقول :

« إن كل من تبارك من الخالدين ، لا يعانى هو ذاته من المتاعب ، كما لا يثيرها لغيره ، ومن ثم فلا يخضع لنوبات الغضب أو مشاعر الرضا ، لأن مآل ذلك كله إلى الضعف . »

ومثل هذه الكائنات كانت جديدة حقا بالإعجاب ولكن ينبغى ألا يخشى

بأسها أو ترجى نعمائها . وقبل الزمن الذى عاش فيه أى من هذين الرجلين قال السفسطائي العظيم بروتاجوراس إنه لا يمكنه أن يقطع بما إذا كان الآلهة موجودين أو غير موجودين . ولكن الإنكار التام للآلهة كان ظاهرة نادرة الوجود حقاً في العالم القديم ، بل إنه لا يلبث في الغالب الأعم أن يتضح بالبحث والتدقيق أن من سموا بالملحدين ، كانوا من المنكرين للأفكار الدينية السائدة لحسب . ومن الطريف أن نذكر أن هذه اللفظة أطلقت على المسيحيين الذين أنكروا بطبيعية الحال ألوهية جميع المعبودات الوثنية ، إلا أنهم لم ينادوا دون شك بعدم وجود الله على الإطلاق .

وهكذا فإن الغالبية العظمى من الجنس اليوناني ، واصلت الاعتقاد بوجود آلهة من نوع أو آخر ، وعادة ما كانت تؤمن بوجود الآلهة التقليديين . ولكنه ما إن تفاقم الموقف السياسى لدى مدن الدول اليونانية ، حتى بدأ الشك يساور الكثيرين فيما إذا كانت الآلهة جديرين بلقب « المنقذين » ، لقد أعلن سولون أن مدينة أثينا إنما تحميها يدا إلهتها الحارسة الجبارتان . وخلال العهد المقدوني تحولت أثينا من أمير إلى آخر أكثر من مرة وكانت في أغلب الأحيان تخضع للسيطرة الأجنبية . فما الذى دهم قدرة الإلهة أثينا على الإنقاذ ؟ وإذا كانت هى ومثيلاتها لا يستطعن درء الخطر عن عبادهن ، فإلى من يتطلع الناس ؟ وثمة جواب عن ذلك ، على الرغم من أنه لم يصادف قط ترحيبا شعبيا كبيرا في بلاد اليونان ذاتها ، إلا أنه نال رواجاً واعترافاً من الدولة على أقل تقدير ، ففي كثير من المدن التى تتكلم اليونانية مثل الإسكندرية ، حيث كان السكان في غالبيتهم لا ينتمون لأصول أوربية بل كانوا ثمرة نشر الإسكندر الأكبر للحضارة الهلينية إلى قلب آسيا وإلى مصر .

وكان الجواب هو أن ضربا جديدا من الآلهة المنقذين تجلى في أشخاص الملوك العظام الذين خلفوا الإسكندر ، وإن من الأهمية بمكان الظفر بتحالفهم وصدقاتهم . وإذا كان هؤلاء الرجال قادرين على الإنقاذ وهو ما يفترض أن الآلهة قادرة عليه ، فإذا يحول دون الخروج بالنتيجة المنطقية ، ودعوتهم بالآلهة؟ ولم يكن الأمر محض تملق ، ولو أن ذلك أثار نفور كثير من الآثينيين ، عندما

عاطب شاعر آتينى ذلك الأمير الألعى ديميتريوس بوليوركيثيس الذى كان مع ذلك هوائياً قُلْباً . وذلك عند زيارته لمدينتهم ، بهذه الكلمات .

« غيرك من الآلهة يعيشون بعيداً ... بعيداً جداً

أو ترى أنهم صم الآذان ؟

أو لعلهم غير موجودين ، أولاً يابهون بأحوالنا شروى فقير

أما أنت ، فإننا نراك أمامنا ،

ليس من برونز أو رخام ، بل بشخصك أنت

وذلك فإننا نتضرع إليك قائلين :

أنعم علينا أيها الحبيب ، بالسلام

لأنك أنت مالكه ومأمحه .

ولم تكن هذه بشطحة من شطحات شاعر ، لأن المدينة كانت قد خرجت على بكرة أبيها لاستقبال الزائر العظيم ، وهى متوجة بالأكاليل ، مطلقة للبخور ساكنة لقرايين الخمر . كما لم يكن الأمر مقصوداً على أثينا وحدها ، فإنه لم تلبث أن انبثقت فى عدة أماكن معابد باسم أم ديميتريوس ومحظياته ، أما عن ديميتريوس نفسه فقد عزي إليه أنه ابن بوسيدون وأفروديتى . وعلى الرغم من طموح ديميتريوس وسلوكه الشاذ المتقلب فى حياته ، فإنه كان أحصف من أن يستسيغ مثل هذه الأمور ، على خلاف ذلك الشخص الشاذ ، مينيكراتيس Menekrates ، الطبيب ، الذى أصر على أن يلقب بزيوس ، وأطلق أسماء الآلهة الصغرى على مرافقيه وقد كانوا من المرضى الذين برئوا ، فى زعمه ، من الصرع (ويعرف فى اليونانية « بالمرض المقدس » ، لأن الشائع عنه أنه انتقام إلهى) . وكان هذا المخلوق الشاذ ، الذى يبدو فى الحق أنه كان على قدر كبير من المهارة فى مهنته ، مواطناً لسرقسطة ، يخاطب الملوك على قدم المساواة كما يخاطب حاكم حاكماً آخر (وهى نعمة لم تعجب فيليب الثانى المقدونى ، والد الإسكندر) ويحاكى فى ملبسه تماثيل الآلهة ، وعلى الأخص زيوس بطبيعة الحال .

ومع ذلك فإن هؤلاء الشواذ أنفسهم من الأفراد المختلى العقول فيما يرجح ، لم يكونوا يثيرون كبير نفور من جانب الوعى الدينى العام ، كما لم تكن لهجتهم بيئة الإلحاد ، كما يظهر فى حالات الجنون المماثلة التى تقع فى الوقت الحاضر والتى توضع على الفور وكقاعدة عامة تحت العلاج المناسب فى مستشفيات الأمراض العقلية . والحقيقة أن ثمة شقة بعيدة تفصل ، فى نظر العقلية اليونانية العادية ، بين البشر وبين الآلهة ، فيقول بندار إنهم أبناء أم واحدة ، إلا أن الإنسان هو والعدم سواء ، أما الآلهة فلمهم سماؤهم التى ستبقى راسخة إلى الأبد . بيد أن هذه الشقة ليست ممتدة إلى غير انتهاء ، كما أن التقريب بين طرفيها ليس متعذراً تماماً . فقد كان فى تقدير العامة ، أن عدداً من الآلهة القائمين كانوا يوماً ما فى عداد البشر ، وعلى الأخص هرقل الذى اتخذ فى الحقيقة أكثر من مذهب من المذاهب الفلسفية المتأخرة مثله الأول على ما يمكن أن تودى إليه الفضيلة المطلقة من السمو بإنسان هالك إلى ما فوق مستوى البشرية جمعاء .

وفىما يتعلق بمعشر الملوك بالذات ، ومنذ عهد أفلاطون على أقل تقدير ، حين بدأ يتضح للمستنيرين فشل الديمقراطية اليونانية . وحين اتجه الرأى إلى الأخذ بنظام من النظم الملكية ، استن مستوى بالغ السمو معياراً للشخص ذى الطبع الملكى الأصيل ، أى الشخص الذى يصلح لحكم دولة من الدول ، سواء حمل لقب الملك أو لم يحمله . وعندما قلب الإسكندر وخلفاؤه الوضع السياسى داخل الأقطار التى تتكلم اليونانية وفيما وراءها ، مستعاضاً عن الممالك الكبرى بوحدة سياسية أصغر منها ، فإن مسألة ماهية الملك المثالى ، وما ينبغى أن ينشأ عليه الطامح إلى مثل هذا المنصب العظيم ، أصبحت تتجاوز فى أهميتها النطاق النظرى ، وقد ديجت حول هذا الموضوع مئات المقالات ، آلهة أثينا منها قدر هائل من القصصات وكثيراً ما نقف فى مثل هذه المقالات ، وليس فى شعر البلاط فحسب على تصريحات تقول إن الملك إن لم يكن إلهاً بالمعنى الحرفى فهو يضارع على الأقل أحد الآلهة ، وإنه يعادل على الأرض معبوداً فى السماء وإنه من طراز نادر الوجود ؛ يفوق إلى حد بعيد المستوى العادى لسائر بنى البشر ، وإنه شبيه بزيوس نفسه ، ولا يقل عنه

من حيث مكانته الأدبية ، وهلم جرا . ومن ثم فلم يكن ينبو عن منطق أو عقل أن يؤله أى ملك قدير حين توافيه منيته ، كما اتفق على سبيل المثال ، لعدد من البطالمة في مصر . ومع ذلك فإن هذا الإجلال لنظم الحكم الملكية ، بالإضافة إلى أساسه النظرى ، ظهر أساسا خارج بلاد اليونان الأصلية وخارج مستعمراتها القديمة الأولى ، والحديث عنهما إنما هو أخرى بتاريخ للديانة الرومانية أو على الأصح للديانة اليونانية الرومانية ، عنه بتاريخ للديانة اليونانية البحت ، ولنعلم إلى التطورات التي كانت أكثر من هذه شيوعا في بلاد اليونان .

وبغض النظر عن أساليب معالجة الأساطير التي سبق أن عرضنا لها فإن ثمة أسلوبين آخرين على الأقل لقيتا ترحيبا كبيرا . فمن كان لهم بعض الميل إلى الفلسفة كانوا عرضة للأخذ بالمذاهب الجديدة الناشئة بين المدارس الفلسفية أو ما كان قبل المدارس الفلسفية وهي المحاضرات التي كان يلقيها سفسطائيو القرن الخامس . ويقوم أحد هذين الأسلوبين على النظر إلى الأساطير على اعتبار أنها تناول قوى مجسمة للطبيعة . ومما ساعد على تعزيز هذا الافتراض لغة الشعر التي اعتادها الجميع لكثرة المؤلفين الذين كانوا يكتبون نظما والذين كانت أعمالهم تتخذ أساسا للتعليم في مختلف المدارس اليونانية . مثال ذلك أنه منذ عهد هومر أصبح من المؤلفين أن يذكر اسم هينايستورنس دون أن يكون المعنى شيئا غير النار . وفضلا عن ذلك ، فإن نسبة معينة على أقل تقدير من المعبودات الصغرى ، كانت تمثل في الواقع ضربا من التجسيم ، بمعنى أنها نشأت عن النظرة الروحانية إلى الطبيعة . وهكذا فإن اللفظة ذاتها « بورياس » Boreas كانت تتخذ دلما على ربح الشمال وعلى الكائن الأسطوري المهيمن عليها في الاعتقاد السائد . ومن ثم فلم يكن الأمر يتطلب بالغ عبقرية (كما يوضح أفلاطون عندما يتظاهر ساخرا بإعجابه بعبقرية هذه النظرية) قائلا إن القصة الآيسكية التي تروى كيف أن بورياس قد اختطف ابنة أحد ملوك أثينا وبني بها لم تكن غير تصوير شاعري لمصرعها إثر حادثة مؤسفة . فقد أطاحت بها من فوق قمة جبل ربح صرصر ، فلقيت حتفها . وكثير من التفسيرات كان يفوق ذلك إلى حد بعيد لإحكاما وإتقانا ، ونسبة غير

يسيرة منها أيضا كانت تعتمد على اشتقاقات لغوية لم تكن تخرج في الغالب عن كونها ، وعلم النحو والصرف مازال وليدا ، أمثلة سيئة سخيصة على التورية . وقد اتخذ زيوس هدفا لبعض هذه التوريات البالغة في السخف . فإن اسمه ، وهو اسم حقيق في القدم ، يصرف على أكثر من وجه ، ومن بين الصيغ الناتجة ، صيغة المفعول هي Dia وصيغة تابعة للفاعل هي Zen أو Zan واتفق أن جاء وقع هاتين الصيغتين على السمع مشابها لوقع اللفظتين اليونانيتين اللتين تعنيان على التوالي « بوساطة » و « يعيش » ، حتى إنه كثيرا ما تردد ، على نحو أو آخر ، الزعم بأن زيوس سمى بهذا الاسم لأنه القوة التي بوساطتها يجري كل شيء أو أنه القوة الواهبة للحياة ، وتعرضت زوجه لتأملات مماثلة . فما كان أيسر أن يحور اسمها وهو « هيرا » Hera إلى « إير » aēr ذلك لأن الهاء التي تنطق مخففة دائما في اللغة اليونانية ، جنحت جنوبا شديدا إلى الاختفاء كلية في بعض اللهجات ، كما لم تكن تكتب دائما بحرف مستقل في الأبجديات الشائعة .

ومن الواضح أنه بقبول هذه الفكرة تلتفى جميع الاعتراضات التي تقوم في وجه الأساطير التي تروى حول هيرا . فالإلهة الحقودة الحسودة المنحرفة المزاج قد لا تكون موضعاً يليق بالعبادة ، ولكنه إن قيل إن الأساطير ليست إلا أسلوبا مجازيا للتعبير عن الاضطرابات الجوية ، فلن تلبث أن تصبح هذه الأساطير زخارف شعرية لا ضير منها . أما عن أبيهما واسمه كرونوس kronos فقد انقاد في يسر لمثل هذا التلاعب اللفظي الذي كان دافعه الغيرة على الدين ، ذلك لأن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من جعل الحرف الأول من اسمه حرفا هائيا لكي يصبح في اليونانية خرونوس chronos أى الزمن . فثمة قصة بالغة القدم تروى كيف أن كرونوس عمد ، خشية أن يطيح به أولاده ، إلى التهامهم الواحد بعد الآخر أو التهام الذكور منهم على أقل تقدير ، حال مولدهم . والاعتقاد في مثل هذه الأمور عن إله حقيق كان حريا بأن يفجع من كانوا يأخذون الأساطير أصلا مأخذ الجد ، ولكن أى بأس في أن يقال إن هذه القصة ترمز إلى الحقيقة الماثلة في أن الزمن الذي يتيح لكل شيء أن يحدث هو الذي يضع كذلك النهاية لكل شيء ؟ وقد أدت عبقرية اليونانيين التي اقترنت بالإجلال العظيم لحكمة السلف وتقواهم ، إلى أنهم انسقوا في تفسير

تراثهم الأدبي على أوجه تبلغ الغاية من الغرابة . وقد خلف لنا بلوتارخ الذى تعد مؤلفاته ذخرا للتأملات الطريفة التى التقطها من مطالعته الواسعة وأضاف إليها من بنات أفكاره ، فقد كان مفكرا متدينا عميق الإيمان بطبعه ، مقالة عن أوجه الإفادة من دراسة الشعراء . وتتضمن هذه المقالة أمثلة بارزة تماما على ما أجراه بلوتارخ من تحريف وتأويل للمعاني البسيطة التى قصدها هؤلاء الشعراء ، وبخاصة هومر ، فى سبيل أهداف أدبية ودينية . مثال ذلك أن هومر يقول إن الآلهة ينسجون للبشر التعساء ، حياة شدة وبلاء ، وهذا النعت من اللوازم التى تتردد دوما فى الشعر الملحمى . ولكن الذى لاشك فيه أن الآلهة لرحمتهم لا يأتون مثل هذا العمل قط . وعلى ذلك فينبغى أن نفهم هذا النعت ، حسبما يقول بلوتارخ ، على اعتبار أنه صادر عن روح من الشفقة والعطف على الحق من الناس الذين يحبون فى الحق حياة شقية ، لأن حقهم وسوء فعالهم يجعلونها كذلك .

يقول هسيود إن بروميثيوس نصح أخاه البادى البلادة إبيميثيوس ألا يقبل أية هدية من زيوس . بيد أنه ما من شك فى أن بروميثيوس لم يكن ليسدى أحدا مثل هذه النصيحة المنافية لدواعى الدين . فالواضح إذن أن اسم « زيوس » كان يستخدم ، وفق ما هو مباح فى الشعر ، بديلا عن لفظة « الحظ » ، وأن التحذير الصادر إلى إبيميثيوس هو ألا يولى ثقته أضائل الدنيا وثرأها الذى يأتى عفواً وحظا ، لا عن جدارة واستحقاق . ومن كان من القراء محيطا بالشرح القدامى للإنجيل ، سوف لا ينكر شيئا من هذا التفسير ، ولا غرو فإن المعانى الغريبة التى استنبطها النقاد القدامى مثل فيلون السكندرى وأريجن بوجه خاص ، من النصوص الإنجيلية إنما تتصل بنسب مباشر إلى ذلك التفسير الأخلاقى للكتاب الكلاسيكيين القدامى .

وإذا كانت الأساطير التى تعرض على أقل تقدير قضايا محددة ، والشعراء الذين يصوغون هذه الأساطير وفق أهوائهم ، قد تعرضوا لمثل هذه المعالجة الغريبة ، فلم يكن لينتظر أن تترك الطقوس دون تعقيب . وقد صدق أرسطو حين قال فى فقرة شهيرة له إن الذين يمرون بمراسيم الاطلاع على الأسرار المقدسة لا يقدر لهم أن

يتعلموا شيئا ، بل أن يمروا بتجربة معينة وحالة ذهنية خاصة . كما أن عددا ليس بالقليل ، كما سبق أن بينا من كانوا يمرون بمراسيم كذلك التى تجرى فى إليوسيس ، كانوا يقومون بها وقد تولتهم رهبة عظيمة . ويبدو من الوهلة الأولى أن شيشرون الذى تعد مؤلفاته الفلسفية ذخرا لكثير من النظرات اليونانية التى تنسب إلى عصره وإلى عصور سابقة ، يناقض أرسطو عند الحديث عن إليوسيس ، فى قوله : « إنما لا تعلمنا فى ابتهاج لحسب سراط الحياة بل تعطينا كذلك أملا أفضل عند الموت » . ولكن بلوتارخ ، كما هى عادته فى أغلب الأحيان ، يدلى لنا بمفتاح السر . فمن رأيه أن شيشرون قد اصطحب معه إلى مراسيم اطلاعه على الأسرار المقدسة « مذهبا فلسفيا ليكون هاديا له » . فقرأ فيما شهدته فى قاعة الأسرار أفكارا كان قد حصلها من محاضرات أحد الفلاسفة أو من مطالعته الخاصة . ولكن أبعد ما يكون عن الصدق أن يقال إنه الشخص الوحيد الذى أتى مثل هذا العمل أو أن طقس إليوسيس هو الطقس الوحيد الذى أمد من جاءوه ، ولو ببوادر أولوية لديانة تختص بهم ، بمادة للتثقيف والتهديب الخلقين . مثال ذلك أن التطهر كان فى العقيدة اليونانية كما فى سائر العقائد الأخرى ، فرضا واجبا على من يؤمون الصلاة سواء فى المعبد أو فى أى مكان آخر . وأول ما تجدر الإشارة إليه أن ذلك كان إجراء رسميا . فمن كان ينتوى الصلاة كان عليه أن يغتسل ويرتدى ملابس نظيفة من اللون المقرر (فإننا نعلم من أحد النقوش ، على سبيل المثال ، أن النسوة اللاتى كن يبعين الانضمام إلى عقيدة ديسبونا Despoina ، وهى إلهة كانت تعبد فى لوكوسورا Lykosura فى البليوتير ، كان محرما عليهن أن يتزين بأية حلى أو يفتعلن أية نعال ، أو يرتدين ثيابا سوداء أو أرجوانية أو أية منسوجات مطرزة) كما كان يراعى أنواعا طقسية مختلفة من الصيام ، يسرى بعضها على أنواع معينة من الطعام ، كما كان الحال فى لندوس Lindos بجزيرة رودس . حيث كان لزاما على من تناول جبنا أن ينتظر حتى ينقضى يوم قبل دخوله المعبد ، أما إذا كان قد تناول لحم معز أو شيئا من البقول فيلزمه ثلاثة أيام . غير أن الزهد فى الجنس كان من أهم الشروط الواجبة ، فقد كان الجماع يجرى الشخص بصفة عامة من أهلية العبادة مدة قد تطول وقد تقصر ، وكذلك الحال أيضا عند مساس طرفى الحياة . أى المرأة عند ولادتها

أو لجسد الميت . ولكن المبادئ الخلقية لم تلبث أن اقتحمت هذا الميدان . ففى
برجاموس ، على سبيل المثال ، إذا اضطجع لرجل مع زوجته أو المرأة مع زوجها
فكلاهما يقابل بالترحاب فى معبد الإلهة أثينا فى ذلك اليوم ذاته . أما إذا كانت
الشهوة غير مشروعة فالأمر يتطلب انقضاء يومين والاغتسال فى حمام تطهيرى .
وليس فى ذلك عظيم تفرقة غير أنه يعزى إلى ثيانو زوجة فيثاغوراس ، أنها انتقلت
بهذا التحريم القديم كلية إلى المجال الخلقى . فقد سألتها سائل ، باعتبارها عمدة فى
المسائل المتعلقة بالطقوس المقدسة ، عن المدة التى ينبغى للمرأة أن تقضيها بعد
اتصالها برجل حتى تصبح طاهرة من وجهة النظر الدينية فأجابته بقولها : « إن كان
هذا الرجل بعلمها ، فهى طاهرة فى التو واللحظة ، أما إذا كان شخصا آخر ، فلن يتأذى
لها ذلك قط . » وثيانو إنما تمثل شخصية غامضة ، شأنها فى ذلك شأن معظم أتباع
فيثاغوراس الأوائل ، غير أنها لا تنفرد وحدها بهذه النزعة . وإذا كان لنا أن نسلم
بصدق بعض الأساطير الدينية التى رويت حول دلفوى ، وأشهرها قصة المسافرين
الثلاثة ، جاز لنا القول بأن أبولون الذى اشتهر بدعوته إلى الطقوس التطهيرية .
لم يسلم من التأثير بهذا الاتجاه الرامى إلى استنباط العبرة الخلقية منها . فقد هاجم
قطاع الطرق وهم فى طريقهم إلى المعبد ، ففر واحد منهم ودافع الآخرين عن
نفسيهما ، ووسط الهرج والمرج أصاب أحدهما الآخر عن غير قصد بجرح أودى
بحياته . غير أن قطاع الطرق غلبوا على أمرهم وولوا الأدبار ، فهرع من كتب له
النجاة ، وقد تدنس بدم صديقه ، إلى الوحى ليسأله عما عساه أن يفعل لكي يطهر
فأجاب الإله على لسان كهنته بقوله :

« لقد قتلت يا هذا صديقك وأنت تحاول الدفاع عنه ، فهذا الدم لم يدنسك ،
بل إنك أظهر مما كنت . »

ولكن عندما بلغ المعبد الحاج الذى فر ، طلب إليه أن يغادره لأنه ليس أحسن
حالا من قاتل مجرم . وقد أذاع واحد من الناس مقطوعة شعرية بديعة زاعما أنها
جاءت على لسان الوحى فى دلفوى . وكانت تهيب بالمصلى أن يأتى فى حالة من
الطهر ، ولكن هذا الطهر هو طهر الروح . وحسب الأبرار إذا أرادوا التطهر أن

يغتسلوا اغتسالا عاديا فى مياه جارئة ، أما الأشرار فلن يكفيهم مجرى الأقيانوس
كله . ووضع شاعر آخر على لسان الإله أن الأبرار ليسوا فى حاجة إلى أى تطهر
على الإطلاق وأن أبواب المعبد مفتحة على مصاريحها أمامهم ، فى حين أن الأشرار
لن تطهر أرواحهم قط ، مهما أمعنوا فى غسل أبدانهم . وبغض النظر عما إذا كان
قد قدر لكهنة أبولون الرسميين أو لم يقدر لهم ، أن يذيعوا أقوالا كهذه ، فلا
جناح علينا فى القول بأن هذا الضرب من الآراء والمشاعر هو ما كان الكثيرون
يعتقدون أنه يلىق بهذا الإله . وهكذا فإنه بنمو الوعى الخلقى لدى المستثيرين
نسبيا من بين اليونانيين ، عمد هؤلاء إلى تفسير الفروض الدينية اليومية بما يتفق
وهذا الوعى ، كما نسبوا إلى معبوداتهم المبادئ ذاتها التى كانوا هم أنفسهم يعتقدونها
ويتبعونها فى أغلب الأحيان . وإذا ما رجعنا إلى بلوتارخ مرة أخرى لىكون هاديا
لنا ، بالنظر إلى أنه أحب الأتقياء الذين نعلم من أمرهم شيئا ، والوحيد الذى آلت
إليها مؤلفاته كاملة تقريبا ، وقفنا لديه على شواهد غريبة على هذا الاتجاه . فقد
كان عظيم الاهتمام إلى أبعد حد بالطقوس الدينية سواء اليونانية منها أو الأجنبية ،
ووجد فيها مادة لمذهبه العقلى الرقيق ولمشاعره الكريمة الفياضة . وإذا أيقن أن هذا
هو المغزى الذى ترمى إليه الطقوس ، لم يتورع عن أشد ضروب التشبيه والتشيل
جرأة ، مثال ذلك أنه كان يعلم أن نصب الحرب التذكارية الدائمة كانت من قبيل
المستحدثات فى بلاد اليونان ، وأنه كان من عادة الرومان فى القديم ألا يرموا
هذه النصب أو يجددونها . ويقام النصب التذكارى للمعركة (tropaion) فى النقطة
ذاتها التى منى عندها العدو بالهزيمة (tropé) . ويتألف النصب عادة من عدة من
الدروع تؤخذ من العدو وتقام فوق مرتفع من الأخشاب . والغالب أن يستخدم
لهذا الغرض جذع شجرة يبرز منه غصنان قصيران فى وضع متعارض . ولعل
ذلك كان فى الأصل جزءا من الأعمال السحرية المختصة بالحرب حيث كان عتاد
الأعداء يعرض للعوامل الجوية حتى يتساقط أجزاء متناثرة ، أملا فى التأثير بالمثل
على العتاد الذى مازال فى حوزتهم وعلى قدرتهم على خوض الحرب . أما بلوتارخ
فقد كان من رأيه أن مبتدعى هذه العادة إما أنهم أرادوا ألا يطيل مواطنوهم

النظر في آثار بسالتهم وانتصاراتهم الغابرة ، بل أن يسعوا إلى اقتناء شهرة جديدة بآثار جديدة ، وإما أنهم لم يكونوا يرجون للعداوة طول بقاء ، فهيأوا لكل ما قد يذكّرهم بها أسباب الانحلال العاجل . وكان يعلم أيضا أن اللون الأبيض يتخذ في بعض الأحيان لونا للحداد وأن الموتى يتشحون في الغالب بالبياض وأنهم يشيرون إلى القبر وعلى رؤسهم أكاليل الغار . وفي ذلك دلالة في نظره على حكمة الأقدمين الذين شرعوا هذه العادة ، وتفاؤلهم في مواجهة الموت ، فالمت قد تحرر من الجسد الذي كان يدنس روحه أو يصبغها كما تفعل مواد الصباغة في نسيج الصوف . وهو كذلك قد خرج مظفرا من معترك الحياة . أهنك ، إذن ، ما هو أليق من أن تخلع عليه ثياب بيض رمزا إلى طبيعة الروح الحقيقية من حيث بساطتها ومن حيث إشراقها ووضاءتها كذلك ؟ أما عن إكليل الغار ، فقد كان يشبهه البعض دون شك — وإن كان ذلك غير مؤكد بالنسبة لبلوتارخ — بذلك الذي كان يضعه اللاعب المظفر في المباريات الرياضية .

والهة بلوتارخ رحيمة شفوقة بريئة من كل حقد وغل ، والنظر إليها على وجه يخالف ذلك ، خرافة وضعية ، أدعى إلى إثارة سخط الآلهة ، من أى ضرب من الإلحاد أيا كان . ومن تعاليمه التي وردت في فقرة شهيرة من مبحثه هذا ، حول الخرافات ، أن من الأيسر عنده هو نفسه أن ينكر الناس أن شخصا اسمه بلوتارخ كان له وجود على الإطلاق ، من أن يقال عنه إنه كان رجلا تسول له نفسه أن يكون وضعيا في غضبه ، غنيفا في انتقامه . ولاريب في أن هذا هو الحال أيضا مع الآلهة . بيد أن ثمة نعمة واحدة ينشدها منهم أولا وقبل كل شيء ألا وهي الحكمة ، ولا سيما تلك التي تقود إلى المعرفة بالطبيعة الإلهية . فهذه ، كما يحدث صديقه « كلسيا » وكانت سيدة توافقه في المشرب ، هي أمر يشاركنا فيه الآلهة في حين أن نعمهم الأخرى لاتعدو أمورا يمنحونها إياها بحسب حاجتنا . وعظمة الآلهة تكن في حكمتها لا في قوتها ، ولو لم تكن لها مثل هذه الحكمة ، لكانت حياتها الأبدية أمدا فارغا .

والغاية من العبادة الحققة هي المعرفة gnosis ، وهي لفظة سنتناولها

باستفاضة في مواضع أخرى . وفطنة المعرفة هي الأسرار ، إذا ما أمكن إدراكها على الوجه الصحيح ، وقد تتضمن في بعض الأحيان دقائق غريبة .

و أما عن القول بأن أوزيريس هو ذاته ديونيسوس ، فمن أدري منك بذلك يا كلسيا ، وأنت من زعميات « الثوثياديس » ، Thyiades (أى عابدات ديونيسوس) في دلفوى ، ثم رؤيتك الأسرار المقدسة وفقا لطقوس أوزيريس ، كما حدث لوالدتك وأبيك من قبلك ؟ ولكننا إن وجب علينا أن نقيم الدليل على ذلك خدمة للغير ، فما أحرانا أن نترك هذه الأمور السرية وشأنها ... »

ويمضى بلوتارخ فيدل على تطابقها استنادا إلى بعض الطقوس المصرية . والجدير بالذكر أن هذه كانت سمة من سمات العصر . فنذعصر الإسكندر تقريبا ، كان هناك ميل مطرد . إلى التوحيد بين مختلف الآلهة سواء الوطنية أو الأجنبية . ويعرف هذا الاتجاه في العصور الحديثة تعريفا غير دقيق باسم « حركة التوفيق العقائدى » ، syncretism ، وقد تبدى هذه في بعض الأحيان في صور فنية غريبة كأن يظهر أحد المعبودات وقد حل بأشياء مقدسة لمعبود آخر أو لعدة معبودات أخرى . وغنى عن البيان أن هذه الحركة ازدهرت في تلك المناطق التي التقت فيها الديانة والحضارة اليونانية بمشكلاتها في البلاد الأخرى ، ولا سيما في الإسكندرية ؛ موطن عقيدة سراييس التي كانت من خلق بطليموس الأول ، مستعينا بمشورة أحد الخبراء العسافرين وهو تيموثيوس الإليوي . وحدثت هذه العقيدة ما بين العناصر اليونانية والمصرية ، والبابلية كذلك فيما يبدو ، وكان يراد بها أن تكون عبادة تتيح للجميع فرصة المشاركة فيها دون النظر إلى الاعتبارات الجنسية أو الميول المحلية . ولكن ذلك لا يعدو كونه مثلا متطرفا على ما نحن حقيقون بأن نصادفه في كل منعطف ، إذا ما عولنا على أن نفحص في شيء من التدقيق مظاهر الديانة اليونانية المتأخرة طوال العصر الهيلينى ؛ أى فيما بعد الإسكندر وقبل الفتح الرومانى لمصر . وكما رأينا وقعت أمور مثل هذه من قبل ، كما حدث عندما اعتبرت الإلهة أرتميس والإلهة أورثيا إلهة واحدة ، وحين عد أبولو و « الشمس » ،

لها واحدا ، غير أن العصور المتأخرة ذهبت بهذا الاتجاه مذهبا بالغ التطرف والشطط ، بحيث إنها أدجحت آلهة لم يكن في الأصل يوجد بينها وبين بعضها البعض أدنى وجه للشبه ، ثم زادت الطين بلة بإفحامها عناصر غريبة كل الغرابة عن العقيدة والفكر اليونانيين .

ولكن فلنعد إلى بلوتارخ ومن كانوا يحذون حذوه في التفكير ؛ وقد كان هؤلاء كثرة فيما نظن ، فعلى الرغم من نظرة التفاؤل التي كان ينظر بها إلى الآلهة عامة ، لم يسعه إلا أن يلاحظ أن الأمر لا يقف لحسب عند وجود أساطير تصور البعض منهم وهو يسلك سلوكا لا يتفق البتة مع أية نظرية متقدمة من نظريات الدين ، بل يتعدى ذلك إلى وجود طقوس ترمي إلى استرحام قوى معادية غير صديقة ، ودعوتها لا إلى فعل الخير على أى وجه بل إلى أن تكف أذاها لحسب . ووجد بلوتارخ وكثيرون غيره حلا لهذه المعضلة في فكرة الجان *daimones* . وعلى حين أن هذه اللفظة لم تكن في البداية فيما يبدو غير لفظة مرادفة وإن كانت أشد إبهاما من لفظة « الآلهة » ، فإنها قد جنحت منذ عهد هسيود فصاعدا إلى الدلالة على كائنات تفوق طبيعة لاترقى إلى مرتبة الآلهة ، ثم أخذت بحلول الوقت الذي بلغ فيه أفلاطون سن الكهولة أى نحو منتصف القرن الرابع ق . م تتخذ معنى محدداً تمام التحديد . ومن المحتمل بالنسبة لأفلاطون ومن المؤكد بالنسبة لاتباعه وخلفائه المباشرين أنهم قد صنفوا مذهبا جديدا فيما يتعلق بهذه الكائنات . فسكنها الحقيقي ليس هو السماء التي هي ملك الآلهة ، وليس هو الأرض التي هي وطن الإنسان والحيوانات الدنيا ، بل الهواء الجوى الذي يقع بين السماء والأرض . وتتفق ودارهم الواقعة في مكان متوسط ، طبيعتهم الوسط . فهم أسمى مرتبة من البشر وأدنى مرتبة من الآلهة . فالإله كامل الخلق ، أما الجان *daimon* فليس كذلك بالضرورة ، فقد يكون صالحا أو طالحا ، وعلى أية حال فإنه يكاد يشبه الإنسان في تأثيره بالانفعالات والعواطف ، ومن ثم فهو عرضة للفعل الإخرق ، وللانحراف عن جادة الحق والعدل في سبيل تحقيق غاية شخصية ، وقد يستبد به الغضب أو يقع في عشق وهيام ، إلى آخر ذلك . والجان *daimon* في رأى البعض

على الأقل من أسهموا في صوغ هذه النظرية ، ليس خالدا أو هو ليس كذلك على الدوام ، كما أنه ليس روحانيا عديم الجسد . وفي اللحظة التي لقي فيها مثل هذا الاعتقاد الإيمان والتصديق ، وهو ما حدث فيما يبدو في زمن مبكر ، فضلا عن أنه لم يقتصر على الدوائر الفلسفية وحدها ، كان لابد له أن ينمو ويكثر تشعبه بعد أن أدخلت عليه ألوان أخرى من التعقيد ، حتى انتقل إلى النظريات المتعلقة بالملائكة والشياطين لدى المفكرين المتأملين المسيحيين ، من أمثال ذلك الكاتب التحرير الذي استعار في كتاباته اسم ديونيسيوس الأريوباجي وشخصيته ؛ وهو المواطن الأثيني الذي اعتنق الدين المسيحي على يد القديس بولس . ولكنه قبل أن يقع ذلك بزمن طويل ، أو قبل حلول المسيحية ، أعان هذا الاعتقاد المؤمنين الأتقياء على إيجاد مخرج لهم من كثير من المآزق . فإذا كانت ثمة أسطورة اكتسبت وضعاً رسمياً لقدم عهدا أو لارتباطها بطقوس لها هيبتها ، مستهجنة أدبيا ، فقد يكون في الإمكان رغم ذلك تقبلها دون إقلاق لضمير المؤمن ، باللجوء لحسب إلى افتراض بسيط ، مؤداه أن هذه الأسطورة إنما تشير إلى الجن *daimones* وليس إلى الآلهة أنفسهم . والحق أن الفئة الأولى ، لخلقها المعيب ، قد يقاتل بعضها البعض أو تطارح امرأة آدمية الغرام ، أو يقضى عليها بالنفي خارج عشيرتها لجرائم ارتكبتها بل قد تموت ، ولا شيء من ذلك يليق بالجلال الإلهي . فذلك الذي يسمى أبولون الذي أهلك عشيرة « المردة الكيكلوبيز » ، لأنهم هم الذين صنعوا الصواعق التي أودت بحياة ابنة اسكاموس ، لم يكن إلها حقيقيا بل كان جانا يحمل اسم الإله . وإذا ما انقطعت نبوءاته ، كما ظهرت بوادر ذلك فترة من الزمن ، ففي تعليل ذلك ما يعود عليه بالفخر كل الفخر ، إذ يقال إنه بدأ يتسامى ويعلو إلى الحد الذي لم يعد في إمكانه أن يظل على صلته بالعالم المادى . وإن وجدت هناك طقوس لصرف الأرواح (وقد رأينا الصورة التي كانت عليها بعض هذه الطقوس ، فهي موجهة إلى طبقة دنيا من الجن ، ممن استسلموا كما قد يفعل البشر ، لحوافزهم الدنيئة ، ومن ثم فهم نزاعون إلى الإيذاء والضرر ، أوتجب رشوتهم لينصرفوا بعيدا . وأصبح من الميسور كذلك تفسير السحر . فالساحر لم يكن يؤثر على الآلهة بتعاونه في حقيقة الأمر ، بل لعله كان يؤتى من القوة ما يمكنه لحسب

من تسخير الجن لخدمته ، وحملهم على معاونته في تحقيق أغراضه التي لم تكن على الدوام بالأغراض الكريمة . ولقيت مثل هذه النظرية السلسة الطبيعة قبولا بكاد يكون عالميا مطبقا ، وعندما قامت هناك المجادلات المستطيلة بين المناخين عن العقيدة المسيحية والمناصرين للديانات القديمة ، استعان كل من الفريقين بها ، وقد نادى المسيحيون بأن الجن جميعا أشرار متعطشون إلى هلاك البشر وتضليلهم ، ومن هنا جاء معنى كلمة ديمون demon في اللغات الأوروبية الحديثة ، وهي تعنى الشيطان . ووسط هذا الحشد من الكائنات التي تفوق الطبيعة ، كبيرها وصغيرها . لم يكن يخلو الأمر من واحد من هؤلاء يصلح لأن يستعبد به العامة البسطاء من الرجال والنساء ، وقرابة الوقت الذي أخذ يتداعى فيه الإيمان بقدرة المعبودات التقليدية على حماية مجتمعات برمتها ، ظهرت في أفق الديانة القديمة عدة شخصيات جديدة ، أو أنها على أقل تقدير اتخذت ، في حالة إذا ما كانت معروفة من قبل ، مظهرا جديدا واكتسبت قسما أكبر من الأهمية . وكان من أشهر هؤلاء وأبرزهم الطبيب اسكليبيوس . ولم يكن يعرف من خبره الكثير حتى وقت متأخر من القرن الخامس ق.م . وهو عند هومر والد بطلين ثانويين . هما ماخايون وبوداليريوس اللذان حاربا في صفوف جيش أجاثون أمام أسوار طروادة ، وأصابا لنفسيهما شهرة لمهارتهما في إبراء الجروح . وليس هناك من دليل على أنه كان يتمتع في ذاته بصفة الألوهية ، أو أنه كان في واقع الأمر يمتاز عن سائر النبلاء الهومريين العاديين ، في شيء غير مهارته في الطب والجراحة . أما عن كونه في الأصل إنسيا ، وهو احتمال قريب . أو أنه كان واحدا من الآلهة الصغرى ، فتلك نقطة يختلف حولها الرأي في العصر الحديث ، ولكن الأسطورة المألوفة التي تروى عنه تصوره ابنا للإله أبولون من امرأة إنسية هي كورونيس . وكان على غرار أبيه الإله ، نطاسيا بالغ الحذق ، لقي حتفه من جراء شططه في استغلال حذقه ، إذ عمد إلى إحياء الموتى ، وعند ذاك رماه زيوس ، حرصا منه فيما يبدو على سنة الكون ، التي تقضى بأن يعيش الآلهة إلى الأبد ، أما البشر فيموتون جميعا ، بصاعقة أودت به . وبطريقة يتعذر علينا تتبع مراحلها ، وقع عليه الاختيار من بين العديد من الأبطال الذين قاموا بمعجزات شفاء ليكون راعيا للأطباء .

كما ارتبط عقائديا بعدد من الشخصيات الغامضة مثل ياسو Iaso (الشفاء) وهو جيايا Hygieia (الصحة) ، وقد وجد هؤلاء جميعا مكانهم في القسم الذي يتلوه الأطباء . وإبان السنوات الأخيرة من القرن الخامس انتشرت عقيدته على نحو مفاجيء تماما إلى عدة أصقاع في بلاد اليونان ، أجدرها بالذكر إبيداوروس الواقعة بالقرب من أرجوس . فقد أقيم على رقعة واسعة بها معبد ضخم يضم فيما يضم من مباني ، أما كن لينام فيها المرضى الذين يبغون سؤال أسكليبيوس عما يشير به فيما يتعلق بحالتهم الصحية . وكانت الطريقة المعهودة لدى الإله ، وإن لم تكن بالثابتة التي لا تتغير ، هي أن يرسل حلما يوصى فيه بعلاج معين أو يشفى المريض على الفور ، رجلا كان أو امرأة . وسجلت في ذلك الهيكل وسائل العلاج في قوائم طويلة فوق ألواح حجرية ، وقاوم كثير من هذه النقوش عوامل البلى ، بحيث أمكن اكتشافها والتعقيب عليها في العصر الحديث . وتمثل هذه النقوش الصعوبات ذاتها التي نجدها في سجلات معابد الاستشفاء المسيحية أو غير المسيحية . فليس لدينا من أساس ثابت لافتراض الخديعة والغش من جانب كهنة المعبد ، كتشكر طبيب دنيوس في زى أسكليبيوس أو أحد أفراد أسرته . وهناك من القصص مالا يمكن التسليم به على الإطلاق ، إذ ما افترضنا دائما أن تشخيص المرض كان صحيحا فقد قيل على سبيل المثال أن بعض الأشخاص ممن كانوا مكفوفين البصر تماما نالوا الشفاء ، الأمر الذي يشير ، لو صح أنه قد وقع بالفعل ، إلى حالة من الإحساس الهستيري بالعمى . وهناك من حالات الشفاء ما يمكن تعليقه في سهولة ويسر على اعتبار أن مرضا غير بالغ الخطورة كان قد أتم دورته قرب الوقت الذي قام فيه المريض بالزيارة . وهناك سرد حقيقي واضح لأحلام خارقة . وهناك نقوش تثبت أن الزائر قد طلب إليه اتباع نظام معقول تماما في التغذية . وباستبعاد كل ماسبق ، تبقى هناك تلك البقية المعهودة من الحالات التي تستعصى على التفسير ، والتي قد تتدخل صعوبة ، تعليلها شيئا ما كلما تقدمت معارفنا عن أثر العقل على البدن أو سيكولوجية الشفاء بالإيمان . بيد أنه بغض النظر عن ذلك كله ، فهناك من القرائن الناصعة البينة ما يقطع بأن أسكليبيوس أصبح إله المجتمع بطبقاته كافة ، يكرمه العبد والحر ، والغنى والفقير ، وأن شعائر

عبادته ظلت تقام في حرص وغيره داخل بلاد اليونان وخارجها (وقد لقي معبده في روما إقبالا شعبيا كبيرا ، ويحتل موقعه في الوقت الحاضر مستشفى عريق شهير) حتى انتصار المسيحية التي اضطرت في واقع الأمر إلى الخروج بسحر مضاد يجتذب النفوس في صورة معجزاتها في الشفاء التي كانت تتم إما بطريقة الصلوات والدعوات التي يتلوها الأحياء وإما عند أضرحة القديسين والشهداء . أما اليوم فإن القديسين كوزماس وداميان اللذين يعرفان بين العامة باسم هاغيوى ، أنارغىروى Haghioi Anarghyroi (القديسان اللذان لا يتقاضيان أجرا) يقومان إلى حد كبير مقام الإله القديم ، في العالم اليوناني على أية حال . أما اليونانيون المقيمون خارج البلاد فقد قرنوا أسكليبيوس بآلهة الطب المحليين (مثل أممنتب في مصر) في حين أنه في بلاد اليونان ذاتها طغى اسمه العظيم على أسماء المعبودات المحلية التي اشتهرت بقدرتها على الشفاء ، مثال ذلك إله يكاد يكون مجهولا جهلا تماما . هو هيروس إيانروس Heros Iatros (الطبيب) وموطنه أتيكا .

وعلى الرغم من البون الفكري الشاسع الذي كان يفصل بين رجل مثل بلوتارخ ومن يحج إلى معبد أسكليبيوس ويؤمن بكل معجزة سجلتها نقوش المعبد . وينتظر عن ثقة أن يأتيه الإله في شخصه في أثناء الليل ، ويشفيه بعملية جراحية عجيبة أو بعقار سحري المفعول ، فقد كان ثمة وجه للشبه شمل الجانب الأعظم من ديانة عصر ما بعد الإسكندر . وهو أنها أصبحت دون ريب ديانة شخصية أكثر منها رسمية . ولم تتوقف طقوس الدولة الرسمية بل إن كثيرا من المدن الحديثة النشأة مثل الإسكندرية وبرجاموس ، دأبت على إحياء أعياد آلهتها الرسمية في رقة وروعة عظيمتين ، وشيدت لهم من المعابد والهياكل ما يعد مفخرة للفن والمعمار في ذلك العصر . ولكن يبدو أنها خسرت من واقعيتها بقدر ما نالت من أبهة وزخرف . وما لاشك فيه أن الانطباع الذي يوحى به الأدب السكندري هو أن الآلهة الأوليمبية لم تكسب تحمل للطبقات المثقفة من معنى أكثر مما تحمله لنا اليوم . حقا لقد ظلت تمثل نماذج خلافة تروع الناظرين ، ومراتب خصبة للنظم ومادة

طريقة المجادلات الفقهية ، إلا أنها كانت قد سلبت الحياة أو أنها كانت بسبيل فقدان هذه الحياة سريعا . وفي الأحوال عينها التي كانت تعالج فيها موضوعاتهم بأسلوب خيالي لم يكن المعول هو تأكيده الصفات الفائقة للطبيعة فيهم بل وجه الشبه بينهم وبين عامة البشر .

وكانت ترسم لهم في كثير من الأحيان صورة ساخرة ، والسخرية ليست بأفضل قرين للعبادة والإجلال . فن الواضح الجلي أن كاليماخوس ، على سبيل المثال ، أقوى شعراء العصر البطلمي نفوذا وأطولهم باعا ، عندما كان ينظم قصيدة في مدح زيوس ، كان اهتمامه الحقيقي بالإله ينصب على ناحيتين بعينهما ، رغم أن المشاعر التي يعرب عنها تتفق تماما وسنن الدين القويم . فالأساطير التي تدور حول زيوس تهبط مادة طيبة لإظهار مبلغ علمه بمعارف الأولين ، وذلك في شعر أنيق رقيق . كما أن الاعتراف لزيوس بسلطانه الأعلى ، باعتباره ملكا بين الآلهة ، يسوق عن طريق تناول علاقاته بالملوك الأرضيين إلى كثير من ألوان الملق البارع غير الصريح لبطليموس الثاني . وما من شك في أن كاليماخوس كان يقوم بدوره اللائق في طقوس الإسكندرية ، أما إن كان يؤمن به في دخيلة نفسه ، أو إذا كان يؤمن بشيء أصلا ، فذلك مالا نعلمه . فأعرا به في أبيات من الشعر عن إجلاله للآلهة وفزعه من الكفر والإلحاد ومقته لآراء يوهيميروس لا تحمل ثمة دلالة على الإطلاق ، فذلك ما كان يصح للشاعر أى شاعر أن يقوله ، ومن ثم فقد قاله . فالأساطير ، على سبيل المثال ، التي تصور الآلهة في صورة القساة أو المنتقمين ، كانت تسرد دون تعقيب أو نقد ، كما قد يفعل ابن العصر الحديث عندما يروى قصة عن جنية شريرة ، فالأساطير إن هي إلا مادة أدبية ولا شيء أكثر من ذلك وأبولو هو مصدر إلهام الشاعر ، وهو جد راض عن براعته في الأداء ، أى أنه كانت لكاليماخوس ، بعبارة أخرى ، مبادئه الأدبية التي كان يفخر ويعتز بأنه لا يحيد عنها . فالإله عنده أقرب إلى كونه تشخيصا لنقد شديد أو لرأى من وهب من القراء ذوقا سليما وحسا صادقا ، منه إلى ذلك المعبود الذي سار عند هومر جهما كالليل ليصيب بالوباء معسكر الآخايين ، أو الذي أوحى إلى كاهنته بأن

تواسى الصديق الذى أصاب من صاحبه مقتلا عن غير قصد وآل أمره أيضا إلى أن تدهورت ملاح رجولته التى كانت تتم عن فتنة ووسامة ، بحيث أصبح في هيبته أقرب إلى المتأنق ذى الشعر العطر منه إلى حامى حى الرعاة فى القديم .

ولكنه على حين كان شعراء السكايه الملكية الأداب بالإسكندرية (لأن ذلك كان حقيقة هو وضع « الموسيون ، Museion أو معبد الآلهات التسع الإغريقيات ، الموساي Musai) يكتبون بهذا الأسلوب أو ينقبون عن الذخائر المكتنزة فى المكتبة العظيمة ، بحثا عن الحقائق الغريبة المتعلقة بالعادات والطقوس المحلية ليضمونها بحوثا علمية أو يتخذون بالإلماع إليها فى كتاباتهم الأدبية ، فقد كانت ثمة حياة دينية نشطة تجرى من حولهم ، متخذة أنماطا عدة ، بعضها رفيع المستوى وبعضها منحلة ، ولكنها كانت متأثرة فى الغالب إما بالنظريات الدينية التى ولدها الفلاسفة اليونانيون وإما بمعتقدات وعادات مجتلبة من الشرق الأدنى ، وإما بمزيج من هذا وذاك . كما أصبح هذا شائعا ومميزا أيضا للفترة التى تبدأ بحيل الإسكندر فصاعدا . وستكون من مهمة الفصل القادم رسم معالم بعض العقائد التى نجمت عن هذه الاتجاهات ، ولكنه يحسن بنا قبل أن نشرع فى هذا الفصل أن نتخلص من اعتقاد واحد كان أقرب إلى نكران الإيمان وكان عظيم الذبوع .

كان هذا هو الميل الكبير الذى لقيته عبارة البخت أو الحظ « توخى ، Tyche . آمن الإنسان ، فى كل زمان ومكان بالحظ ، سعدا كان أو نحسا ولكن هذا الإيمان اتخذ فى العصر الهينستى مظهرا محددا ، كما اتخذت الإلهة « توخى ، التى كانت فى الفترة الكلاسيكية بمثابة تشخيص أدبى فى الغالب ، قالبا فنيا ، ووجدت العباد المصلين فى جميع أرجاء العالم اليونانى . ويصور يوريبديدس ، تالسيوس ، رسول أجامنون ، مقسائلا وهو يتأمل صروف الدهر ، عما إذا كان زيوس هو حقيقة الذى يحكم العالم ، أو أن هذا العالم واقع فى قبضة الحظ . وفى العصور المتأخرة ، كانت شعائر العبادة تقام بالفعل للإلهة « توخى ، جنباً إلى

جنب مع الإله زيوس ، فضلا عن ارتباطها أيضا بكثير من المعبودات الأخرى . وكان من بين المشاهد المألوفة تماثيل الإلهة « توخى ، التى تصورها واقفة فى بعض الأحيان فوق كرة أو حجر متدحرج ، للدلالة على تقلبها ، وهى تمسك فى الغالب بسكان سفينة ، ولعل فى ذلك تذكرة بفترة أقدم عهدا كانت فيها إلهة للبحر هينة الشأن وكانت نقود عدد لا حصر له من المدن تسك وعليها صورة الإلهة « توخى ، الخاصة بكل مجتمع ، ومن ثم فإنه ليس من الميسور على الدوام القول بما إذا كان المعنى هو الإلهة توخى أو مجرد تشخيص للمدينة ذاتها ، وقد كانت هذه تحمل فى العادة اسما مؤنثا . وكان من أكثر الأبواب التى يطردها رجال الأدب المناقشات الفلسفية وما دونها فى المستوى العلمى من مصنفات تتعلق بمسألة ماهية الحظ على وجه التحديد ، ومدى تأثيره على أحوال البشر . وكان السبب فى ذلك كله واضحا إلى حد بعيد . فإنما نغنى بالحظ شيئا نحن عاجزون عن التحكم فى أسبابه أو التمكن به أو إدراكه . ولقد شهد العصر الهينستى كثيرا من الأحداث المباغتة ، ذات الآثار البعيدة الهوجاء . فثمة دول عريقة تدهورت واعتراها الانحلال والضعف وأخرى حديثة نمت سريعا لى تسقط فى الغالب مرة أخرى وتداول دولتها فى سرعة لا تقل عن سرعتها الأولى . فالفرد اليونانى الذى كان ، بوجه عام ، يملك فى ظل نظام المدينة الدولة البائد ، زمام أمره ويتحكم فى مصيره بقدر محدود على الأقل ، ويملك كذلك إلماما طيبا لا غبار عليه بالعوامل التى من شأنها أن تعرقل أو تنهض برخاء مدينته ورفاهيتها ، قد أصبح آنذاك ضحية حركات سياسية واقتصادية لا يدرك كنهها ولا يملك أدنى تأثير عليها . ولا بد أنه كانت تتولاه الحيرة حينما بعد حين ، حول ما إذا كان الشهر القادم أو السنة التالية سيحلان به وهو لا يزال مواطنا حرا من حيث الاسم ، وإذا أصبح الحال كذلك ، فترى أى اسم جديد سيحق عليه أن ينادى به « وليا للنعم ، أو « منقذا ، لمدينته أو للبشرية جمعاء . وإذا ما أحدثت به حرب من الحروب العديدة التى عرفت عن ذلك العصر فإنه لم يكن يقاتل أو يشهد غيره يقاتلون من أجل قضية فى وسعه أن يدركها ويستجيب لها ، بل من جراء شجار نشب بين عاهلين لم يقع عليهما بصره قط .

وفي مثل هذه الظروف لم يكن ممة ما يدعو إلى كبير دهشة أن يقطع العدد العديدين الناس عن محاولة الوقوف على سبب منطقي للأحداث التي تؤثر في حياتهم العامة والخاصة ، وأن يرددوا إلى الإيمان بقوة عمياء وقلب وأمل واهنين في أن يتمكنوا من استدراك عطف هذه القوة عليهم .

ولنتقل الآن إلى محاولات أقل سلبية من هذه لمعالجة مشكلات الحياة الإنسانية والعالم الذي يعيش فيه البشر .

الفصل السادس

آلهة الحكماء

قام هناك في بلاد اليونان منذ أقدم العصور ، ميل إلى التوحيد . فالإله زيوس الذي أصبح عند هومر وهسيود أقوى الآلهة بالفعل ، بلغ بحلول عهد أيسخيلوس درجة من السمو والرفعة ، سواء من حيث القوة أو الصلاح ، يحق معها القول دون اجترأ بأن المعبودات الأخرى لم تعد شيئا يختلف عن الملائكة التي هي رسل له . ولنا أن نغفل في هذا المقام ، ما يظهر فيما يبدو مناقضا لهذا القول ، في تلك المسرحية التي تثير أشد الحيرة والدهشة ، وهي مسرحية « بروميثيوس رهين الأغلال » . أما عن الفلسفات العظمى ، فإن مذهب أفلاطون وأرسطو ، على حد سواء ، يخلصان إلى معبود واحد علوى لامادى مستشرف ، في حين أن إله الرواقين المستدنى والمادى هو كذلك إله مفرد ، حيث إنه الوحيد الذي كتبت له الحياة ، إثر تدمير الكون دوريا بالنار التي هي العنصر المكون لهذا الإله ذاته . أما عن تلك الفلسفات التي جنحت إما إلى إنكار وجود الآلهة ، وإما إنكار اهتمامهم بشئون العالم ، فلا تعنينا ، إذ أنها لا تؤثر في تطور الدين بل يظهر أثرها فحسب في تطور موقف لا ديني . غير أن توحيد اليونانيين كان من نوع آخر يختلف عن ذلك الذي أوجدته الشعوب السامية . فتوحيدهم لم يكن مطلقا على النحو الذي تعرب عنه العبارة الإسلامية المعروفة :

« لا إله إلا الله » . فقد كان اليونانيون على مر العصور ، على استعداد لإجازة احتمال وجود كائنات إلهية أخرى إلى جانب الإله الواحد العلوى ، ولأن يطلقوا عليها الاسم ذاته الذي بدعونه به . ويقدم لنا أرسطو مثالا جديرا بالاهتمام على ذلك . فبعد أن سرد في كتابه « الميتافيزيقا » وصفا شهيرا بارعا لطبيعة الله ، باعتباره

كائناً فكرياً أبدي النشاط ، يتخذ من ذاته موضوعاً لنشاطه يمضى فيناقش ، على أساس من النظريات الفلسفية المعاصرة كم من الكائنات الإلهية يمكن أن نعتقد في وجودها ، رغم أنه يؤكد أن المعبود المطلق واحد . وبالنظر إلى أن أفكار الأذهان السامية ونظرياتها كانت تؤثر في الأذهان الأدنى مستوى منها ، في بلاد اليونان كما في سائر أقطار العالم ، فإن المذاهب التي ابتدئها أمثال هؤلاء الفلاسفة من الرعيل الأول قد انحدرت إلى من هم أدنى دركا في التفكير ، في صور شعبية مبسطة . وكانت أبعد المدارس أثراً على الإطلاق هي مدرسة أفلاطون ، ولا بد أن نفرا كبيراً ممن كانت دياناتهم الخاصة تقوم على أساس من نظرياته ، لم يقرروا سوى النزر اليسير أو هم لم يطالعوا شيئاً مما كتبه ، ذلك لأنه لايسهل إلا على ذهن فطن متيقظ بدرجة لا بأس بها ، أن يتابع محاوراته في أية نقطة منها ، بينما هو يناقش في بعض الأحيان ، كما هو حال المفكرين ذوي المراتب العليا ، موضوعات أدق وأعوص من أن يدركها سوى من أوتي دربة ومران على التفكير الفلسفي . غير أن ثمة مختصرات لنظرياته الأساسية ، وغيرها من المؤلفات الاشتقاقية ، كانت رائجة شائعة ، وكان بوسع الكثيرين ، وهذه المختصرات بين أيديهم ، أن يدركوا أو يتوهموا أنهم مدركون لجانب من النتائج التي توصل إليها .

وهكذا الحال في عصرنا هذا ، فإن أثر المؤلفات ذات المستوى الخاص ، في الاقتصاد السياسي مثلاً ، يظهر لدى الكثيرين ممن لم يعللوا بها إلا من خلال راوية ثمان أو ثمان . وكان من شأن دراسة أفلاطون على هذا النحو ، دون الرجوع إلى أصل ما قال وفي إغفال بين لعنصرى النقد والتمحيص في الغالب ، أن أفضت أيضاً إلى تحريف ما علم وإلى الخلط بين تعاليم هذه والأفكار المستقاة من فلاسفة آخرين ، بل أفكار تختص بمدارس مغايرة تماماً .

وثمة خليفان قد ظهرا إلى الوجود في العقود الأخيرة من عصر ما قبل المسيحية ، وفيما تلاها . فقد جعل بوسيدونيوس الذي عاش حوالي ١٣٥ - ٦٠ ق م أو بعد ذلك بقليل ، من الرواقية ، كما فهمها ، فلسفة مختلطة تحوى عناصر أفلاطونية قوية ، وبذلك أمد مدرسته التي كانت تنادى في الأصل بأن الروح البشرية مادية

فانية ، بنظرية تقول بالآخريات وتبشر الصالحين بنعيم الخلود . وفي أثناء حياته أيضاً ، قامت الفيثاغورية أو ما كان يعتبر مذهباً فيثاغورياً ، بإحياء وإخراج أدب جديد زعم أنه من تأليف أتباع فيثاغوراس الأوائل واستعار هذا الأدب الكثير أيضاً من أفلاطون الذي تأثر هو ذاته بفيثاغوريين حقيقيين من أبناء عصره ، وانتهى هذا الأدب بنظرية اختلطت فيها الأفكار الميتافيزيقية الرفيعة بضروب من الشعوذة الصوفية الغريبة التي تستعين بالأرقام والأعداد ، وبقسط لا بأس به من السحر والخرافة السافرين . أما الأفلاطونية ذاتها ، فقد امتزجت ، مع تقدم العصر المسيحي بدقائق جديدة وتحولت بذلك إلى ما يعرف بالأفلاطونية الحديثة ، وهي مدرسة أنجبت فيلسوفاً ميتافيزيقياً من الدرجة الأولى هو أفلوطين ، وعدة مفكرين أقل مرتبة جديرين بالتنويه . واتفقت هذه المذاهب جميعها حول نقطة رئيسية واحدة على أقل تقدير . ينقسم العالم إلى مادي أو ظاهري يمكننا أن ندركه بحواسنا الجسدية ، وإلى فكري لا يمكن لغير الذهن أن يفقه بالنظر إلى أنه لا يستبين إطلاقاً لآية حاسة من الحواس . وهو لا مادي عند الأفلاطونية والمدارس الخليفة ، أما في الرواقية القويمة فليس كذلك ، بل يتألف من مادة لطيفة دقيقة للغاية ، على حين أن العناصر الأشد خشونة تؤلف الشطر الأعظم من العالم الذي نعيش فيه . والعالم الفكري وحده هو العالم الحقيقي الباقي ، أما العالم المادي فيخضع لتغير مستمر . وكلما غلظت المادة انتقص ذلك من طواعيتها للقوانين الإلهية التي تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم فإن الظواهر التي تحدث فوق سطح الأرض ذاتها ، رهن بالتقلبات في حين أن حركات الأجرام السماوية محكمة لا يعثرها قط تغيير أو تبدل . ذلك لأن العناصر الأشد ثقلاً ، وهي الأرض والماء وطبقات الهواء المشوب غير النقي ، تتجه إلى مركز الكون في حين أن العناصر الأخف والأشد نقاوة وبخاصة النار تتجه إلى أعلى . وينظر عامة إلى قرص القمر على أنه الحد الفاصل بين المنطقتين في العالم الطبيعي ؛ أما مسكن الآلهة الحقيقيين ، بخلاف الجان ، فيقع فوق ذلك كله ، وتعيش القوى الإلهية النهائية خارج النظام الشمسي جميعه ، بل فيما وراء الأجرام السماوية الثابتة التي لا تتحرك إلا مع الدوران المتصل للسماوات

العلا . والكون كله جسم ضخم يجعل أرضنا تبدو في حجم لا يزيد إلا قليلا على النقطة التي تمثل مركز دائرة هندسية .

واتفقت على نحو أو آخر مع هذا النظام الفلكي الذي يقضى بأن المادة كلها تؤلف كرة واحدة عظيمة ، تقف الأرض في المركز منها ويقوم خط وهمي مار بمركز الأرض مقام محورها ، نظم كونية أشد من هذه فجاجة وبدائية ، أخذت طريقها إلى بلاد اليونان قادمة من الشرق ، وذلك على الرغم من أن بعض هذه النظم على الأقل ، وبخاصة تلك التي تختص بالشعوب التي تتكلم السامية ، كانت تصور الكون في صورة بنيان كثير الطوابق ، أسفله « البحر » بمعنى العميق المتسع ، أو « المياه الكامنة في جوف الأرض » ، وأعلى طبقات السماوات المتعاقبة . ومع ذلك فلم يكن يتطلب الأمر للمواءمة بين هذه النظم والأفكار اليونانية الأقرب إلى الناحية العلمية سوى النظر إلى هذه الأسطح على أنها كرات جوفاء .

وفي بلاد ما بين النهرين ، ويعود بعض الفضل في ذلك دون شك إلى صفاء الجو وطول الفصول التي يندم فيها هطول المطر ، كانت تجرى هناك منذ عصور طويلة سلسلة متصلة من الأرصاد الفلكية . ولم يكن الدافع إليها هو الحواس والغيرة المنزهة عن الغرض لعلم الطبيعة ، بل الاعتقاد بأن الأجرام السماوية إنما هي كائنات إلهية وإن لتحركاتها الظاهرة دلالة ومغزى بالنسبة للبشر . ونشأ علم ديني فلكي دقيق محكم عرفت فيه الكواكب بأسماء وأشخاص آلهة بابل التقليديين ، فعشروت مثلا أصبحت الكوكب فينوس (الزهرة) الذي لم يزل في لغة العصر الحديث يسمى باسم تلك الإلهة الإيطالية التي طوبق بينها وبين عشروت . وقد لوحظ — ذلك لأن دقة هؤلاء العراقيين كانت جدية بكل ثناء ، بالنظر إلى أنهم كانوا يفتقرون افتقاراً تاماً إلى الأدوات العلمية — أن جميع الحركات الظاهرة للشمس والقمر والكواكب إنما تجرى داخل ذلك الجزء من السماوات العلا الذي ندعوه بالإنجليزية بلفظة مقتبسة عن أحد الأسماء اليونانية وهي « زودياك » Zodiac أي منطقة البروج (المنطقة المصورة zodiakos kyklos) بمعنى أن هذه الحركات تتفق على الدوام ، من وجهة نظر الراصد على الأرض ، مع

جزء معين من هذه الصور النجومية التي تشكل منطقة البروج . وبحلول الوقت الذي بلغ فيه هذا النظام الفلكي والعقائد المرتبطة به بلاد اليونان ، أي قرابة الجيل اللاحق على الإسكندر الأكبر ، باتت منطقة البروج تقسم عادة إلى اثنتي عشرة صورة نجومية أو برجاً تتفق والاثني عشر شهراً من السنة الشمسية . واكتشفت مخيلة متوقدة بارعة التصور أن هناك وجهاً للشبه بين كل من هذه المجموعات وبين شكل من الأشكال المعروفة . وعلى ذلك فقد ساد الاعتقاد بأن المجموعة الأولى التي تمثل على وجه التقريب واحداً من اثني عشر من الشكل تصور حملاً والثانية ثوراً والثالثة هيئتين آدميتين تقفان جنباً إلى جنب وهلم جرا ، وعند ذلك وعن طريق سلسلة من الاستدلالات التمثيلية الخيالية ، قرن بين كل من هذه البروج وبين شأن من الشؤون التي تحظى باهتمام بني البشر ، فارتبط على سبيل المثال البرج الثاني عشر الذي كان يعتقد أنه كان يمثل سمكتين ، بمهنة الصيد وارتبط الثور بالزراعة وهلم جرا . ونسبت إلى الكواكب أيضاً ، بما في ذلك شمس والقمر (فلم يكن من المعروف بطبيعة الحال أن الأرض ذاتها كوكب — كما لم يكن قد اكتشف بعد نبتون وأورانوس) ارتباطات مماثلة . فكان لمارس ، على سبيل المثال ، كما ندعوه نحن — أما اليوناني فكان يسميه « النجم آريس » ، إذا لم يشأ أن يستخدم اسماً أقدم عهداً له وهو پورويس Pyrois (النار) تأثير على الحرب وعلى كل ما يتصل بالحرب ، بما في ذلك القتل والفتك . ومن الواضح إذن أن هذه الكواكب السيارة لابد أن تكون منتظمة في أحد الأبراج ساعة مولد أي إنسان ، وأن السائل الأثري الذي ترسله بفعل القوة المركزية الجاذبة ، صوب الأرض في أثناء دورانها حولها ، يؤثر في الطفل الواليد ساعة مولده وفي مستقبل أيامه . وبمضي الزمن ، وبالنظر أيضاً دون شك إلى أن التجربة قد أثبتت بطلان كثير من التذوات القديمة العهد والبسيطة المبني ، نشأ هناك نظام للتنجيم بالغ التعقيد ، يدخل في اعتباره كثيراً من الظواهر الفلكية مجتمعة ، ويطلق عليه على العموم اسم mathesis أي « العلم » . ونسميه نحن علم التنجيم ، وهو ما كان أقرب في معناه في العصر القديم إلى ما ندعوه بعلم الفلك .

وحوالى الوقت الذى بدأ فيه هذا الأمر يحتذب بصفة جدية أنظار اليونانيين الذين كانوا على استعداد كاف للإيمان بألوهية الكواكب ، رغم أنهم ، كما رأينا سابقا ، لم يعبدوها ، كان المذهب الرواقى القائل بالقدر أو الجبر يحرز تقدما ملموسا . ويقضى هذا المذهب بأن كل ما يلاحق بالكون وسكانه مقدر سلفا بحذاقيره . وجل ما يبقى فى مكتنا هو موقفنا تجاه الأحداث ، فقد نسلم بها عن رضى وطواعية عالين أننا إذ نفعل ذلك نكون على وفاق مع التدبير الإلهى ، أو نحاول عن جهل وحق أن نرد ما هو مقدر محتوم . وفى نظر الرواقى الصالح ، كان هذا المذهب مبعث راحة وطمأنينة بالفتن ، فما القدر إلا مشيئة إله كلى الحكمة كلى الجود . أما بالنسبة للكثيرين ، فلا بد أن هذا المذهب بدا مفزعا رهيبا ، ذلك لأن النظرية الرواقية التى تقول بأن ما من شئ هناك يعد خيرا أو شرا إلا ما كان كذلك من الوجهة الأدبية ، وأن أمورا كالغنى والفقير والحرية والعبودية والمرض والصحة لا فارق بينها فى واقع الأمر ، كانت تعاليم تفوق إلى حد بعيد المستوى الذى يمكن أن يتقبله الرجل العادى . والحق أن معظم الرواقيين ذهبوا إلى حد إجازتهم القول بأن الصحة ، على سبيل المثال ، « مفضلة ، على المرض بمعنى أنها تختار فى حالة إذا ما كان الأمر غير ماس بقضية من القضايا الخلقية ، وهكذا دواليك . ثم كان لعلم التنجيم أن دعم هذه التعاليم المنادية بالقضاء والقدر . فإن الكلدانيين ، كما كان يعرف المنجمون عامة ، باعتبار المنطقة التى نشأ فيها عليهم الكاذب فى الأصل ، وبغض النظر عن الجنسيات التى ينتمون إليها ، قد قدموا الدليل على أنه إذا ما كان الإنسان فقيرا أو ضعيف البدن أو محتل العقل ، أو غير موفق فى العمل أو فى الحب ، أو كان مبتلى على غير هذه الوجوه ، فرد ذلك إلى وضع النجوم لحظة مولده ، أو فى اللحظة الأولى عينها التى بدأ فيها مسعاه الذى باء بالفشل . وغاية ما فى مقدوره هو أن يتحاشى بعض النتائج المترتبة على موقفه بأن يختار لزفافه مثلا لحظة تكون فيها الأجرام السماوية مرسله تأثيرات طيبة مواتية إلى الأرض . وبذلك أضيفت عناصر جديدة إلى تلك القائمة التى استطالت بالفعل ، والتى تسجل المواقف المناسبة وغير المناسبة للقيام بكل نوع من الأعمال ، ولا بد أنه كان هناك كثيرون ممن

لم يكونوا يقدمون ، كالمرأة المنجمة الوارد ذكرها عند جوفينال ، على مجرد ذلك عين موجعة بدهان ، دون النظر فى مخطط ميلادهم ، أو رسم يبانى بوضوح صورة السماوات العلا وقت مولدهم ، أو أن يقطعوا رحلة لمسافة ميل دون الرجوع إلى تقويم فلكى .

وهكذا فإنه إن قدر للفرد العادى أن يأخذ هذه المذاهب بشئ من الجدد ، فسيجد نفسه ضحية مهيضة لاحول لها ولا طول للقوى الفاتكة للطبيعة ، علاوة على هوان شأنه أيضا من الناحية السياسية . ولا ريب فى أن ذلك بدا فى نظر الكثيرين عبودية لا تطاق . ولقد كان ثمة ميل على الدوام بين اليونانيين فى بعض حالاتهم النفسية إلى انتقاد الحياة ، فيملن ثيوجنيس فى القرن السادس ، ويرجع صداه سوفوكليس فى القرن الخامس ، أن الأفضل للإنسان ألا يولد على الإطلاق ، أما إن ولد فالأفضل أن يموت فى أقرب وقت ممكن . ومثل هذا الضرب من الشعور الذى عرفه باكتئاب اليونانيين ، وطال الحديث حوله ، يبرز واضحا فى الأدب السكندرى ، كما توحى كثير من أقوال هذا العصر أيضا ، بأن إحاطة بل ترحيب بالفكرة القائلة بأن هذه الحياة هى خاتمة كل شئ ، فمن بين النقوش المألوفة على شواهد القبور هذا النقش مثلا : « لم أكن موجودا وقد جئت إلى الحياة ولست موجودا ولا أبالى » . فلا عجب إذن أن سارعت كثرة من الناس إلى التشبث فى حماس بأى مخرج لها من حالة العبودية التى أدخلت فى روعها .

وكانت الحلول الرئيسية ، بغض النظر عن مواقف الإنكار والإلحاد أو السخرية واللامبالاة ، تقوم على أساس من تلك التفرقة التى سبقت الإشارة إليها بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من الكون . فقد كان القدر ، فى الاعتقاد الشعبى ، يعمل بوساطة الكواكب أو بين مجالاتها على أية حال وبين الأرض . وعلى ذلك فإن أمكن الاتصال بالقوى التى تعلو الكواكب ، فقد يكون بالوسع رغم ذلك درء القدر . فالآلهة إنما تعيش خارج نطاق التأثيرات الصادرة عن الكواكب . فإذا تيسر للمرء أن يضمهم إلى صفه بأية وسيلة من الوسائل ، فعنى ذلك ، كما كان فى واقع الأمر ، هو الالتفاف حول مؤخرة القدر ومواجهة

أحكامه التي لا رحمة فيها ولا هوادة بسلاح أشد منها قوة وبأسا .

وبعد السحر من أقدم المحاولات التي بذلها الإنسان في سبيل التغلب على مشكلات البيئة المحيطة به . ففي كل مكان من العالم ، ساد الاعتقاد في آونة ما ، بأن القيام بطقوس معينة ، وتلاوة كلمات بعينها يجعلان في وسع الخادم التحكم في جانب معين من الطبيعة أو في أفكار أقرانه وسلوكهم . والغالب أن هذا الأمر كان سهلا هينا بدرجة كبيرة في بلاد اليونان بالقياس إلى العادات التي لم تنزل باقية لا تؤذن برحيل بين الشعوب الأوروبية ، إما لإيمان بها لا يبلغ مبلغ اليقين وإما بحكم العادة والتقليد المجردين ، مثل لمس الخشب أو تشميت الغاطس أو تجنب مائدة طعام تضم ثلاثة عشر ضيفا ، أو الشعور المبهم بالقلق إذا ما كسرت مرآة ، وما شابه ذلك . وعلى أية حال ، فقد كانت هذه العادات تحظى في بلاد اليونان القديمة وبين العامة البسطاء على أقل تقدير ، بقسط أكبر من الرواج . كما كانت أكثر حيوية ؛ فلم تكن تعيش كحالها اليوم فيما هو أقرب إلى حياة الكائنات المتعجزة .

فبدلا من القلة القليلة التي تحمل اليوم « المسخوطات » ، أو جالبات السعد ، إما بصفة دائمة . وإما عند الشروع في عمل ينطوى على خطر ، كان هناك كثرة كثيرة وبخاصة من النسوة ، ممن يحملن عادة الأحجية والتائم . وفي وقتنا هذا ، يتحاشى بعض الناس الشروع يوم الجمعة في أى عمل ذى بال ، لأنهم يظنون أنه يوم نحس ، أما في الزمن القديم فقد كان هناك الألوف المؤلفة ممن يؤمنون بأيام السعد وأيام النحس ، ويسجلونها في التقاويم الرسمية . والأحجية ليست بالأشياء غير المعروفة في الوقت الحاضر ، بيد أنها كانت تمثل آنذاك جزءا من العلاج الطبى المعتاد ، إلا فيما يتعلق بأصحاب العقول الجبارة من أبناء هذه المهنة . وعلى ذلك فقد كان هناك الكثيرون ممن هم على استعداد لإصاخة الأذان إلى مزاعم السحرة الذين يمارسون طقوسا معقدة .

وبحسب هؤلاء الأطباء ، الذين كان من بينهم ، وهو ما ينبغي علينا افتراضه ، من كانوا غاية في طيب السريرة وصفاء النية وسلامة القلب ، وعلى الرغم من أنه كان لهذا العصر ، شأنه شأن سائر العصور ، نصيبه من الدجالين والمشعوذين ، فإن ثمة

« قوى » ، أو نشاطات ، معينة (ويقابلها في اليونانية *dynameis, energeiai*) كانت تقوم في الطبيعة ، وتفهم على وجه يدكرنا ، من جانب ، بالمظان التي يستخدم فيها العلماء المحدثون الألفاظ المشابهة ، ويذكرنا من جانب آخر بالمفهوم البدائي القديم « للمانا ، *mana* » الذى أشرنا إليه في مطلع هذا الكتاب . وهذه القوى يمكن توجيهها على النحو المنشود ، إذا ما عرف المرء الأصول الفنية الصحيحة . ويتحقق ذلك باتباع قانون طبيعى مزعوم (ذلك لأن الجانب الأكبر من هذا السحر كان يحمل طابعا علميا كاذبا) هو قانون « الانعطاف » ، وعدم « الانعطاف » . ولفظة « الانعطاف » ، *sympathy* ليست من بين مفردات السحرة البحت ، بل إننا ننف عليها في كتابات العلماء القدامى . وهكذا يتحدث ثيوفراستوس (القرن الثالث ق.م) عن نضج بعض النباتات قائلا إن ذلك راجع إلى أنها « في انعطاف » مع أحوال جوية خاصة في مواسم معينة ، رغم أنه يذكر في موضع آخر أن هذه النباتات « تنبع ، الموسم و » تتساوى ، معه ، كما أن هذه اللفظة شائعة تماما في الطب أيضاً ، فيتحدث جالينوس ، على سبيل المثال ، عن الأثر الناتج في عضو من أعضاء الجسم عن اعتلال عضو آخر ، قائلا إن ذلك يحدث « بالانعطاف » . بيد أن السحرة ، والفلاسفة الذين أوجدوا المبررات النظرية لما يمارسه هؤلاء ، ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فربطوا أشتات الكون كله بسلسلة من « الانعطافات » ، فالرواقيون ، الذين كانوا يميلون في الغالب إلى السحر ، عملا بمبدئهم العام الذى يقضى بأن كل ما كان محظا للإيمان على نطاق واسع ، لابد أن يكون صادقا على وجه أو آخر ، طبقوا المصطلحات الطبية على الكون ، فصوروه بصورة كائن حى هائل الحجم ، كما دعا الأفلاطونيون المحدثون إلى مذهب مشابه تماما .

والشواهد التي يبدو منها أنها تدعم هذا المبحث لم تكن بالنادرة ، ومن أشيعها الميل المزعوم من جانب حيوان ونبات معين إلى النمو أو الضمور تبعا لاندياح القمر أو محاقه ، والحقيقة الماثلة في أن المد والجزر مرجعهما موقع القمر وبالنظر إلى أن قوانين الجاذبية ، كانت آنذاك غير معروفة تماما ، فلم يكن للظاهرة

الآخيرة أى تفسير آلى بسيط ، ومن ثم فقد كان هناك ما يغرى أشد الإغراء بعزها إلى وجود « انعطاف » بين ما كان يعرف على الدوام بأنه كوكب مائى ، وبين عنصر الماء على الأرض . بيد أن عددا لا حصر له من « الانعطافات » قد استقرى من مقدمات ثقل ولو في ظاهرها إلخاما عن هذه إلى حد بعيد . والحقيقة أننا ، في كثير من الحالات يرتج علينا تماما في معرفة السبب الذى من أجله نشأ الاعتقاد بوجود « انعطاف » أو « عدم انعطاف » بين شيئين مختلفين متباينين . فما الذى حدا إلى الاعتقاد على أى وجه من الوجوه ، بأن الفيل مثلا ، فى بعض أحواله ، يهدأ ويسكن لرؤية الكباش ، وأن الثور مهما بلغ من الوحشية والجروح يأنس ويسلس إذا ما أوثق بشجرة جميز ، وأن الأسد الذى يطاء أوراق شجر البلوط القرمزى ، يبطل حسه ويتحذر ، وأن الضبع يحدث الأثر ذاته فى الإنسان إذا ما طلع عليه من جانبه الأيمن ولكنه لا يحدث ذات الأثر إذا ما تقدم منه من الجانب الأيسر ؟ وقد يفضى سوء الملاحظة إلى الفكرة القائلة بأن فى الإمكان شل حركة الحية إذا ما ضربت بعصا ضربة واحدة ، ولكنها تعود إلى الحياة إذا ما ضربت مرات عدة ، ولكننى أحسب أن شيئا قليلا من التجربة كان كفيلا بأن يعلم الناس أنه لا يخفف من ألم لدغة العقرب أن يمس المرء بعصا « لدغته عقرب » فى أذن جحش . وعلى الرغم من ذلك ، فقد تخلف هذا الاعتقاد كما تخلف غيره من المعتقدات التى لا تنقل عنه وهما وزيفا ، ومنذ سنة ٢٠٠ ق . م تقريبا ، أصبح من الشائع بدرجة تدعو إلى الغرابة لدى المدلين بدلائهم فى العلم أن يأخذوا هذه الأفسكار على علاتها ويتلبسوا لها الأسباب ، بدلا من أن يدحضوها بالتجربة والاختبار . ومن بين العديد من النواحي التى طبق عليها قانون الانعطاف ، جنى الأعشاب وقطفها . وقد كانت هذه تؤلف على الدوام جانبا كبيرا من المادة الطبية *materia medica* المعروفة فى الزمن القديم ، بالنظر إلى أن لكثير منها فى واقع الأمر تأثيراً على جسم الإنسان فضلا عن توهم هذا التأثير فى كثير منها أيضا . وقد وثقت العلاقة بين هذه الأعشاب والأجرام السماوية التى يمكن لتأثيرها ، وفقا لنظرية الانعطافات العامة أيضاً ، أن ينتقل إلى هذه الأعشاب إذا ما اتخذت الاحتياطات الواجبة . وقد تخلف لدينا

عدد ليس بقليل من الإرشادات ذات الطابع الفلكى التى تشير على الطبيب بقطف هذا النبات عندما تكون الشمس فى برج السنبلة ، وذاك النبات فى أوان الزهرة ، وهلم جرا . أما الحاصد ذاته فينبغى له أن يراعى قواعد عدة تتعلق بشخصه مثل الرقاد إلى جوار العشب الذى يزمع قطفه فى الصباح وارتداء الملابس الفضفاضة دون منطقة أو أى جزء زام حاصر ، والتأبى عن الشهوة الجنسية وغير ذلك من المحرمات التى ترمى جميعها إلى الحيلولة دون حمله لتأثير معاد للنبات الذى ينوى استخدامه . وما يتفق والمنطق ، ذلك لأن العلم الكاذب حقيق بأن يبدو منطقيا — إذا ما سلم فحسب بتلك الحقائق الغريبة المزعومة — أن تكون للكواكب علاقاتها الماثلة . بمملكتى الحيوان والمعادن . ومن ثم فقد كان بالوسع الحصول على سلسلة من التأثيرات ، شاملة للكوكب والحيوان والعشب والحجر تعمل جميعها فى اتجاه واحد ، وتخضع كلها لتوجيه عام عليم بنفسه . وكان من المنتظر بطبيعة الحال أن يكون للجان الكائنات فى كل مكان نصيبهم فى ذلك كله ، ولا سيما أن تقدم النظرية السحرية أدى إلى تسليمها عن ترحاب ورضى بمذهب معقد يقضى بتقسيم الجان إلى فئات تحت زعامة الآلهة . وعلى ذلك فقد كان هناك جان من طبقة أبولو ، وجان من طبقة اريس ، ومن مختلف أنماط المعبودات وطنية كانت أو أجنبية .

وهكذا كان فى وسع المرء ، إذا ما حصل على النبات أو المعدن الصحيح أو أى شئ مادي آخر ، وعرف كيف يفيد منه ، أن يعقد صلة فعالة بسلسلة من التأثيرات التى تفضى به مثلا من زهرة مرتبطة فلكيا بكوكب الزهرة ، عن طريق صف طويل من الجن التابعين لأفروديتى ، إلى الإلهة الحقيقية ذاتها ، وهى القوة الإلهية التى تسكن وراء الكوكب المرنى وتتحكم فيه . وأهمية ذلك فى سبيل تحقيق مرامى الساحر الحسنة أو السيئة ، كانت واضحة ، فإذا ما أريد فرضا الحصول على رقية حب ، فهل هناك ما هو أدعى إلى اطعمثنان العاشق إلى تحقيق رغباته ، من ضمان معونة إلهة الحب ذاتها ؟ وقد كان بالوسع أيضاً إخضاع المعبود لتأثير مباشر قوى من جانب الخبير ، باتباع الأساليب المصرية وحدها . ففي مصر ، كما فى بلاد اليونان كان من بين العادات القديمة ، أن تكسى

نصب الآلهة في معابدها بأردية مختلفة الأنواع، تصنع عادة من الكتان ولم تكن هذه النصب . كما يقضى مذهب ذاع في العصور المتأخرة من العهد القديم ، مجرد صور أو رموز للآلهة المعنية ، بل كانت في الحق أماكن سكناهم ، فإن طقوسا للاستحضار والدعاء أتت بهذه المعبودات ذاتها إلى داخلها . وعلى ذلك فالملابس التي تخلع على تمثال كهذا قد ارتداها الإله نفسه . وتكاد تجمع أسرار الشعوب كافة على أن ملابس الشخص جزء من ذاته ، وأن عمل السحر لقطعة منها معناه التأثير على الشخص نفسه . فإن دعت الحاجة ، إذن ، إلى الحصول على رقية ذات أثر فعال في واقع الأمر ، يؤتى بقصاصة من أحد هذه الأردية المقدسة وتتخذ هذه كأثر *usia* كما تسمى في رطانة السحرة ، ولا تختلف هذه في كثير أو قليل عما لو كانت قطعة من لباس كان يرتديه زمنا ما ، كائن بشري يراد إيذاؤه أو التأثير عليه بصورة أو بأخرى . والحق أن الإله كان على قوة وجبروت يربآن به عن الوقوع على هذه الصورة المزرية تحت سلطان عامل السحر ، كما لو كان إنسيا أو شبحا عاديا إلا أن الإله ذاته يجد نفسه عاجزا عن ردع هذا الساحر المجترى الذي تجاسر في حمى هذه الخرق من الرداء المقدس ، على استحضاره ليسدى له المشورة أو يقدم العون . أما من قصرت أطاعه عن التحليق عاليا على هذا النحو فقد كان لديه العديد من السبل التي تمكنه من سحر القوى ذات المراتب الدنيا . مثال ذلك أنه بوسع أى امرئ لديه عدو يريد لإصابته بضر أو حبيبة تمانعه ، أن يلجأ إلى طريقة كهذه . فبعد أن يحصل أولا على « أثر » *usia* للشخص المراد التأثير عليه ، يقوم ، في حالة رقية الحب ، بصنع شكل سحري من طين الفخار ، ويلصق الأثر به . ثم يتوجه إلى قبر شخص فجأة ، على اعتبار أن ذلك من أشد الموتى هياجا وأقوام أثرا ، ويترك الجهاز في حوزته ، بعد أن يدعو القوى الأرضية بدعوات شتى كيما تساعد الشبح ، موصيا إياه بتعقب المرأة المعنية ، ومداومة إزعاجها والوسوسة لها حتى تأتي لزيارة الساحر . أما إذا كان المقصود هو الكراهية وليس الحب ، فيمكن كتابة إحدى اللعنات (على الرصاص عادة ، وهو معدن الإله ساتورن) وإيداعها قبر شخص مناسب ، كأن يكون مجرما نفذ فيه حكم الإعدام . وهذه تحوى غالبا مناشدة للشبح بجميع أنماط الأسماء الفعالة ، اليونانية

منها والأجنبية (واسما يهوه والمسيح — والآخر بدأ يثبت وجوده بعد ظهور المسيحية — لم يكونا بالتأدين) بما في ذلك أيضا أسماء المعبودات لم يكن لها وجود على أى وجه من الوجوه ، بل لفقت من شتيت من الأصوات المستهجنة الغريبة ، كيما يقض مضجع المذنب ويقلق راحته . ويعود هذا الضرب من السحر ، في صورة المبسطة إلى زمن جد مبكر ، إذ عثر عليه في مقابر آتيكية ترجع إلى ما قبل العصر الهلينستي ، كما أنه ظل قائما حتى فترة متأخرة ، والأمثلة المسيحية التي وجدت ، إنما تدل على أن الديانة الجديدة لم تذهب بالرغبات القديمة وما كان يتبعها من خرافات . وعلى أية حال ، فيمكن القول بوجه عام إن العقائد المهدبة الرقيقة ، أتت معها فيما يبدو بفسط من التغيير في الروح العامة ، كان كفيلا بحمل السحرة على إثارة عمل الرقيات لشفاء الأمراض واتقاء الأعداء من الإنس والجن ، عن عملها من أجل أغراض ضارة مقصودة لذاتها .

بيد أن من السحرة من كانت مرامهم تسمو فيما يبدو عن إرضاء أهواء الحياة اليومية وأحقادها . فما أكده السحر بألوانه كافة — وإنه لزعم من أشيع المزاعم حتى بين أحط السحرة وأدناهم — إنه وحي إلهي ، لقد كان نوعا من المعرفة *gnosis* التي كان بلوتارخ ، كما رأينا ، يتلبسها من الآلهة . وقد اشتق اسمه *magic* من *magos* ، الذين طار صيتهم ، من عصر أفلاطون على الأقل فصاعدا ، في مضمار الحكمة والقداسة . وكان السحر يمارس في بعض مناهجه البائغة التعقيد ، في مصر وبابل ، وهما بلدان كانت تقوم بهما ديانة من أقدم الديانات في واقع الأمر ، كما لم تكن تخلو بحال من جانبها السامى الرفيع ، وقد بدأت حكتهما في اجتذاب نفوس يوناني العصور المتأخرة بصورة مطردة ، تبعا لتدهور ثقتهما في حضارتهم الخاصة . وإن هذه لظاهرة يتكرر وقوعها على الرغم من أن الغالب هو أن الهند (التي لم تعد المعجبين بها في أواخر العصر القديم) أو الصين ، دون الشرق الأدنى ، هما اللذان يجتذبان المريدين والمتهدين من أبناء المغرب ، كلما أسفر وقوع حرب مدمرة بصورة غير معهودة ، أو وقوع أية اضطرابات سياسية واقتصادية أخرى ، عن سيادة روح من القنوط والتشاؤم .

وكما هو الحال بيننا ، عندما تبرى طائفة من ذوى العقول المتميزة النابعة لتسبب فلسفة دينية معينة من التقاليد والعادات الشرقية ، بدلا من ترديدها للأقاصيص الخرافية عن أسرار الوجود والتبت ، فقد كان هذا هو الحال كذلك في الزمن القديم . وكما كان هناك سحرة من المرتبة العليا ، فقد كان هناك سحرة من المرتبة الدنيا . وقد أدرك القدماء أنفسهم ذلك إدراكا واضحا كل الوضوح وعرفوا هاتين الطبقتين بمصطلحين فنيين . فالسحر ذو المرتبة الدنيا ، وهو الذى لا يعدو عمل رقى تافهة يقصد بها التأثير على نتيجة سباق للخيل أو لعلاج حالة صداع ، أو نيل الخطوة لدى الحاكم المحلى أو لإحراز النجاح في مغامرة عاطفية شائنة ، كان هو « الجويتيا » goēteia أى السحر .

أما السحر ذو المرتبة العليا ، فكان « الثيورجيا » theurgia ومعناها الحرفى « شغل الإلهيات » . وكان هذا يسمى ، بوساطة عملية سحرية قد تبلغ في بعض الأحيان الغاية من الشذوذ والخرف ، إلا أنها لم تكن على أقل تقدير دنيئة المقصد ، إلى الدخول في علاقات وثيقة حميمة مع المعبودات العليا ، والتعرف عليها ونيل بركاتها وصدقاتها . وبوسعنا تتبع أكثر من مرحلة من مراحل الثيورجيا . مثال ذلك أن ثمة وثيقة من بين وثائقنا الرئيسية ، وهى تلك التى تعرف باسم « بردية باريس » العظيمة ، تحوى تنفة غريبة من طقس سحرى يبلغ في مغايرته للطرق المعهودة لدى السحرة حداً دعا البعض إلى الظن خطأ ، وإن كان لهم العذر في ذلك ، بأنه صلاة من صلوات عبدة إله الشمس الفارسى مئراس . وللعراف الذى يستخدم هذا الطقس أن يطلع عليه غيره ، إن شاء ذلك ، ولكن بشرط أن يختبر العارف المنتظر ويتيقن من أنه على قسط وافر من الخلق القويم ، لأنه في حالة تلقينه إياه سيكون مسئولا عنه . ولا يماط اللثام له عن الطقس ذاته ، بل يتم به فوق رأسه بعد أن يمسح بزيت سحرى ، ولا يلقن غير الصلاة التى يستهل بها . وإلى هذا الحد ، يمكن القول بأن ذلك لا يعدو سوى لون واحد من ألوان التحريم للعديدة التى تقضى بعدم الكشف عن فنون السحر ، إلا في ظل احتياطات صارمة تتعلق في العادة بأمور

تافهة للغاية وتعود في النهاية إلى ميل إلى الاحتفاظ بالسحر كله سرا ، وهو ميل شائع كل الشيوخ . ولكننا نقف على شيء أرفع من ذلك وأسمى عندما نأتى إلى تحليل هذا الطقس بنوع خاص . وهو يبدأ بالخطاب التالى الموجه إلى المعبود الذى ترفع إليه الصلاة ، وهو فيما يرجح مئراس الذى يقال إنه أرسل الطقس إلى العراف بوساطة كبير ملائكته .

« أيها المنبت الأول لمنبتى ، والبداية الأولى لبدايتى ، وروح الروح ، وأصل النفس التى فى ، والنار ، منحة الإله ، وهبت إياها لأمزج الأمزجة التى فى ، أصل النار التى فى ، وماء الماء وأصل الماء الذى فى ، وجوهر الأرض ، وأصل الجوهر الأرضى الذى فى ، الجسد الكامل الذى هو لى (وهنا يذكر الخادم اسمه ، مضيفا إليه ، على الطريقة المعهودة لدى السحرة ، اسم أمه) صورته ذراع مجيدة ويمنى خالدة في عالم لا يضاء بل يسطع النور في جميع أرجائه ، عالم غفل من الروح بيد أنه حى ، إذا كان في ذلك مرضاتك الكريمة ، فأعدنى إلى مولدى الأبدى ، بحسب الطبيعة السكامنة فى إذ أنه ليس في مكنتى ، فما أنا غير بشر فان ، أن ألقى الأشعة الذهبية للنور الأبدى ، ولطبعى الفانية أيضا ، عدنى عندما تمضى الحاجة المستحكة التى تتملكنى الآن ، .

وتحمل هذه المقطوعة في المقام الأول دلائل واضحة على صدورها عن أصل فلسفى . فالإله نظير علمى للعناصر الأربعة التى تدخل ، كما كان رأى في معظم المدارس الفكرية في بلاد اليونان منذ القرن الخامس ق.م ، في تكوين جميع الأشياء المادية ، بما في ذلك الأجساد الحية الخاصة بالإنسان والحيوانات الدنيا . ثم إن خادم هذا الطقس يزعم لنفسه على غرار الأورفيين ، أصلا غير أصله الدنيوى ، إذ أن « طبيعته السكامنة » هى التى تجعله قادرا على الميلاد الثانى الذى يبتغيه في تحرق وشوق . وهو مازال في الجسد ، ولذا فإن تجربته للحياة الفائقة للطبيعة لن تستغرق غير برهة وجيزة ، ومع ذلك فهو عرضة لها ، قادر عليها . ومن ناحية أخرى ، فالأساليب التى يستخدمها دون أدنى ريب أساليب سحرية . فهو لا يستخدم

فحسب صيغة محددة من الألفاظ ، قد تكون في حد ذاتها جزءا من طقس ديني غير سحري ، بل يخاطبها بعدد من الأصوات التي لا تحمل معنى ، وتلاوات للأحرف المتحركة في الأبجدية اليونانية مرتبة على أوجه مختلفة ، وفواصل من الصغير وأنظمة من الأسماء السحرية ، وقد حذفت هذه من الترجمة السالفة . وبعد تلاوة الصلاة الاستهلالية تقضى التعليقات الصادرة إليه بأن يتنفس تنفسا عميقا ثلاث مرات « من أشعة النور » ويبدو أنه يواجه الشمس عند أدائه لهذا الطقس . ويشعر عندئذ بخفة ويظن أنه تصاعد عاليا ، « حتى يخيل إليك أنك في وسط الفضاء » . وإذا يمضى في تصعيده عاليا عاليا مارا بالآلهة النجمية الدنيا التي يخاطبها بصيغ معينة ، يشهد في النهاية قرص الشمس ينفجر ويتبدى له الإله محوطا بالمعابد التابعة ، وفي صورة آدمية وفي زى كزيه الفارسي . وبعد أن يجهر الخادم بخطاب آخر لا يقل تعقيدا والتواء أمام مئراس يتلقى منه وحيا ، بوسعه وهو في حالته من الانجذاب ، أن يتذكره بخدا فيره ، « حتى لو بلغت النبوة من الطول عشرة آلاف بيت » .

ومن الصعب علينا أن نقطع بما عسانا أن نؤمن به فيما يتعلق بمثل هذه الإجراءات والأعمال . فما لاشك فيه أن الخديعة والاحتيال كانا أشد ما يكونان انتشارا وتفسيا ، ولدينا شروح تكاد تكون كاملة لطائفة من الكتاب المتأخرين ، يوضحون فيها حيلة تشبه تلك التي يمارسها الحواة على خشبة المسرح الحديث ، انخدع بها بصورة مزرية فاضحة البسطاء السذج ، على أيدي فئة معدومة الضمير ممن استغلوا غفلة هؤلاء وسلامة طويتهم . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن بعض مزاويل « الثيوجيا » كانوا في غاية الصدق والإخلاص . فإنه من المحتمل فيما يبدو ، أن شخصا على شيء من الشذوذ ، تمتلئ رأسه بالمعتقدات الصوفية ويؤمن بإيمانا راسخا بفاعلية السحر ذي المرتبة العليا ، كان في مقدوره أن يولد في نفسه حالة من التوهم الغنطيسي الذاتي يظن مخلصا لإبائها أنه مر بالتجربة السابق بيانها . وليس بعسير أن نقف على نظائر لذلك الإحساس الباطني بالارتفاع عاليا في الفضاء ، فإذا ما ظن أن ذلك حقيقي وليس خدعة من صنع أعصابه المتوترة المحتاجة ، فسقتلو ذلك حتما بعض

المراحل الباقية على الأقل ، فسيدخل في روعه أنه شهد ما أكدت له علومه الكونية المتوهمة في غالبيتها ، أنه سيراه حتما ، إذا ما ابتعد الراصد لحسب مسافة كافية عن سطح الأرض . وهناك العديد من الأمثلة على أشغاص ، تمثلت لهم وهم في حالة غيبوبة روى للعالم الآخر ، ومن نافلة القول أن الجنان أو النيران التي كانوا يرونها حينئذ هي تلك التي حدى بهم إلى انتظارها أي من المذاهب اللاهوتية التي لقنوها . ولعل شيئا من هذا القبيل قد حدث بالفعل لأكثر من واحد من المجربين للطقس السالف الذكر . أما من ناحية الأنماط الدنيا من السحر ، فن المعروف تماما أن كثيرا من البسطاء السذج من الناس ، إذا ما سمعوا بأن رقى تتخذ ضدهم ، فزعوا لذلك أشد الفزع إلى حد وقوعهم فريسة للمرض ، بل إلى حد الموت في الحالات القصوى ، لغیر علة جسمانية في الحالين . ومن ناحية أخرى فإن شخصا يعاني مرضا حقيقيا لابد أن يشرح صدره ويحول كربه إلى حد بعيد ، إذا ما كان يؤمن بالسحر ، حين تتلى عليه رقى قوية أو يتعاطى أخلاطا من الأعشاب أو ما شابه ذلك مما يعتقد أنه علاج خارق للطبيعة لعلمته . وبذلك تزداد ثقته وتتحسن فرص شفائه نسبيا ؛ ويبدو أن معظم الأدوية السحرية كانت غير ضارة على الإطلاق ، ولو أن قلة منها هي التي كان لها أثر علاجي حقيقي من أي نوع .

بيد أنه لا يمكن القول بحال بأن كل الباحثين عن المعرفة gnosis كانوا من السحرة ، حتى وإن اعتبرناهم من النمط « الثيورجي » الراقى . فقد وجد عدد ليس بقليل مرضاته في العقائد السرية ، التي كان يقوم الكثير منها في العالم الهيلينستي ، ذلك لأن إليوسيس لم تواصل وحدها هداية الناس من جميع الأمم ، بل لقد ظهرت أو أحييت عدة عقائد جديدة تحمل الطابع ذاته . ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك أسرار أدريانا في البليونيز التي يعتبرها بوسانياس من أقدم الأسرار ويضعها في المرتبة الثانية بعد أسرار إليوسيس ذاتها . وما لدينا عن هذه الأسرار لا يقتصر فحسب على ما يرويه بوسانياس عنها ، بل إن لدينا نقشا طويلا أسبق عهدا إلى حد بعيد يحوى ثبنا دقيقا بقواعد تنظيمها وإن كان لا يفضي لنا بطبيعة الحال بما هي هذه الأسرار . فقد بطل القيام بشعائر تلك العبادة التي كانت تدور حول المعبودات

المعروفة باسم « الإلهات العظمى » . عندما أوقعت أسبرطة الهزيمة بمسينا ، إلا أنها ازدهرت من جديد ، بعد ذلك بزمان طويل ، عندما منيت أسبرطة بالهزيمة على يد طيبة في القرن الرابع ق . م . وثمة أسطورة عظيمة الدلالة تروى كيف أن إلامينونداس السياسى والقائد الطبى العظيم ، قد طلب إليه في حلم أن يستعيد مسينا ، بينما أرشد حليفة إيتيليس في الوقت ذاته إلى المكان الذى يمكنه العثور فيه على السجلات المتضمنة للتعليمات الخاصة بإقامة الاحتفال . ويحق لنا أن نفترض أن هذه المراسيم المقدسة أو التى يعتقد أنها كذلك ، قد أقحمت عليها كل ألوان المذاهب التى كان يؤمن بها المنضمون إليها ، كما حدث بالضبط فى إليوسيس ، وما وقع دون ريب أيضاً فى كثير من المراكز الأخرى الأقل شهرة . وغالباً ما نقف فى النقوش التى آلت إلينا على ما يبرهن على أن ثمة عبادات فردية قد قامت استجابة لأوامر تضمنتها أحلام أو رؤى ، ولأنه لما يؤسف له أن معلوماتنا قاصرة فيما يتعلق بطقوس هذه العبادات . ومن ناحية أخرى فإن الأسرار الأجنبية ، مثل أسرار إيزيس وأوزيريس ، التى ازدهرت فى مصر البطلمية وانتشرت فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، لم تكن شائعة بين اليونانيين شيوعها بين الأمم الأخرى . ولقد رأينا بالفعل أن « كليا » صديقة بلوتارخ كانت من المنتميات إلى عبادة الآلهة المصرية ، ولم تكن فريدة بل لم تكن تعد استثناء كبيراً فى هذا الصدد ، غير أن الوطنية المحلية ظلت قوية بعض الشيء فى المسائل الدينية ، ومن الجدير بالذكر أن « كليا » أخذت بالنظرية التى تقول إن أوزيريس لا يعدو كونه اسماً آخر لذلك الإله ديونيسوس الذى كانت تعبده فى بلادها . غير أن التصدى للعقائد السرية المصرية والفارسية وغيرها من العقائد الأجنبية إنما هو أدخل فى اختصاص كتاب فى تاريخ الديانة الرومانية المتأخرة أو الديانة اليونانية منه فى اختصاص كتاب كهذا .

وظل الشعور الدينى القوى بمثابة ظاهرة بارزة بين هؤلاء اليونانيين من أبناء العصور المتأخرة ، سواء فى بلاد اليونان الأصلية أو فى كثير غيرها من البلاد التى كانت تتحدث بلغة هيلينية .

وكان من بين أعراض هذه الظاهرة انهيار الروح العلية . فيبدو أن الرجال من أمثال جالينوس العظيم — الذى يعد منهجه الطبى عقلياً بحتاً ، بحيث إن عيوبه ترد إلى المعرفة غير الكاملة بالحقائق المتصلة به ، وليس إلى الافتقار إلى الرغبة فى تحصيلها أو الثقة فى المشاهدة والاستنتاج — كانوا فى تناقص مطرد ، واقتصروا فى الغالب على مهنة الطب ، وذلك على الأقل خلال القرون التى انقضت فيما بين بداية العصر المسيحى ونهاية العصر القديم . فالغالبية العظمى حتى بين المثقفين أنفسهم ، كانت على استعداد للإيمان بعجائب أدعى إلى إثارة سخرية أى من عاصروا أرسطو ، وإلى التسليم بعلوية وسمو أشياء غاية فى التفاهة مثل حلم غريب أو هذيان عابر . وتضاءلت الثقة بالوسائل الإنسانية البحت للوصول إلى المعرفة ، وكان من أسباب ذلك ، الآراء المتعارضة التى كان يراها مختلف الفلاسفة والتى كانت تعرض على أنظار الجمهور فى صور مختصرة أو « دو كسوغرافيات » ، أى كتب تدون آراء (doxai) مشاهير المفكرين القدماء ، حول كل شىء فى السماء والأرض ، دون أن تتناولها بالنقد أو توضح على أى نحو كيف تم التوصل إليها أو كيف تعدلت أو بطلت ، بل إن الفيلسوف العظيم الأوحى الذى أنجبه العهد الوثنى المتأخر وهو أفلوطين لم يعز معرفته المؤكدة بالحقيقة المطلقة إلى استدلالاته الميتافيزيقية البارعة بل إلى تجربة الوحدة مع المطلق ، وهى تجربة صوفية زعم أنه عاها مرات عدة .

ولكن هذا العصر لم يكن خلواً من قديسيه وأنبيائه حتى إن أغفلنا الأسماء العظيمة التى ظهرت فى أواخر العهد اليهودى وأوائل المسيحية . فن بين الأمثلة البارزة قطب المدرسة الفيثاغورية الجديدة أو أشهر أتباعها على الأقل أبولونيوس من تيانا Tyana . ومعلوماتنا عن حياة هذا الرجل وأعماله قد جاءت خلال مصادر تنقسم بالغموض والالتواء . فقد قام فيلوستراتوس ، وهو من خطباء القرن الثالث ذوى البيان بكتابة سيرته بأمر من الإمبراطورة جوليا دومنا زوجة سبتيميوس سيفيروس التى كانت ذات ميول أدبية وفلسفية كما كانت تستضيف أهل العلم فى بلاطها . ويزعم فيلوستراتوس أنه اعتمد على مذكرات كتبها أحد تلاميذ أبولونيوس ذاته ، وهو المدعو داميس الآشورى ، الذى لاشك فى أن مؤلفه ،

إن ثبت أنه كان له وجود خارج مخيلة فيلوستراتوس ، كان غاصا بالأكاذيب
 شأن أبعد سير القديسين المسيحيين عن الثقة. وبحسب ما جاء في تلك القصة الخيالية
 المغرقة في التأنيق اللفظي والحشو المرذول ، والتي لفقها فيلوستراتوس ، فقد اختص
 أبولونيوس منذ مولده بما يميزه عن السواد الأعظم من بني البشر ، إذ انتهز الخطاة
 الآثمين ، وراح يرسل الأمثال والأحكام المقتضبة المليئة بالحياة والقوة ، كما طوف
 بقسم كبير من العالم ، بما في ذلك الهند ، لمحاورة الحكماء من مختلف القوميات
 واللغات ، وقام بعدد من المعجزات ، وتغلب على جميع قوى الشر على اختلافها
 الدنيوية والروحانية ، بما في ذلك الإمبراطور دوميتيانوس الذي روعه بالاختفاء
 من أمامه فجأة والذي شهد مقتله في رؤيا كشفية ، وفي الختام ، وبعد أن عاش إلى
 سن متقدمة ، اختفى من بين الناس دون أن يعلم أحد عن يقين بما إذا كان قد مات
 أو لم يمُت . وإذا ما أسقطنا من حسابنا هذا الزخرف الخيالي ، أمكننا أن نخلص
 من هذا المصدر ومن غيره من المصادر ، أنه كان رجلا يحيا حياة عبادة ونسك ؛
 مهيباً وقوراً في مسلكه ، بالغ الصدق والإخلاص دون شك ، عاش خلال شطر
 كبير من القرن الأول الميلادي ، ونال صيتاً طيباً في شخصيته المؤلفة التي تجمع
 بين الفيلسوف والنبي . ويبدو أنه كان لديه ثمة اهتمام بالطقوس الدينية ، وعلى
 أية حال . فقد نسب إليه مؤلف في القرابين والأضحيات ، ولعله أدلى كذلك بدلوه
 في السحر ذي المرتبة العليا . وليس مما يفتو عن منطق أو عقل أن يكون أبولونيوس
 قد قام بإلقاء دروس في الفلسفة ، بحسب إدراكه لها ، غير أن الشهرة التي لازمته
 إما باعتباره رجلاً ذا مواهب فائقة للطبيعة وإما باعتباره عرافاً ساحراً ، وذلك
 بقدر ما تكون الشهادة المنطوق بها محايية أو معادية له ، فإنها توحى بأنه كان شخصاً
 غير سوى على نحو أو آخر ، ولعله كان عرضة لنوبات من الغيبوبة سواء كانت هذه
 من طبيعة تكوينه الخلقى أو مجتلبة مصطنعة ، وبعبارة أخرى فقد كان واحداً من
 يسمون اليوم في بعض الأحيان الوسطاء .

وحسبنا هذا عن فرد شهير واحد ، وإنه لحقيق ألا يغيب عن الأذهان أنه
 قد كان ثمة طوائف وجماعات بأكملها من الصوفيين الذين يصطبغون على نحو

أو آخر بصبغة فلسفية ، وأن قدرا كافيا من كتاباتهم يكفل لنا الحكم على مذاهمهم
 قد آل إلينا . فقد عزى إلى « توت » المصري الذي طابق اليونانيون بينه وبين
 هرميس فضل تأليف عدد هائل من الكتب حول موضوعات شتى تشتمل على الكيمياء
 الخرافية والتنجيم وغير ذلك من أساليب العرافة . ومن بين هذه المؤلفات مجموعة
 تعرف باسم « مجموعة الكتابات الهرمية » التي يمكننا استكمالها بمخلفات وناق مشابهة
 مأخوذة عن مصادر أخرى ، وتتضمن هذه مؤلفاً لاتينيا يحمل اسم « أسكليبيوس » ،
 وهو كما يتضح لنا ترجمة لأصل يوناني آل إلينا تحت اسم « أبوليوس » من مادورا ،
 وهو بلاغى ذو ميول صوفية تقع حياته في غضون القرن الثالث المسيحي . وسواء
 كان لهذا الأمر صلة به أو لم يكن ، فإن توارخ الآداب الهرمية تظهر وكأنها تمتد
 من قرابة الوقت الذي عاش فيه إلى مدة قرن أو يزيد . ولا تعتبر هذه نصوصاً
 مقدسة تختص بنحلة واحدة محددة بعينها ، وهي لا تختلف في ذلك عن الآداب
 الأورفية ، ولكنها أحق بالاهتمام لهذا السبب ذاته ، بالنظر إلى أنها تمثل اتجاهها
 كان شائعاً إلى حد كبير بين السكان اليونانيين المصريين على أقل تقدير وتدل على
 مناهج التفكير التي كان يطرقها غير قليل من النفوس الورعة التقية . وكان يكن
 وراء الفكر السائد لدى هؤلاء الصوفيين سواء كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة
 من الإخوان الدينيين أو كانوا من المريدين الأفراد ، مذهب منبثق عن تعاليم
 أفلاطون . إذ تأكد في فكر ذلك العصر أكثر فأكثر ، الفارق بين العالم الحقيقي
 غير المادى الذى لا يمكن إدراكه بغير العقل ، أو بما هو أسمى أيضاً من الفكر
 العادى ، وبين العالم المادى أو الظاهرى . وعلى ذلك فقد برزت هذه المشكلة وهي
 أنه كيف يمكن أن تكون لله الذى ينتسب كلية إلى الحقيقة ثمة صلة على الإطلاق
 بشيء فى مثل خبث المادة (التى كانت تعتبر فى بعض مناهج تفكيرهم شراً مطلقاً)
 وكان الجواب يتلخص عادة فى أن الله استعان بوسيط من نوع أو آخر أو بعدد
 من الوسطاء ، أدنى مرتبة منه ، وإن كانوا أسمى إلى حد بعيد من المادة ، لأنهم
 منبثقون عنه سبحانه وتعالى بطريق مباشر أو غير مباشر . وكان أكثر أنماط هذا
 الجواب شيوعاً يقوم على نظرية اللوغوس Logos (التى تقابل فى الترجمة المعتمدة

للكتاب المقدس لفظة « الكلمة »، وهي ترجمة غير وافية بل خاطئة مضللة (التي استخدمها كاتب الإنجيل الرابع . وللوغوس مدلولان رئيسيان في هذا السياق ، هما « الكلام » (أى الفكر مترجما إلى لغة) و « التأمل » (أى الفكر في صورة نشاط ذهني) . فكأن بوسع الإنسان أن يفكر أو يدبر ثم يفرغ في كلمات ما كان قد فكر فيه أو دبره ، ففي مقدور العقل الإلهي أن يقدم شيئا ما يوازي نشاطنا الذهني وبجسماته اللفظية . وهذا الشيء ، أى اللوغوس الإلهي ، يلعب دورا كبيرا في عدة فلسفات وديانات ظهرت في أوائل العهد المسيحي ، كما أن دوره في الكتابات الهرمية لا يقبل خطراً . ولنا أن نضرب مثلا على ذلك بالمبحث الذي يحمل عنوان « بويماندريس » Poimandres في الفقرة الأولى من مجموعة الآداب الهرمية . يقول الكاتب إنه بعد طول تأمل للحقيقة ، راح في غيبوبة عميقة مثقلة تبدى له في أثنائها كائن عرف نفسه باسم بويماندريس (ومعناها باليونانية راعي الناس) أو « العقل ذو السلطان » ، ثم كشف بويماندريس لهذا الصوفي عن رؤيا ، شهد فيها نورا عظيما وظلاما هائلا ، وهما على التوالي الحقيقة والمادة ، ومن النور خرج « لوغوس قدسي » اجتذب إليه الجانب الناري من المادة ؛ متبوعا بالهواء ، أما اليابسة والماء فبقيا في القاع ، ولكن اللوغوس الذي يهب عليهما كالريح أخذ في تحريكهما مهيئا لإياهما للإنصات . ومما يزعم أن هذا اللوغوس هو « الابن النوراني لله » وأنه مستمد من « العقل » ذاته ، أما « العقل » والإله الذي يؤمن به هذا الصوفي فتطابقان كما أعرب عن ذلك صراحة .

وإلى هذا الحد يمكن اعتبار ماسلف نظرية رواقية عن نشأة الكون . فإن ترتيب العناصر من حيث لطفتها وثقلها يتفق وآراءهم ، كما يتفق في واقع الأمر وآراء المدارس الفلسفية كافة ، إذ يقوم على أساس من الحقيقتين الملحوظتين التاليتين وهما أن اللهب يميل إلى الصعود ، وأن الفقاقيع من الهواء والغاز ترتفع خارج الماء . ولعل اللوغوس رواق أيضا ، إذ أكثر الرواقيون من التمثل بعبارة « اللوغيات الخلاقة » logoi spermatikoi ، باعتبارها قوى كونية نشطة في حين أن معبودهم كان يستمد طبيعته من النار أو النور ، ولم يكن غير مادي تماما .

غير أن هذا الأثر الأدبي يمضي فيبين مرحلة أخرى من مراحل التكوين ، تتضمن انبعثات أخرى عن « العقل » وتُسفر عن ظهور الكون المادي . ويتضح من ذلك أيضا وضوح أن الرؤيا الأولى بيّنت مراحل تكوين « الشكل » أو « الفكرة » الأفلاطونية عن الهيولى المنظم ، الذي يعتبر مفهومه حقيقة مستقلة ، لا يعدو تحسيمها المرتئي في الكون المادي سوى محاكاة أو انعكاس لها . ومن ذلك يتبين لنا أننا بصدد مزيج مختلط من أفكار مدارس مختلفة ، الأمر الذي لم يكن من النادر في الفترة اللاحقة على بوسيدنيوس . بيد أنه من بين الدروس الرئيسية التي يلقنها بويماندريس لتلميذه هي أنه كان من نتيجة هذه المرحلة الطويلة المتشعبة التي مرت بها عملية خلق الكون ، أن أصبح اللوغوس نفسه كامنا في الإنسان ، وأبوه هو « العقل » ذاته ولا يمكن في الحقيقة فصلها ، واتحادهما هو الحياة .

ولا يشار إلى هذا المذهب جميعه ، الذي يكشف عن دلائل واضحة على تأثره بمصادر غير يونانية ، تضم فيما يبدو الديانة الزرادشتية ، فضلا عن عناصره اليونانية التي سبقت الإشارة إليها ، باعتباره نتاجا فكريا ، بغض النظر عن كثرة المصادر المؤلف منها ، بل على اعتبار أنه وحى منزل ، ذلك أن بويماندريس كان يطلع تلميذه على رؤى ثم يعمد إلى تفسيرها في اقتضاب وجزم . فهذا المذهب إنما هو معرفة بمفهوم « الغنوسيس » gnosis ، لا يفوز بها سوى من كانوا على قسط واف من الأهبة والاستعداد لها ، وهو ليس بنتيجة يمكن التوصل إليها عن طريق الاستدلال الميتافيزيقي . وحسبنا في الواقع ما يكتنف أسلوب هذا الأثر الأدبي من غموض وما يعتور مصطلحاته اللغوية من اضطراب معين دليلا على أن مؤلفه لم يكن فيلسوفا جدليا ، وإن لم يحرم من سعة الخيال وبعد التصور . وتقدم لنا مؤلفات أخرى تدور هذا المدار محاضرات دينية صادرة عن أشخاص إلهيين أو أشباه إلهيين ، إلى جانب الصلوات الطويلة التي تتميز عادة ببلاغتها وعميق أثرها ، إلى غير ذلك من ضروب التعبير عن مزاج وشعور لا يحمل الصفة الفلسفية على أي من وجوهها السليمة ، كما أنه لا ينطوي دون شك على روح التحجيص والنقد ، إلا أنه شعور ديني راسخ عميق وتبين كذلك من كثير من الفقرات أن الهرميين ،

إن جاز لنا أن ندعوم بذلك ، كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بقدره الطقوس على عقد الصلة بينهم وبين معبودهم الأعلى ، من خلال سلم انبشاقاته وتوابعه . لقد كانت ديانتهم ديانة استشرافية رفيعة تسمو إلى حد بعيد عن العمليات المختلفة التي حاول بها رواد أدنى مرتبة منهم يسرون في اتجاه مماثل ، بلوغ غاياتهم عن طريق الكيمياء الزائفة والتجيم وما إليها ، غير أنها كانت تتفق معها في أن القائمين بهذه العمليات كان لهم أيضاً معرفتهم الأغنوسية *gnosis* الخاصة بهم ، كما كان لكل من التجيم والكيمياء القديمة طابع ديني صوفي مميز . مثال ذلك أن مانيليوس *Manilius* ، وهو الشاعر ذو الشأن الوحيد الذي أنجبه علم التجيم ، يؤكد أن علمه ذو أصل إلهي ، إذ يتساءل في فقرة درج أنكتيرون على الاستشهاد بها قائلاً :

« من له أن يعرف السماء بغير هبة السماء ، أو يكشف الله ، إذا لم يكن هو نفسه جزءاً من الآلهة ؟ » .

وما قاله مانيليوس في شعر لاتيني رصين ، كان يحس به وإن لم يعرب عنه الكثيرون من الأدباء ممن لم يكونوا يدانونه فصاحة . كما أنه لا يعزو اكتشاف علم التجيم إلى أي بشر ما فأن ، بل إلى هيرميس ، وبذلك وصل مرة أخرى بين أفكاره وأفكار الهرميين .

وبالنظر إلى ذبوع مثل هذه العقائد وتلك المشاعر خلال القرون الأولى من العهد المسيحي ، فليس ثمة ما يدعو إلى العجب في أن المسيحية حين بدأت تنمو ويملاً خبرها الأسماح ، صادفت قبولا جزئياً من جانب من كانوا ينادون بآراء كالتى عرضنا لها في العجالة السابقة . والحركة الغنوطيسية كلها ، أي مذهب من كانت المعرفة *gnosis* تمثل أهم أركان دينهم ، إنما هي على قدر ما تدلنا عليه سجلاتنا التاريخية الفعلية ، بدعة دينية منشقة عن الديانة المسيحية ، على الرغم من أنه من المحتمل إلى أقصى حد أنها كانت قائمة بين الأوساط الوثنية قبل أن تصطبغ جزئياً بالصبغة المسيحية . ولأننا لنقف بين كتابات المجادلين المسيحيين على نُبذ توجز المبادئ التي

يقوم عليها هذا المذهب ، ومن ثم فإن مالدينا عن تعاليم رجال من أمثال باسيليديس *Basileides* وفالنتينيان *Valentinian* وغيرهما ، لاتعدو ثبناً معادياً مناهضاً لها . ورغم ذلك فقد آلت إلينا بعض النماذج القليلة من كتابات الغنوطيين أنفسهم ، وعلى رأسها الأثر الأدبي القبطي المعروف باسم « بستس صوفيا » ، *Pistis Sophia* . ويمكن القول بوجه عام إن هذه المدارس جميعها — ذلك لأن الغنوطية لم تكن تمثل مذهباً واحداً بل عدة مذاهب — أكدت الفارق بين العالم غير المادى والعالم المادى بصورة تتجاوز في صرامتها وجزمها مذهب إليه أيضاً أشد المفكرين اليونانيين مثالية . فالمادة كانت تبدو في نظرهم شراً مطلقاً ، ومن ثم فقد استنوا فيما يبدو حياة زهد وتكشف صارمين ، على الأقل بالنسبة لمن كانوا يطلبون السكال ، هذا على الرغم من أن البعض منهم ، إن جاز لنا أن نسلم بما قاله خصومهم ، كانوا ينادون بأن جميع المميزات الخلقية المعهودة إن هي إلا أمور لا خيار فيها ، بل إنهم دعوا إلى أخش الرذائل ، باهتبارها أموراً لا بد للروح المتجسدة من الوقوع فيها مادامت في مكان في مثل دنس الجسد ، ومن ثم يحسن إنقاذها بأقصى سرعة مستطاعة حيث إن القوى السفلية التي تسلط على العالم المرنى ، تصر كما هو دأبها على أن تعيد إلى الجسد من لم يكونوا قد استنفدوا بعد كل الآثام التي ينبغي عليهم اقترافها .

وأقحمت جميع هذه المذاهب على حد سواء بين المعبود الأعلى والمادة سلسلة من الفيوض القدسية التي اطردت تشعباً وتعقيداً بتطور هذه المذاهب ونموها ، ولم يكن في مسكنة غير أحط هذه الفيوض ، الاتصال بالمادة على أي وجه من الوجوه . وبإدماج هذه النظرية بالتراث العبرى ، انتهت هذه المذاهب إلى النتيجة المنطقية التالية ، وهي أنه ما دام رب التوراة هو الذى خلق العالم المرنى فإنه كائن أقل شأنًا ، يبعد درجات ودرجات عن المعبود الأعلى الحقيقى . ووقع المبدأ المسيحي القائل بالتجسد والذى يتميز ببساطة وقربه النفسى من الأفهام في شراك هذا المذهب ، فتمق وزين بالمفاهيم الدقيقة المعقدة . وكان أقل هذه المفاهيم ماثراً للسخرية ، التمييز بين « يسوع » الذى كان إنساناً طاهر النفس قوياً بصورة

تخرج عن المؤلف ، مشهودا له بصلابته في مقاومة عوامل الشر من جانب المراتب الدنيا من الخلق وبين المسيح ، باعتباره فيضا قدسيا ينتمى إلى مرتبة سامية نوعا ما ، دخل يسوع وقت تعميده وتركه من جديد قبيل صلبه . ولقد آلت إلينا دقائق كثيرة أخرى من هذا القبيل ، بفضل الاهتمام المشوب بالعجب الذي أبداه الكتاب المسيحيون الذين صحة عقيدتهم ، الذين كانوا يرون في كل ذلك أقبح الزور .

ومن ثم يتبين لنا أن الديانة الجديدة عندما أخذت في الذبوع والانتشار ، لم تقع في النفوس موقع الشيء البعيد تماما عن المؤلف . لقد كانت ديانة تؤمن بالإله الواحد ، وهكذا كانت في الواقع أقرب العقائد القائمة إلى الطابع الفلسفي . وكان إلهها علويا مستشرفا ، وهكذا كان حال آلهة المذهب الهرمي ومذهب الأفلاطونية الجديدة ، ونيف من المذاهب الأخرى ، ولقد كان خالقا ، ومن ثم كان في قدرته أن يقيم نوعا من الصلة بينه وبين المادة ، رغم أنه هو بذاته يسمو عليها سموا هائلا وما كان ذلك ليثير دهشة أي أفلاطوني أصيل ، فإن أفلاطون نفسه قام ، في واحد من أبعد مؤلفاته أثرا وهو *Timaeus* ، بشرح طريقة معقدة لنشأة الخليقة . وعلاوة على ذلك فقد سدت منذ زمن مبكر الثغرة التي تفصل بين الله والمادة بإحلال اللوغوس *Logos* محلا وسطا بينهما (ويبدو أن تاريخ الإنجيل الرابع يعود إلى نهاية القرن الأول تقريبا) . وكان للمسيحية عقيدة تؤمن بالخطيئة والخلص ، وهما أمران ألفتها كثرة من اليونانيين من الآداب الآورفية وغيرها من الآداب . ودعت المسيحية منذ البداية إلى وجوب التزام مستوى عال من السلوك الأخلاقي ؛ ولقد حظى الجانب الخلقى من الدين بالاهتمام منذ عهد سفسطائي القرن الخامس . وشرعت المسيحية منذ زمن مبكر يعود إلى بولس الرسول في استخدام المصطلحات الدينية والفلسفية الخاصة بالمذاهب القائمة ، في حين أن مفرداتها العبرية لم تقع موقعا غريبا تماما من الأسماع بالنظر إلى حمى نشاط الإرساليات اليهودية . كما أنها لم تلبث أن استحدثت لنفسها الطقوس والمراسيم ، وهو أمر مؤلف مستحب في ذاته ، وقد خلطت هذه المراسيم

على خلاف كثير من العبادات القديمة ، من كل ما يستقبح أو يستهجن . فإنها لم تقدم ، على سبيل المثال ، الذبائح من الحيوان ، وهو طقس كانت تميل بعض المدارس الفكرية إلى معارضته ، لأسباب تتعلق بمذهبها القائل بتناسخ الأرواح ، ويقال إن كلاما من فيثاغوراس وأبولونيوس من توانا قد امتنعا عن التزام ما جرت به العادة في زمنيها في هذا الشأن ، مستعيزين عن ذلك باقرباين غير الدموية . ومن بين مزاياها السلبية أنه لم يكن أمامها أكدا من الأساطير الهمجية أو غير الأخلاقية التي ينبغي لها التخلص منها بالتفسير والتعليل ، وكانت ، مؤلفاتها فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، من وضع من نسب إليهم تأليفها ، والحق أنه عندما حان الوقت لاختيار أسفار الإنجيل ، صادف مصنفوه نجاحا منقطع النظير ، بالقياس إلى سداجة العصر الذي كانوا يعيشون فيه ، في أنهم لم يضمنوه غير الكتب التي يحتمل أنها ، من حيث تاريخها على الأقل ، قد كتبت بأقلام الرسل الحقيقيين . ولا يقل أهمية عما سلف ، كون مؤسسها شخصية تاريخية ، قريبة العهد ، بدأت تكتب تراجم عنه في غضون ما يقرب من جيل من تاريخ الصلب . فليس ثمة ما يدعو إلى العجب ، إذن ، في أن العقيدة الجديدة اجتذبت اهتمام نفر كبير من الأفراد لا من أهل التقى والورع فحسب ، بل من الأذكاء جدا أيضا وليس ثمة ما يدعو كذلك إلى أقل القليل من الغرابة ، في أن عددا غير يسير من أشياعها طفقوا ، بالنظر إلى مضاء فكرهم ودربتهم الفلسفية ، يفسرون عقائد صميعة في ديانتهم ، وخرجوا بعد بضعة قرون من الجدل والتأمل ، بلاهوت «العقيدة النيقاوية» بالإضافة إلى العدد العديد من الهرطقة الدينية الفسوطية وغيرها ، التي تمثل تجارب لم تلق القبول من جانب الجماهرة الكبرى للرأى العام المسيحي .

أما اللاهوت الناتج ، فكان يونانيا في قالبه ، يونانيا كذلك في الجزء الأكبر من مضمونه . ونشير على وجه الخصوص إلى أن فلسفته المتعلقة بالعالم الآخر وفكرته عن طبيعة الكائنات التي هي دون المنزلة الإلهية يدنان بكل شيء تقريبا إلى التأملات اليونانية . انقسمت الأرواح (ديمون) *daimones* إلى ملائكة وشياطين ، ولقد كانت فكرة جهنم والمطر والجنة ، من الأفكار الشائعة الجارية

في بلاد اليونان منذ زمن طويل ، وكان من بين المفاهيم المألوفة إلى حد بعيد أن أرواح الصالحين ينبغي أن ترقى إلى ما هو أكثر من حالة القناء والموت ، فاحال ترديده من التعاليم أن روح الرجل الصالح قد تتحول إلى بطل ، والبطل إلى ديمون daimon ، والديمون إلى إله في نهاية الأمر . وذهب الأمر أيضاً إلى أن تحديد أماكن الثواب والعقاب ، اتفق والنظريات القائمة ، فالسما هي المسكن الطبيعي للروح كما في الفلسفة الأفلاطونية وغيرها من الفلسفات ، في حين أن جهنم تصحصر عن Tartaros وهي السجن التقليدي للتمردين على الآلهة القدماء . ورؤيا العالم الآخر ذاتها التي نطق عليها في الآداب المسيحية الأولى ، مثل تلك الرؤيا المسماة برؤيا بطرس ، إنما تحوى من الصور الفكرية اليونانية قدراً مساوياً إن لم يكن أكثر مما تحويه من صور فكرية أجنبية . ومن الجدير بالذكر أن رجلاً مثل القديس كليمنس الإسكندري الذي كان يحمل الفكر اليوناني ، على قدر ما تصوره ، ميلاً أبعد ما يكون عن التفور ، قد نادى بأن هذا الفكر كان من الأشكال التي اتخذتها العناية الإلهية في التمهيد للعقيدة الكاملة ، وأن المسيحية هي المعرفة gnosis الحقة .

ولكن ما عرضناه بالمناقشة في هذا الفصل ، لا ينبغي أن يؤخذ كما لو كان وصفاً ينطبق على كل يوناني ، أو على الفرد من أوساط اليونانيين ، من أبناء العهد المتأخرة من العصر القديم . فالأقنياء الوريثون والقديسون الأبرار نواذر في كل قطر وفي كل زمان ، أما ذوو الاحترام عامة ، ممن يلتزمون عادة بما يتفق أن يكون سائداً من التقاليد الدينية فهم كثيرون . ولا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أن البيانات التي ناقشت المسيحية ردحا من الزمن كانت بيانات مدن ، وأن الدين المسيحي ذاته انتشر أساساً بين مجتمعات أشد من ذلك ضخامة . أما الريف فقد بقي في الغالب الأعم على الحال التي كان عليها دائماً ، وذلك فيما يتعلق بالطقوس الدينية المرعية . فبالنظر إلى أن دورة الفصول لم يعثرها تغيير أو تبديل وأن أعمال الزراعة وشواغلهم ظلت كذلك ، فقد كان طبيعياً للغاية أن يظل جل اهتمامهم منصبا على الطقوس التي كانت عوناً لهم ، كما استقر في عرفهم ، في مواسم بذورهم

وحصادهم . وهناك ما يدعونا إلى الشك في أن نفرا كبيراً ممن دخلوا في أي من المذاهب المتطورة الحديثة ، بنظرياتها اللاهوتية المعقدة وخصوصياتها المخدمية ، كانوا يعيشون خارج المدن . ولقد كانت الإلهة ديميتر ، وابنتها ، أو ما كان يوازيهما في الأوساط المحلية ، كما كانت الحوريات وغيرهن من المعبودات الصغرى ، يستأثرن جميعاً أيما استئثار بحب الريفيين .

وكان من نتيجة ذلك ، أنه عندما اعتنى ، في النهاية ، العالم المتحضر جميعه رسمياً الديانة الجديدة ، كان الريف أقل استعداداً لها من الحضر . لقد تغيرت الأسماء ، وحلت الكنائس محل المعابد ، بتحويل المعابد إلى كنائس في أحوال غير نادرة ، وحرمت الشعائر القديمة بموجب عقوبات صارمة ، غير أن الأتقى قليلة الحظ من التمثيل والتثقيف ، والتي نشأت على الإيمان بتعدد الآلهة ، لم تتغير بالقدر الذي أوحى به المظاهر الخارجية . وغنى عن البيان أن القديسين قد تولوا في أكثر الأحيان وظائف الآلهة والأبطال ، وبذلك حلوا محل المعبودات المحلية الصغرى التي ظهر الشعور بافتقارها حين وفيت الطقوس الكنسية الرسمية بحاجات المدن . وثمة حقيقة لا تقل عن ذلك ثبوتاً ، وإن صعب الإلمام بتفاصيلها ، وهي أنه قد كتب البقاء لكثير من المعتقدات والعادات القديمة تحت غلالات وأقنعة شفافية . وتبين ذلك في إيجاز سيكون من مهمة الفصل الختامي .

الفصل السابع

الآثار الباقية

يندر أن يتطلب موضوع من الموضوعات من الدقة والمهارة في معالجته ما يتطلبه موضوع يقام اليونان القديمة في اليونان الحديثة . فأوجه الشبه بين عادات أهل الريف وأساطيرهم ومعتقداتهم في الوقت الحاضر وبين أساطير وطقوس العصور القديمة عديدة معروفة ، غير أنه من خطئ الرأي أن نزعهم كما كان شأن الباحثين زمنا ما ، أن هذه تتحدّر مباشرة عن تلك ، ذلك لأنه من الميسور أن نقف على أوجه شبه مماثلة في بلاد لا تمت إلى اليونان القديمة بأية صلة تاريخية على الإطلاق . فضلا عن أن بلاد اليونان تعرضت للغزو مرات كثيرة منذ ختام آخر عصر من العصور الكلاسيكية (ولنا أن نتخذ ، رغبة في التيسير ، حكم جستينيان ٥٢٧ - ٥٦٥ ميلادية حداً فاصلاً) كما أن نسبة معينة من سكانها الحاليين ، تختلف الآراء في تقديرها ، ليسوا من أصل يوناني . كما تأثرت ثقافتها أيضا تأثرا كبيرا بالصلوات الأجنبية وعهود الاحتلال الأجنبي ، وشاهد ذلك تلك الألفاظ الإيطالية والتركية التي تميز ، إلى جانب بضعة ألفاظ سلافية وتنق من مصادر أخرى منها الإنجليزية والفرنسية ، مفردات اللغة اليونانية الحديثة . وعلى ذلك فإن نحن وقفنا في قرية من قرى الريف اليوناني على شيء يذكرنا بوصف مطابق لكاتب يوناني قديم فينبغي لنا أن نتفحص هذا الشيء جيدا لكي نتيقن من أننا لسنا حيال أحدوثة أو عادة نقلها السلافيون أو الألبانيون أو الإيطاليون أو الأتراك في زمن ما خلال القرون المضطربة التي انصرفت منذ وفاة جستينيان . ومما زاد المسألة غموضا ، حماس بعض علماء الآثار اليونانيين ، وهو حماس طبعي له ما يبرره ، ممن حاولوا ، وهم يشعرون عن حق بالفخر بتاريخ أسلافهم المجيد ، أن يبرهنوا على أن كل ما في بلاد اليونان ، يوناني أصيل . ومع ذلك فبعد تمحيص كل ما يمكن

تمحيصه وإسقاط كل ما يمكن إسقاطه ، تبقى ثمة رواسب صلبة ، قوامها مادة حديثة ؛ هذه المادة الحديثة إما مقطوع تماما بنسبها إلى الفترة الكلاسيكية القديمة وإما أنها مدعومة بالقرائن بالقدر الذي لا يدع في واقع الأمر مجالا للجدل في أصلها القديم . وسوف يقتصر هذا الفصل على إيراد بعض الأمثلة القليلة التي تنسب إلى هذه الفئة ، مغفلا كثيرا من التأملات الطريفة وجانبها كبيرا مما يستهوى أي باحث في الفنون الشعبية لقيمتها في حد ذاته بغض النظر عن أصله .

ولمّا لا نقف ، كما هو منتظر ، إلا على نزر يسير من آثار الآلهة الكبرى ، فيما عدا شذرات قليلة من المعارف الأثرية التي عرفت طريقها إلى العامة . فهناك على سبيل المثال ، بعض الآثار للإله زيوس في جزيرة كريت ، إذ ترد إشارات عديدة إلى قبره ، ولا يقتصر ذلك على الوثائق العلمية فحسب بل يتعداه إلى التقاليد المحلية . وغنى عن البيان أن اسمه قد جرى به شيء من التحريف (فهو الآن زياس Zias) كما أننا لا نقف لقبره على موضع ثابت ، غير أن الرواية تعود على أية حال إلى أخريات العصور الوسطى . ولكنه ينبغي لنا أن نتذكر أن « زيوس » الكريتي هذا كان من بين الأمثلة المفضلة لدى جمهور المدافعين عن العقيدة المسيحية ، للتدليل على النظرية القائلة إن الآلهة الوثنيين إن لم يكونوا في الحق شياطين من الجن ، فهم آدميون موقى ، كما يجدر بنا أيضا أن نتذكر أن الباحثين البيزنطيين كانوا على علم تام بهذه الحجة .

ومن ثم فإنه يكاد يكون من المقطوع به أن مثل هذه الأساطير الشعبية السائدة اليوم ، قد تسربت إلى الصعيد الشعبي عن دوائر أوسع ثقافة وأشد تفقها ، ولا غرو فبلاد اليونان لم تعد قط العلماء والباحثين منذ بواكير العصر الكلاسيكي القديم ، وقد كان هؤلاء على جملتهم يعنون بتاريخ بلادهم وتراثها المكتوب . أما أرتيمس فهي في وضع أفضل من ذلك ، إذ أن لدينا من الروايات الموثوق بها والتي تؤرخ من القرن الحادي عشر فصاعداً ، ما يفيد بوجود عقيدة

تؤمن بكائن يدعى « ربة الجبال الصالحة (أو الجميلة) »^(١)؛ والقول بأن هذه هي أرتيميس قول لا غبار عليه على أقل تقدير. غير أنه يمكن القول بصفة عامة، إن دعاة الإصلاح المسيحيين أفلحوا في سحق الإيمان بالمعبودات الكبرى سحقاً تاماً، حتى إنه نادر أن يكون قد تخلف عنها اسم واحد، فيما عدا بضعة أسماء قليلة كتبت لها الحياة في كنف التراث الأدبي الذي أخذ اليوم في الرواج بين الجماهير. فالأشعار الشعبية اليوم قد تدعو بين حين وآخر امرأة جميلة بأفروديتي، أو تتحدث عن لواعج الهوى لدى الحب قائلة: إن ذلك الذي رماه بها هو إيروتاس *Erotas*، أي إيروس، كما يمكن أن يطلق اسم إيروتاس أيضاً على طفل جميل.

وأهم من هذه بعض المعبودات الصغرى. فإن خارون *Charon* ذلك الذي لم يكن يمثل في الأساطير القديمة غير شخصية ثانوية، هي شخصية صاحب القارب الذي يحمل الموتى إلى مملكة هاديس، لم يقدر له أن يحتفظ بمكان بارز لحسب (مع تحريف طفيف في اسمه، إذ يدعى الآن خاروس *Charos* أو خارونداس *Charondas*) بل إنه أصبح في المعتقدات الشعبية إلهاً من آلهة الموت. والحقيقة أن اسمه يرادف اسم الموت، أما لفظة « هاديس » فقد باتت في الوقت الحاضر كما كان الحال إبّان المراحل المتأخرة من اللغة اليونانية القديمة، علماً على مكان معين لا على شخص من الأشخاص. ولكنه قلما كان يصطبغ على قيادة قاربه، بل كان يمتطي، عوضاً عن ذلك، صهوة جواد أسخم، وهناك قصص شعبية لا تقع تحت حصر تصوره وهو يحتطف في غير رحمة أو شفقة الشيب والشبان إلى داره الكثيرة ويتفق في بعض الأحيان أن تكون له زوج، وهذه تدعى خارونتيسا *Charontissa*، كما أن من أخباره المتواترة دخوله مع أحد الشبان البواسل في صراع كانت تكتب له فيه الغلبة على الدوام. وقد يحدث بين حين وآخر أن يستعيز عن مباريات المصارعة، بالدخول في مسابقات للقفز، كان يحرز

(١) *Kalé* تعنى في اللغة اليونانية القديمة « جميل » وفي اللغة اليونانية الحديثة « طيب ».

فيها النصر بقفرة هائلة منه، وبذا يحصل على الرهان الموعود وهو روح منافسه المقهور. وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها المعلون المسيحيون، فإن أخيلة العامة مازالت تقف من الموت والعالم الآخر الموقف ذاته الذي كانت تقفه زمن هومر، فدار خارون خلو من كل لذّة، مظلمة، كثيفة، ملوّها الخراب، ينعدم فيها كل وجه من أوجه النشاط المحبب الذي تزخر به الحياة على الأرض. وتقف هذه الصورة جنباً إلى جنب مع الصورة الأخرى المستمدة من تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية، والتي تناقضها بالطبع كل التناقض. بيد أن هذا التناقض الدائى، إنما هو سمة مميزة لأفكار العامة المتعلقة بالعالم الآخر، بين جميع الشعوب. فاليوناني من العامة شأنه اليوم كشأنه في الزمن القديم، مقبل على الحياة راغب فيها بالصورة التي يدركها، أي الحياة في الجسد وتحت الشمس التي يألفها، وقد يكون مقتنعاً ذهنياً بخلود الروح وبالثواب والعقاب في الدار الآخرة، ولكن ذلك لا يستأثر من وجدانه باهتمام كبير. وقد يكون لنا أن نتخذ ذلك دليلاً على أن أيا من الديانات التي تنادى بالعالم الآخر، بل تلك التي نالت منها في النهاية أكبر قسط من الذبوع بين العالمين، لم تغفل تغلغلاً بعيداً في صميم الوجدان الشعبي. ويمكن أن نضرب على ذلك مثلاً أو مثلين. ففي أغنية من جزيرة خيوس، يتفق الراوى عند تسلفه جرفاً رغبة في بلوغ شجرة تفاح، أن يحل بساحة من ساحات الدفن وتعثر قدمه بأحد القبور، فيصدر عن هذا القبر صوت يقول:

أما كنت مثلك شاباً يافعاً؟ أما كنت بطلاً؟ ألم أكن أسرى بالليل والقمر ساطع وضاء؟ ألم أكن أحل سيفاً طوله أربعون ذراعاً ورمحاً طوله ستين؟ وبعد كل ذلك تظاً فوق رأسى؟

كان من الممكن أن ترسم صورة شبيهة بهذه الصورة التي يظهر فيها الميت محتجاً على ما يلقاه جثمانه في قبره من مهانة وازدراء، في أي زمن من الأزمان خلال ثلاثة آلاف السنة الأخيرة أو نحو ذلك. وهي لا تحمل أي طابع مسيحي مميّز كما أنها لا تدن بشيء لاية فلسفة لاهوتية. أما المقطوعة التالية، وهي من كيفالونيا، فهي تمزج بالفعل بين صورة « هاديس » كما تظهر في بشاعتها الهومرية وبين قليل من مصطلحات الديانة المسيحية:

«أود أن أكون تاجرا، لأهبط إلى هاديس، وأحل الثياب للفتيات والأسلحة للفتيان، والطرايش التونسية كذلك للوجهاء من العزاب. شبكت ما بين أصابعي وتوسلت إلى خاروس ليعيرني المفاتيح، مفاتيح الجنة، حتى أرى كيف حال الشبان، وكيف تقضى الفتيات أوقاتهم. فوجدت الفتيات وثيابهن رثة، والرجال بغير سلاح، والأطفال الصغار البائسين لم تستر أبدانهم الثياب قط».

وقد سبقت الإشارة إلى الحوريات القديمة المعروفة باسم «نيرايديس» Nereides والحوريات الحديثة التي يطلق عليها اسم «نيرايديس» Neraïdhes. أما هؤلاء الأخيرات فيمثلن جنيات الريف اليوناني ويتصفن بكل خصائص جنسهن. فهن جميلات مثقفات؛ وقد يختطفن في بعض الأحيان أطفالا آدميين، كما عرفن يتحولن إلى عشيقات لرجال من البشر؛ وهن متقلبات المزاج سرعات الغضب يخضعن لشتى النزوات والأهواء، ومن ثم يحسن مخاطبتهن بعبارات الإطراء والمدح. وقد يظهرن للعيان بين حين وآخر، متميزات بثيابهن البيضاء (والحقيقة أن من بين الاسماء الشعبية التي تطلق عليهن اسم «لابسات الثياب البيض» asprophores). ويحكى عن بعضهن تلك القصة الشائعة عن القابلة الآدمية التي استدعيت لمعونة إحدى الجنيات الحوامل؛ وتقول إحدى رواياتها إن القابلة (وهي امرأة حقيقية كانت معروفة شخصا لدى بعض الناس ممن عاشوا في أواخر القرن الماضي) قد استدعيت في منتصف الليل، وقامت بمهمتها، ونقدت شيئا أشبه بذهب جنى معكوس، إذ دفع إليها بقطعتين من قشر البصل، ولكنها اكتشفت عندما عادت إلى البيت أنهما كانتا قطعتين من العملة الذهبية التركية. وقد كن مولعات كذلك بذريعتن، رغم أن هذه الذرية قد تبدو بالقياس إلى القيم الخلقية الإنسانية كريهة مقية بشكل ملحوظ، ويستدل على ولعهن هذا بالقصة التي تروى عن لقاء أحد القساوسة بإحدى الميليغانات Milighanes كما تسمى «النيرايديس» في بعض الأحيان. فقد تقدمت منه وهو راكب بغله وطلبت إليه أن يأذن لطفلهما بالركوب، فأجابها إلى طلبها. وعند ذاك جمع البغل، فسارع القس عن حكمة بالغة إلى حماية نفسه برسم شارة الصليب، وولى وجهه شطر كنيسة لا يلوى على شيء.

ولم تجرؤ الميليغانا على أن تتبعه إلى داخل الكنيسة. ثم أمكن الوصول إلى اتفاق، إذ رد الطفل إلى أمه، على شريطة أن يحفر الميليغانات بئرا ويقمن بستانا للكروم، وقد أوفى الطرفان ببند الاتفاق في أمانة وصدق.

في هذه الأقصوصة التي كانت أو ما زالت تروى في ميستا Mesta بجزيرة خيوس، نقف على الصراع القائم بين القوى القديمة والقوى الحديثة. على نحو يألفه كل من تصفح الأدب المسيحي في مراحل المبكرة في موضوع قوى الظلام (أو الخارجين في الظلمة، كما يعرفون في اللغة اليونانية الدارجة الحديثة). ولكنه يبقى أن نجيب عن هذا السؤال، وهو؛ هل ترجع «النيرايديس» أو «الميليغانيس» أو ما شئت أن نختار لها من أسماء شعبية أخرى، إلى أصول يونانية قديمة عريقة، بمعنى كونهن خليقات ليس «للنيرايديس» Nereides فحسب بل للحوريات nymphes أيضا؟ لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أن ثمة شخوصا شابهة تظهر في الآداب الشعبية لأكثر من شعب واحد من شعوب البلقان، غير أن مواقف النيرايديس في انتسابهن إلى أصول هليزية أثبت وأقوى. فالواقع أن كل الأعمال والصفات التي تنسب إليهن، نجد لها ما يضارعها في العصور القديمة.

فقد تلعب الحوريات في بعض الأحيان دور العرائس الجنية وتزف إلى آدميين (فإن دافنس: نصف الإله الذي تحكى به الأساطير اليونانية في صقلية، قد هامت به لاحداهن، وأصابته بالعمى حين تبينت خيائته لها)؛ وهن ذوات حسن طاغ؛ وقد يختطفن الإنسان في بعض الأحيان، وإن كان لا يبدو أنهن يختطفن الأطفال الرضع ويضعن في مكانهم أطفالا من الجن كما يفعل النيرايديس في بعض الأحيان. وفي وسعهن أن يمسسن الناس بالجنون، وإن كان في مقدورهن كذلك شفاء العلل والأسقام، وذلك إذا ما قربت لهن القرابين الصحية، وما يقال إن الأرواح في العصر الحديث تقوم بنشاط مماثل.

ويجمل في هذه الحالة الأخيرة أن تقدم للأرواح قرابين من فطائر الشهد أو أية حلوى مماثلة، وقد تصادف أن كانت هذه من القرابين الشائعة في العصر القديم. ويميل النيرايديس أشد الميل إلى سكنى الآبار، بمعنى أن طباعهن كانت قريبة الشبه من طباع حوريات الماء القدامى أو ما يعرفن باسم النيايديس Naiades.

ومن بين الكائنات التي تخلفت أيضاً عن العصور القديمة ، كائن يتميز بالشر المطلق ، هو الغول (١) Ghellou ويعرف في اللغة اليونانية القديمة باسم جيلو Gello ، ويمثل في جنبة مخيفة اعتادت سكنى دور الحضانة اليونانية منذ زمن يعود إلى القرن السابع ق . م ، وكان يعتقد أنها تسبب في موت الأطفال موتاً مفاجئاً ، وأنها تفتقم بذلك لموتها المبكر . أما اليوم فإنه يبدو أن الغول أو الغيلان Ghelloudhes ، ذلك لأن هذا الكائن — شأن معظم الكائنات الغامضة — يدعى تارة بالمفرد وتارة بالجمع ، قد أصبحت تفتال بوجه خاص الوالدات الشابات إذا ما أمكنها التحايل على دخول البيت بأية أحواله .

وأهم من ذلك الكائنات المعروفة باسم « مويريس » Moires وهذه كانت من أغوال الولادة في العصر القديم ، وما يذكر عنها أنها تزور حجرة الولادة وتقرر مصير الطفل الوليد . وهذا هو حالها اليوم ؛ فهي تزور الدور التي تقع فيها حالات الولادة — وتأتي في أيجينا في اليوم الثالث وتعد لها وليمة بهذه المناسبة ضماناً لاعتدال مزاجها — وتقع زيارتها عادة بعد حلول الظلام ، وقد تبكر عن ذلك في بعض الأحيان إذا ما كانت النوالدة نائمة ولا أحد في الحجرة سواها .

وتختلف أوصاف العامة لها ، وإن بدت في الغالب متأثرة بالأساطير القديمة وبموضوع الغازلات التقليديات الثلاث كما يظهرن في فنون التصوير المختلفة ، إلا أن هذه الأوصاف تثبت في بعض الأحيان تحررها الكامل من كل هذه المصادر الثقافية ، كما هو القول الراجح في حقيقة الأمر . وتظهر في بعض الأماكن علامات يمكن الاستدلال بها على ما قدرته « مويريس » للطفل من حظ سعيد أو تعيس . ويمكن استحضار مويريس في أخريات الحياة . وإليك على سبيل المثال قصة الوصيفة الجميلة التي كانت تحمد سيدتها القبيحة . فقد صعدت بها السيدة إلى سطح

(١) في اللغة العربية ، كل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول (المترجم)

المنزل في المساء وهناك قالت : « يا مويريس ، يا مويريس ، دعني « مويرتي » تأتي إلى ، فظهرت « المويرة » في صورة فتاة جميلة بهيمة الثياب . وعندئذ أمرت الوصيفة بأن تلو هذه التلاوة ذاتها ، فبدت « مويرتها » على هيئة عجوز شمطاء منفرة مهلهلة الثياب . وبذلك تبينت الوصيفة علة ما هي عليه من ضعة الشأن ، ورضيت بحالها . وثمة قصص أخرى تجرى على هذا المنوال ، وفي بعض هذه القصص نلاحظ أن حظ (Tyche) الشخص وليس « المويرة » هو المعنى المقصود .

والأمر هنا يتجاوز حدود البقاء المجرد لأثر من معتقد أو أسطورة . فقد تخلف للمويريس شيء من طقوسها ، وهناك ما أشبه بالصلاة أو التلاوة التي يستعان بها عند الحاجة إليها ، ذلك لأن الكلمات التي تنطق بها كل من السيدة والوصيفة هي على السواء صيغة من الصيغ الشعرية الشهيرة المعروفة . كما أن الحظ Tyche لم يفقد أيضاً كل ما كان له من أهمية في الزمن القديم ، رغم إصرار علم اللاهوت ودعاته الرسميين على أن شيئاً من ذلك لم يكن له وجود في عالم القوى وأن كل شيء مرهون بمشيئة الله الواحد الأحد . ومن الحقائق الطريفة أيضاً أن هناك أفراداً من المويريس والتوخيس Tyches . ومن الميسور أن نعود بأصل هؤلاء إلى نظريات العالم القديم عن الأرواح والشياطين ، وهي التي كانت تنادى في الغالب بأن لكل إنسان روحاً daimon خاصة تسهر عليه وتراقبه . وقد اودعت هذه النظريات ذخيرتها أيضاً في النظريات المسيحية المتعلقة بالملائكة ؛ فالملائكة الحارسة جزء من تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية ، كما أن الناس يؤمنون بها إيماناً راسخاً . وهكذا نرى أن ثمة نظرية من النظريات الفلسفية التي قدر لها أن تحظى في العصور القديمة بإيمان يكاد يكون عاماً ، قد بلغت عقول أهل الريف في العصر الحديث عن طريقين مختلفين أحدهما رسمي والآخر شعبي .

وأهم من ذلك أيضاً تلك القطاعات الكبيرة من طرائق الحياة التي يمكن أن ترجع بأصولها في شيء قليل أو كثير من اليقين إلى الزمن القديم ، وقد سبق أن ألمنا بموضوع الميلاد وطقوسه ، أما الآن فنجد أن نظريتي الأزميتين الكبيرتين

الآخرين وهما الزواج والموت بحثا عن تلك النواحي التي تتشابه فيها تقاليدهما مع العادات القديمة ، والتي يمكن أن نعتبرها في شيء من الصدق من الآثار الباقية المتخلفة عن العصر القديم .

أما فيما يتعلق بالحدث الأول ، فتجدر الإشارة إلى أنه ، سواء بالنسبة لليونانيين المحدثين أو بالنسبة لأي شعب أوربي آخر ، فإن القداس الديني الذي يقام في كنائسهم إنما هو طقس دخيل لا يمثل جزءا حقيقيا من مراسم الزواج ، بل هو طريقة معقدة لإزالة البركات على المراسم — أو ما تبقى منها — التي تؤلف الزفاف الحقيقي . وهذه بدورها قد أثقلت بحشد كبير من العادات التي لا تمت ، فيما نعلم ، بصلة إلى أي شيء قديم ، حتى إنه يكاد يكون من الصعب أن نحاول التقاط شذرات من العادات القديمة من بين أكادس من العادات الأقرب منها عهدا ، رغم أن الجانب الأعظم من الطقوس الشعبية التقليدية التي تصاحب أعراس الريف اليوناني ، ليست بلا ريب حديثة النشأة أو وليدة الأمس ، ولعل قسما كبيرا منها يتجاوز حدود ما نعلمه ، قديم الأصل ، ذلك لأن حظنا من المعلومات الخاصة بالمراسم القديمة ضئيل ، حتى بالنسبة لأثينا ذاتها ، وناهيك عن الأماكن الأخرى التي لا ندانيها شهرة . فالغناء على سبيل المثال وهو من الملائح المعهودة للأعراس في الأزمنة الحديثة ، يقوم به مغنون وعازفون محليون ، ويتضمن كلمات المدح التقليدية المحككة لكل من يعينهم الأمر ولا سيما العروسين الشابين بطبيعة الحال ، ويقع قبل يوم ليلة الزفاف القمطين وبعدهما كذلك . ولكننا نمكاد نبلغ حد الشطط إن افترضنا أن هذا الغناء ينحدر مباشرة عن أغاني الزفاف في العصر القديم ، وأشهرها الإيبثا لاميون ، *epithalamion* التي عرفت طريقها إلى الأدب ، ومن ثم تيسر لنا أن نلم من أشعار سافو وثيوكريتوس *Theokritos* بطرق من مضمونها ، فقد كانت تزجي المدح للعروس والزوج وتغني خارج غرفتها . والحقيقة أن الجانب الأعظم من أغاني الزفاف في العصر الحديث تقليدي قديم ، غير أن أوزانه وصياغته وقوالبه الشعرية ، تكشف جميعها في وضوح عن جدائته ، فهي لا تحمل أثرا لأي شيء مستمد من مصادر قديمة أو حتى من

مصادر تعود إلى مسهل العصور الوسطى . ومن ثم فلا يسعنا إلا القول بأنه من الجائز إلى أقصى حد أن تكون هذه العادة قد استمرت ، مع تغير شكلها الخارجي تدريجيا ، تبعا للتغيرات التي اعترت اللغة والمفاهيم المتعلقة بأسس علم العروض وخصائص الأسلوب الشعري .

وربما كان أقوى من ذلك دليلا عادة نثر الأرز وقطع النقود والحلوى فوق هامتي الزوج والعروس ، ولعل هذا أثر من آثار العادة القديمة المعروفة باسم *katachysmata* غير أن عادة إلقاء شيء من هذا القبيل فوق أو في اتجاه العروسين لم يأت عادة تبلغ من الذبوع والانتشار حدا لا يستبعد معه أن تكون قد انتقلت إلى بلاد اليونان من أي مصدر من عدد غير قليل من المصادر . وفي مثل هذا الضرب من العادات كافة التي تنكس عن أفكار شائعة بين جانب كبير من الجنس البشري (ولعلها في هذه الحالة ترمز إلى تمحي الخصب للزوجين بقدر ما للبذور من خصب ، وتدعو إلى أن تكون حياتهما رضية هنيئة ، كما تشير إلى ذلك قطع النقود والحلوى) ينبغي أن نضع في الاعتبار على الدوام أننا قد لا نكون حيال أثر حقيقي ، بل بعث يكاد يكون لاشعوريا للقديم . وربما كان أعظم من ذلك مغزى ما يلاحظ بين حين وآخر في الأعراس اليونانية الحديثة من وجود غلام صغير في رفقة العروس . وقدما جرت العادة في جزيرة خيوس أن ينام هذا الغلام مع العروس في الليلة السابقة على الزفاف ، وكان يشترط فيه آنذاك كما هي الحال حتى وقتنا هذا ، أن يكون أبواه لا يزالان بعد على قيد الحياة ، بمعنى أن تشتم منه ، إن جاز لنا هذا التعبير ، رائحة الخصب والغناء والحياة العائلية السوية ، دون رائحة الموت بأية حان من الأحوال ؛ أما اليوم فإن هذا الغلام يظهر — في الحالة الوحيدة التي عرضت لي (وذلك في أوليمبوس *Olympoi* بغيوس) — ملازما لكل من العروس والزوج في روحانتهما وغدواتهما . وثمة نقطة تفصيلية أخرى ، لا نوحى بجزء من طقس قديم ، وإنما تكشف عن كفاية أدبية قديمة مشهورة ، لا يستبعد على الإطلاق أن تكون قد كمنت وراءها طقوس معينة . إذ تشتمل احتفالات الزفاف في أماكن عدة على فاصل من التمثيل الإيماني التقليدي الذي تجري فيه محاكاة ساخرة لعملية الحرث والبذر . غير أن الحرث ،

في اللغة اليونانية القديمة ، إنما هو تعبير شائع معروف يكنى به عن الجماع . وفضلا
عن ذلك فإن من السمات الأخرى لمراسيم الزفاف الحديثة بكاء العروس . بكاء
تقليديا منتظما ، سواء في أثناء قيام الفتيات من قريباتها أو صديقاتها بتزيينها ، أو في
أية لحظة أخرى ، إذ تختلف العادة في ذلك وعلى أية حال ، فثل هذا التظاهر
بالبكاء يعد من السلوك السليم للفئة يوم زفافها أو قبيله . وقد بلغت هذه العادة
من الذبوع والرواج في الزمن القديم ، أن أصبح البكاء ، كما تبكي العروس ، مثلا
سائرا وقولا مأثورا ؛ والعلة الأولى لهذه العادة ، تكمن — في أغلب الظن —
في كونها جزءا من مشهد التمتع والإحجام الذي يليق بكل شخص ، وجلا كان
أو امرأة أن يؤديه عند هجره لأسرته الأصلية . فلا ينبغي أن يشعر آلهة البيت
أو أرواح السلف أنه قد ازدري بهم أو أن حاتم قد ترك في غير اكترات من جانب
فرد من أفراد الأسرة وخاصة إن كان هذا إحدى كريمات البيت التي لا يقدر أن
تعود إليه أبدا . ومع ذلك فإنه من الدقائق الأخرى التي نقف عليها هنا وهناك ،
مشهد رسمي ويقدم فيه الزوج لعروسه ، تصحبه محاكاة وهمية رسمية لتجريدتهما
من الثياب ؛ وفي بورغوي Pyrrhoy بخيوس يرفع جزء من ثوب العروس ، ومن
«البوضيا» podhia كذلك التي يرتديها العريس ، وهي أشبه ببيدة ، تؤلف جزءا
من زي الرجال القديم في تلك الجزيرة . ولنا لنعلم أنه في مناطق عدة من بلاد
اليونان القديمة ، كان من مراسيم الاحتفال ، رفع نقاب العروس ، على أساس
من الافتراض السليم فيما يبدو بأن الزوج الشاب لم يكن يعد قد طالع محياها . وهناك
فضلا عن ذلك بعض المناطق التي لاتزال اعتبارات اللياقة فيها تحتم على الزوج
ورفته زيارة العروس في المساء واصطحابها إلى بيته وسط التهليل والغناء ، وغير
ذلك من مظاهر الابتهاج . وإن هذه العادة ، التي لاتعدو في الوقت الحاضر ضربا
من التبريح والمزاح ، لحقيقة بأن تعد أثرا باقيا من العصور التي كانت تمثل فيها
بالفعل الطقس الرئيسي للزفاف . وهي مستقلة ، بل إن لها الأسبقية في واقع الأمر
على المراسيم التي تقام في الكنيسة والتي تعد في الوقت الحاضر ، بطبيعة الحال ،
المراسيم الملزمة التي يعترف بها القانون والرأى العام .

ويتضح مما تقدم أنه بوسعنا ، إذا ما دققنا في هذا الموضوع أو ذلك ، أن نكتشف
على أدنى تقدير آثارا محتملة لطرق إجراء الزفاف كما كانت في الفترة السابقة على
المسيحية . ولكنه إن ثبت أن كان ديدن هذه المراسيم هو الحفاظ على تقاليد الأقدمين ،
فإن تلك التي تتصل بالموتى لمي أشد منها إمعانا في ذلك رغم كل ما قد يطرأ على
النظريات المتعلقة بالعلم الآخر من تغييرات . فليس ثمة وجه للعجب ، إذن ، إذ
نحن علمنا أن الاعتقاد هو أن الروح تبارح الجسد عن طريق الفم ، شأن النفس تماما .

والحقيقة أن هذا الاعتقاد لا يحمل أي طابع يوناني متميز ، فالإيونانية لاتعدو
كونها لغة واحدة من بين كثير من اللغات التي تستخدم — للدلالة على «الروح» soul
والنفس spirit — كلمات ترتبط من حيث الاشتقاق اللغوي بالكلمات التي تعني الريح
والنفس^(١) . ومع ذلك فلا بأس من اعتباره معتقدا يونانيا حين يظهر داخل
المنطقة اليونانية . وعلى الرغم من أن الشعور العام الذي يتعلق بمصير الروح عندما
تصل إلى العالم الآخر ، قد تأثر بطبيعة الحال بالتعاليم الكنسية ، فضلا عن عوامل
أخرى يتعذر إرجاعها إلى العصور القديمة ، إلا أنه يحمل بين طياته الكثير مما يعد
مألوفًا لا غرابة فيه في نظر اليوناني القديم . فلم يعد قضاة الموتى ، كما في الأساطير
الكلاسيكية القديمة (الآثينية منها على أقل تقدير) هم الملك أياكوس Aiaikos
ملك أيجينا العادل والملك مينوس Minos ملك كريت ، ثم شقيقة رادامانتوس
Rhadamanthys ، غير أن مجلس القضاء لا يزال في بعض الأماكن ثلاثي
التشكيل . فالقضاة هم الله ومريم العذراء والحواريون ، كما لا ينبغي أن
نسقط من حسابنا تما عامل الثراء في الحياة الدنيا ، فقد جاء على لسان أفلاطون
أن الشيخ العجوز كيفالوس Kephalos أوضح لسقراط كيف أنه من الخير للمرء
أن يكون في سعة من العيش إذا ما قضى حياته في صلاح واستقامة . فعنى ذلك
أن ليس ثمة ديون من أي نوع ستكون في عنق الشخص المحتضر ، فقد سوى
حسابه مع دائنيه من البشر كما أنه قدم للآلهة أيضا قرايبها الواجبة . ولم تضطره

(١) كما هو الحال في اللغة العربية . (المترجم)

الحاجة إلى خداع أى منهما ، ومن ثم فبوسعنا أن نفتقل في جوار إلى العالم الآخر . أما بالنسبة للقروى في العصر الحديث ، فقد اتخذت هذه الفكرة قالباً مسيحياً ؛ فإذا ما كان الراحل ثرياً ، فلن يعدم الوسائل التي تمكن من إقامة المآتم اللائق له وصلوات الجنائز الواجبة على روحه . وكلما كانت معاصي المرء قليلة كان احتضاره أقل مشقة وجهد ، ذلك لأنه من الأسباب الرئيسية في طول النزاع الأخير أن يرفض شخص ما الصفح عن المظالم التي ارتكبت في حقّه ، وغنى عن البيان أن الامتناع عن تسديد الدين إنما هو من أكثر المظالم شيوعاً ، بل هو من أشدها كذلك إثارة للمقت والكراهية .

أما الجنائز الفعلية ، فثمة نواح تتصل بها يجوز لنا أن نقول إنها انحدرت عبر العصور دون تغيير أو تبديل ، فزال طقوس إسبال جفنى الميت قائمة (ويشترط أن تقوم بذلك إحدى قريباته) وتكفينه في كفن أبيض وتشيعه إلى القبر وحاسر الوجه فوق نعشه ، كما كان يحدث في بعض الأحيان في إنجلترا زمن شكسبير . بيد أن أقدم طقس آل إلينا ، هو كذلك من أطرف الطقوس وأروعها مشهداً ، ففي معظم أنحاء الريف (وإن كانت هذه العادة في سبيلها إلى الاندثار في بعض المناطق على أقل تقدير) تجرى الأمور على النسق ذاته الذي جرت عليه في جنازة هيكتور كما جاء وصفها في ختام الإلياذة ، فإن المشيعين من كلا الجنسين ، والنساء منهم على وجه الخصوص ، يأخذون في ندب الميت وتأيينه بكلمات مرتجلة في بعض الأحيان ، وقد تكون منظومة ، إذا ما كان الخطيب أو على الأرجح المشد على قسط من المهارة يكفل له نظم ما يقول شعراً ساعة إلقائه أو قبل ذلك وتتبع هذه المنظومات قوالب الشعر التقليدية في بعض الأحيان ، وتتألف عادة من بيتين إلى أربعة أبيات ، ولكنها قد تتجاوز ذلك أحياناً إلى قصائد أشد طولاً وأعظم فخلة ، وهي تزخر في الغالب بصور خيالية بالغة الروعة . وهذه المراثي حديثة في لغتها ، لا تحمل من غريب اللفظ أو مبتذله سوى النزر اليسير ، إن لم تكن غفلاً منه تماماً ، كما أنها تنحو كذلك في صياغتها الشعرية نحو التراث الشعبي الحديث ، ولا تدين بشيء مؤكدة إلى الزمن القديم . وكيفما كان الحال ، فإن تلك

العادة في حد ذاتها ، تحدر ، في سلسلة متصلة الحلقات فيما يبدو عن أقدم العصور التي تنهى إلينا عنها ولو أقل القليل من المعرفة ، ليس ذلك لحسب ، بل إن معظم مادة الرثاء (moirologhia) مستمدة من ذات المكان التي استمدت منها نساء هومر النائحات مادتهن ، وهى فضائل الراحل وأحزان من تركهم بعده وغير ذلك من أمثال هذه الموضوعات المألوفة .

وتوحى لنا إحدى العادات الجنائزية الأخرى بالأصل الذي نشأ عنه اعتقاد قديم . فإنه من المعمود اليوم ، وكان معهوداً في الزمن القديم استخدام الماء بوفرة في أثناء الدفن . ولعل منشأ هذه العادة ومردّها الأول هو إلى تلك الفكرة البالغة القدم التي تقول إن الموت شيء مادي ، أشبه بمادة لزجة ضارة من شأنها أن تلتصق بمن يدنون من الجثة بل من الشخص المحتضر دنوا شديداً .

والوسيلة المباشرة وإن بدت بدائية ساذجة ، لعلاج ذلك ، هي أن تغسل هذه المادة من الأشخاص الذين اقتضتهم فروض الواجب أو دواعي المحبة إلى التورط في مثل هذه المخالطة الويلة ، وكذلك من الأشياء المحيطة أيضاً . مثال ذلك ما نعلمه من أنه في زمن يوربيديس ، وإلى عهد بعيد قبله وحقة طويلة بعده دون ريب ، جرت العادة على أن يوضع إناء من الماء عند باب البيت الذي تقع فيه الوفاة . وتختلف الأساليب الحديثة المتبعة في ذلك من مكان إلى آخر ، فمن صب إناء من الماء على الأرض إلى رش المياه ، المعطرة في الغالب ، على الجثمان ذاته وقت نقله إلى القبر ، ولكنها تتفق أساساً في استخدامها للماء . ولعلنا نذكر أن العالم السعلى القديم كانت تفصله عن هذا العالم مياه من نوع أو آخر ، يتحتم على الروح أن تعبرها لتصل إلى مثواها الأخير . وليس ببعيد الاحتمال فيما يبدو أن يكون مثل هذا الاعتقاد قد نشأ عن عادة استخدام المياه في الجنائزات وكيفما كان الحال ، فلا بأس من اعتبار هذه العادة في حد ذاتها — بالنظر إلى أنها توجد في كل من الطقوس القديمة والحديثة دون تغيير جوهري ، وبالنظر إلى أنها لا تمت بصلة إلى التعاليم المسيحية الرسمية — أثراً باقياً متخلفاً عن القديم وليس بدعة مستحدثة أو عادة مجتمعة .

ولذا ما نحينا جانباً اعتقاداً أو اعتقادين لا يبدو أنها يصدران عن أى تصور يوناني قديم ، وإنما يرجعان إلى عادات ومذاهب كانت شائعة معروفة في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية أو في شطر كبير منها ، فقد نلاحظ تشابهاً كبيراً بين التواريخ القديمة والحديثة التى تقام فيها طقوس في ذكرى الموتى . وبمحصر المعلومات المستقاة من مناطق شتى ببلاد اليونان نجد أن إحياء الذكرى يقع في الوقت الحاضر في اليوم الثالث والسادس والتاسع والأربعين من الوفاة ، وكذلك في آخر يوم من الشهر الثالث والسادس والتاسع ، إلى جانب احتفالات الذكرى السنوية . ونحن نعرف من الأسماء التى كانت تطلق في العصر القديم على هذه التواريخ الأسماء الأولى (وهما تريتا trita وإيناتا enata على التوالى) والأسماء الموافقة للتاريخ الثالث ، غير أن القدماء كانوا يستخدمون اليوم الثلاثين بدلاً من الأربعين .

أما السبب في حدوث هذا التغيير ، فذلك ما لا ندره ، وإن كان يرجع في غالب الظن ، إلى ما للرقم أربعين من أهمية وخطر في التراث العبرى الذى تقوم على أساسه طائفة كبيرة من العادات المسيحية . وكانت الاحتفالات الجنائزية الشهرية تقام في بعض الأحيان ، في العصر القديم ، كما أن الاحتفالات السنوية كانت شائعة معروفة ، ولقد سبق أن ذكرنا احتفالات الجينيسا genesia التى كانت تقام في أثينا وفي غيرها من البلاد . وعلاوة على ذلك ، تقضى العادات والتقاليد في الوقت الحاضر ، أو كانت تقضى في الماضي ، بأن تقام في أثناء الجنازة ذاتها ، وبعد دفن الجثمان وليمة زاخرة للغاية ، كتلك التى عرفت عن العالم اليوناني والروماني القديم منذ أقدم العصور التاريخية . وكانت هذه المأدبة تضم صنفاً من الطعام لا يتغير ولا يتبدل ، ويحتل مركز الصدارة في المراسيم الأخرى المتعلقة بالموتى ، وهو « الكلوفا » kollyva وهى لفظة قديمة تعنى في الوقت الحاضر « البليلة » أى قمح مسلوق ، تضاف إليه عادة بعض المواد الأخرى لتحسين مذاقه ، ولكن هذه ليست مواد أساسية بل ثانوية . ولعل هذه الطريقة التى تعتبر من أوضح الطرق وأيسرها لإعداد جبوب سائغة

صالحة للأكل ، تعود إلى عهد أقدم إلى حد بعيد من العهد الذى اكتشفت فيه طريقة صنع أى نوع من الخبز ، وتظهر هذه الطريقة بشكل أو آخر في الطقوس الشعبية الدارجة بمختلف أنحاء أوروبا ، غير أننا إذا ما عثرنا عليها في بلاد اليونان فلا حاجة بنا إلى أن نبحث لها عن أصل آخر سوى أنها تقليد موروث عن أسلاف من يصنعون هذا الصنف من الطعام في الوقت الحاضر ويتناولونه بصورة طقسية رسمية .

ومن ثم يتضح لنا أن عدداً ليس بالقليل من شذرات الطقوس التى يقطع بقدمها أو التى يرجح أنها كذلك ، إنما يمكن بين أضواء الحياة الحديثة . ومع ذلك ، فإلى أبرز أثر تخلف عن العالم القديم في بلاد اليونان ، كما في غيرها من أقطار البحر المتوسط ، يكن في الموقف الشعبي (بخلاف الموقف الرسمي) من المواضع الصغرى للعبادة في العقيدة المسيحية . ولاهوت الكنيسة اليونانية يطابق في جوهره لاهوت الكنائس الغربية ، فهو مذهب توحيدى في أنقى صورته وأسمى أطواره . فليس هناك سوى كائن واحد يحل أن توجه إليه العبادة بكل معانيها . غير أن الكنيسة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن عدة كنائس أخرى ، تبيح موقفاً من الإجلال العميق تجاه عدد من القديسين ، بمن كانوا أمثلة بارزة على التقوى المسيحية في الماضي ، الرسل والشهداء ومريم العذراء أولاً وقبل كل شيء . ويحل للمرء تماماً أن يكن لآى من هؤلاء التقوى والورع وأن يطلب شفاعتهم بل إنه من المعتقد فضلاً عن ذلك ، أن الكثيرين منهم ، إن لم يكونوا جميعاً قادرين بفضل البركة الممنوحة لهم ، على القيام بشتى المعجزات كشفاء المرضى مثلاً . وعلى ذلك فإن مراعاة الأسلوب الواجب في مخاطبتهم يعد من صميم العبادة الرسمية ذاتها . ولكن ذلك يبدو على أوضح صورة له في التقاليد الشعبية ، وهو ما انتهت إليه بعد كل مصادفته من الصلوات والترانيم التى وضعها أفراد من الشعب والتى لا تنسب إلى القديسات الكنسية . وقد جرت العادة على أن توجه هذه الصلوات والترانيم إلى واحد من القديسين ، أما في غير ذلك من الأحوال فتوجه إلى السيدة العذراء وتحمل في أغلب الأحيان عنواناً معيناً . فعذراء Panaghia

هذه الكنييسة أو تلك من الكنائس التي قد تكون معصورة غير نابعة الشأن هي التي يطلب إليها أن تحقق كل ما يشاؤه الصارع من طلبات .

وقد تتحول العذراء في بعض الأحيان ، كما هو الحال مع مواضع العبادة التي تتمتع بشعبية كبرى ، إلى إلهة للحرب ، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن القصص التي تروى عن الجنود اليونانيين الذين ظهرت لهم العذراء في رؤى وهي تقودهم ضد الغزاة الإيطاليين في الحروب الأخيرة ، نصيداً كبيراً من الصحة . وقد ينجح بعض القديسين الآخرين كلما دعت الحاجة إلى التخصص في وظائف معينة ، ترشدنا إليها أسماؤهم في بعض الأحيان . على أن نستعين في ذلك باشتقاقات لغوية لا نقل تطرفاً أو جموحاً عن أى من الاشتقاقات التي استخدمت في الزمن القديم .

فالقديس إيزيدور Isidore على سبيل المثال ، (إيزيدوروس Isidhoros في اليونانية) يوحى لمسمع العامة بكلمة « الحديد » ، زيفيروس sidheros ، ومن ثم يطلب إليه أن يجعل الشخص المريض « قوياً كالحديد » . ويتحول القديس فوتيوس Photios من وقت لآخر إلى أنثى تحمل اسم فوتيا Photia ، وهي اللفظة الشائعة في الوقت الحاضر للدلالة على « النار » ، وتنسب إليه قوات عظيمة في الوقاية من التيران بما في ذلك بنادق العدو ومدافعه . أما القديس اليوثيريوس Eleutherios ، أو ليفتيريس Lefteris كما يدعو العامة ، ففي مقدوره ، كما يستدل من اسمه أن « يحرر » أو « يخلص » ، وفي استطاعته على وجه الخصوص معونة المرأة في ولادتها ، وهي خدمة كثيراً ما يطلب إليه أداؤها . ولقد سبق أن أشرنا إلى القديسين كوزماس Kosmas وداميان Damian ؛ وهما ليسا بحال القديسين الوجدانيين اللذين توليا مهام اسكليبيوس ، كما أن من بين أقرانهما قديساً مشهوراً في مونتيليني يحمل اسماً على مسمى وهو ثيرابون Therapon أى « الشافي » . وعلى غرار اسكليبيوس أيضاً ، فإن هؤلاء القديسين الشافين غالباً ما يبحثون من يلوذون بهم طلباً للعون ، على الميت في كنائسهم حيث يوافقونهم إما برؤى للنطاسيين السماويين ، وإما بنصيحة طبية للعلاج ، وعادة ما يتلقون مثل اسكليبيوس القرايين والنذور وغير هذه من تذكارات الشفاء التي يقدمها المرضى الشاكرون . وإن هذه الحقيقة وكثيراً

غيرها ، لتذكرنا بأنه ما زال يمكن وراء التسليم باللاهوت المسيحي ، ذلك التسليم الذي يتسم عادة بالغيرة والحمية وبصحة التزام صارم بالفرائض الدينية المعقدة التي ترتبط بالعشاء الرباني في العقيدة الأرثوذكسية ، قسط ليس بالهين بين البسطاء السذج من الناس ، من العقلية المرتبطة بالديانات المشتركة التي تؤمن بتعدد الآلهة .

وهكذا تبعنا ، في عرض بالغ الإيجاز ، تاريخ الديانة اليونانية السابقة على الديانة المسيحية ، منذ أقدم أشكالها المعروفة إلى الآثار التي لم تزل باقية منها حتى يومنا هذا أو إلى عصور قريبة . أما من أراد أن يحيط بالموضوع إحاطة أكثر شمولاً فعليه بالرجوع ، في المقام الأول ، إلى المؤلفات المدرجة في ثبت المراجع .

(٢) الديانة الكريتية وآثارها الباقية :

Nilsson, M.P., The Minoan-Mycenaean Religion and its Survival in Greek Religion, Lund, London, Oxford, Paris and Leipzig, 1927.

كتاب عمدة .

(٣) الديانة اليونانية القديمة :

Farnell, L.R. Cults of the Greek States, 5 vols., Oxford, 1896-1909.

Farnell, L.R. Greek Hero-Cults and Ideas of Immortality. Oxford, 1921.

الكتابان السالفان من أكثر الكتب الإنجليزية استيعاباً وشمولاً ، وهما من بين أفضل الكتب التي ألفت في أية لغة من اللغات. أما الكتب الأقل حجماً فهي :

Farnell, L.R. Outline history of Greek Religion. London, 1920.

عرض موجز جيد للغاية . أما قائمة مراجعه ، فعلى الرغم من أن المؤلف أحسن اختيارها إلا أنها تعد الآن قديمة متخلفة .

Nilsson, M.P. A History of Greek Religion, trans.

F.J. Fielden. Oxford, 1925.

Nilsson, M.P. Greek Popular Religion. New York, 1940.

Nilsson, M.P. Greek Piety. سيصدر قريباً (Oxford).

(٤) معبودات معينة :

مثل هذه المؤلفات لا يقع تحت حصر ، وهذا هو الحال أيضاً مع المؤلفات التي تتناول عقائد أماكن معينة ، بيد أن الكتابين التاليين يزخران بالمعلومات القيمة الثمينة :

Cook, A.B. Zeus. 3 vols., Cambridge, 1914-40

المراجع

المؤلفات التي تناولت الديانة اليونانية تبلغ حداً بعيداً من الضخامة ولم تبذل هنا أية محاولة لإيراد نيت كامل بالمراجع ، ولكن المؤلفات التالية ، وكلها بالإنجليزية ، مفيدة نافعة .

(١) الأصول والتاريخ المبكر :

Harrison, Jane Ellen. Prolegomena to the Study of Greek Religion. 3rd edition, Cambridge, 1922.

Themis, a Study of the Social Origins of Greek Religion. 2nd edition, Cambridge, 1927.

مادة طريقة مبتكرة ولكنها تحوى عادة محاولات غير مأمونة في التعليل والتفسير في ضوء عادات الشعوب المتخلفة .

Marett, R.R. (editor). Anthropology and the Classics. Oxford, 1908.

مقالات بأقلام كتاب عدة تتناول همزات الوصل بين العقائد القديمة المعروفة ومثيلاتها في الثقافات غير الكلاسية .

Murray, G.G.A. Five Stages of Greek Religion. Oxford, 1925.

يسر هذا الكتاب ، على نحو ما ، على نهج مؤلفات مس هاريسون ، فيما يتعلق بالفترة المبكرة .

Rose, H.J. Primitive Culture in Greece. London, 1925.

يحوى على وجه الخصوص كل ما هو معروف أو ما يمكن اقتراضه فيما يتعلق
ببقية زيوس وغيره من آلهة السبل المعروفين أو المرجح وجودهم . وكثير
ما يختلف المؤلف الحال مع الأجزاء النظرية من الكتاب السالف الذكر ، غير
أن مادة الكتاب روعى في اختيارها دقة باللغة كما أنها غنية واقرة .

Edelstein, Emma J. and Ludwig. *Asclepius: a Collection
and Interpretation of the Testimonies*. 2 vols., Baltimore,
1945.

(٥) الأورفية :

Guthrie, W.K.C., *Orpheus and Greek Religion*. London,
1935.

أوفى كتاب في اللغة الإنجليزية ، يتم عن سعة اطلاع وغزارة علم ، ونعقل
وإتقان بالتين ، ويتحاشى الكتاب ضروب المغالاة والشطط التي وقع فيها كثير
من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

Linforth, Ivan M. *The Arts of Orpheus*. Berkeley and Los
Angeles, 1941.

دراسة نقدية ممتازة .

(٦) روابطها بالمسيحية :

Halliday, W.R. *Pagan Background of early Christianity*,
Liverpool, 1925.

ما زال من أعظم الدراسات الموجزة .

Nock, A.D. *Conversion*. Oxford, 1933.

يقدم هذا المؤلف معلومات واقرة عن الفترة المتأخرة ، في مجال دراسة
ظاهرة واحدة هي مراحل الانتقال من ديانة إلى أخرى .

(٧) روابطها بالأخلاق .. الخ

Farnell, L.R. *Higher Aspects of Greek Religion*. London,
1912.

Moore, Clifford Herschel. *The Religious thought of the
Greeks*, 2nd edition, Cambridge (Mass.), 1925.

دراسة موجزة وفيرة المعلومات طريفة الأسلوب .

(٨) الآثار الباقية في اليونان الحديثة :

Argenti, P.P., and Rose, H.J. *Folklore of Chios*. Cambridge.

كثير من الأمثلة الواردة في الفصل السابع مأخوذة عن هذا المؤلف .

Lawsen, John Cuthbert. *Modern Greek Folklore and Ancient
Greek Religion*. Cambridge, 1910.

طريف ولكن يخطئ في كثير من المواضع .

ولأنه لما يؤسف له أنه لا يوجد مؤلف إنجليزي عرض للسر القديم بدراسة
واقية يعول عليها ، كما لا يوجد في أي لغة من اللغات كتاب شاف تماما حول
علم التجيم اليوناني .

وهناك ترجمات إنجليزية لمعظم المؤلفين اليونانيين . ولا حاجة بنا إلى أن
نذكر بالاسم سوى مؤلف واحد هو :

Frazer, (Sir) J.G., *Pausanias' Description of Greece*, 2nd
edition, 6 vols., London, 1913.

كتاب بالغ القيمة لحواشيه وتعليقاته الواقية كما يحوى أيضا فهرسا رائعا .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تمهيد
٧	الفصل الأول : مقدمة
١٨	الفصل الثاني : آلهة العوام
٦٠	الفصل الثالث : أصول الآلهة
٨٤	الفصل الرابع : حماة المدينة
١١٧	الفصل الخامس : الآلهة تحت الاختبار
١٥١	الفصل السادس : آلهة الحكماء
١٨٠	الفصل السابع : الآثار الباقية
١٩٨	المراجع

التمن ١٣ درشا

دار الهنا للطباعة ت ٧١٣٢٧